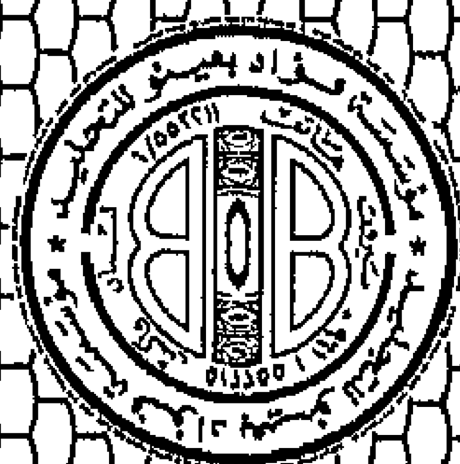


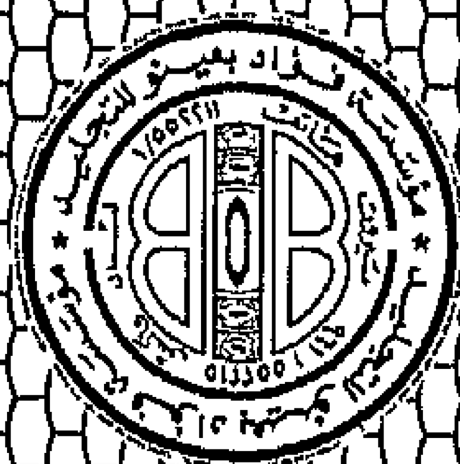
ما لا نعلِّمه لأولادنا

نظام المحرمات

د. خالص جلبي

الأندلسية
مركز الراية للتنمية الفكرية





إهـــــــداء ٢٠١٣

الاستاذ عبد الله فيصل بدوى

جمهورية مصر العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

ما لا نعلِّمه لأولادنا

الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م



مركز
الراية
للتنمية الفكرية

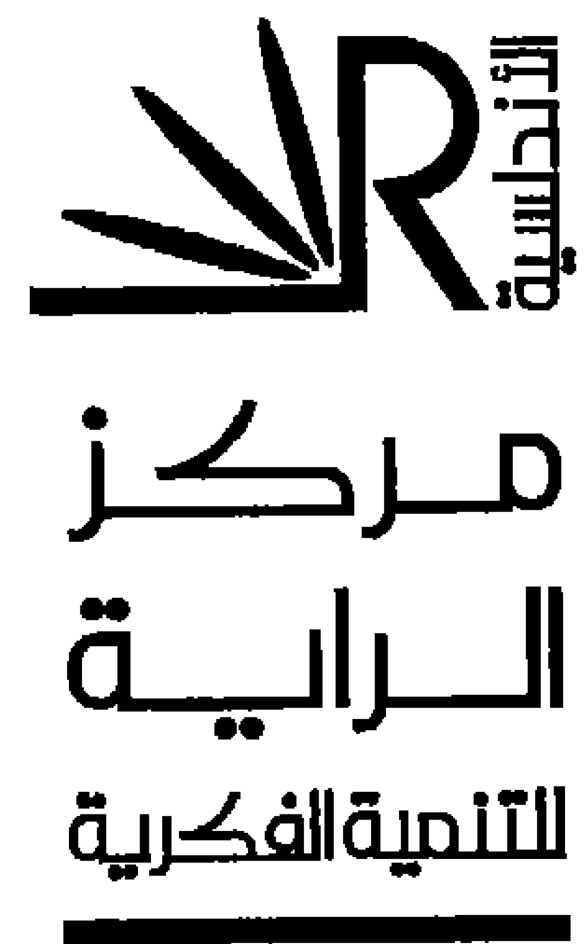
المملكة العربية السعودية
جدة - حي الجامعة
ص.ب ٤١٥٤٧-الرمز البريدي ٢١٥٣١
جوال ٠٠٩٦٦٥٢٦٨٢٢٤٧

عنوان الكتاب: ما لا نعلِّمه لأولادنا
- نظام المحرمات -
تأليف: د. خالص جلبي
تنفيذ طباعي: مركز الراية
قياس الصفحة: ١٧ × ٢٤ سم
عدد الصفحات: ٣٥٨
عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة

ما لا نعلّمه لأولادنا

- نظام المحرمات -

د. خالص جلبي



سيرة ذاتية

- الدكتور خالص مجيب جلبي من مواليد القامشلي في الجمهورية العربية السورية عام ١٩٤٥م.
- درس الطب والشريعة ونال بكالوريوس في كل منهما عام ١٩٧١ و١٩٧٤م.
- تخصص في الطب في ألمانيا وبقي فيها لمدة ٨,٥ سنة.
- تعرض من أجل أفكاره للاعتقال السياسي أربع مرات وكتب في ظروف الاعتقال الأخير كتابه الطب محراب الإيمان (جزء ثاني).
- صدر له حتى الآن أكثر من عشرين كتاباً.
- يكتب حالياً بشكل دوري في كل من جريدة الشرق الأوسط اللندنية، والاتحاد الإماراتية بشكل أسبوعي كما له عمود يومي في جريدة الوطن السعودية.
- هاجر إلى كندا بعائلته وكسب الجنسية الكندية عام ١٩٩٩م.
- يعمل حالياً كرئيس لوحدة جراحة الأوعية الدموية فيسلك نهاراً شرايين المدخنين ويعكف ليلاً على تسليك مجاري الفكر العربية.
- يؤمن بالعلم والسِلْم وأنهما الجناحان اللذان يمكن أن نطير بهما للمستقبل.

تقديم

✍ [بقلم إبراهيم البليهي
مدير عام بلديات القصيم السابق
والكاتب في جريدة الرياض]

خالص جلبي مفكر من طراز فريد فهو يجمع بعمق واتساع بين الثقافة الإسلامية وثقافة العصر وهو مفكر جادٌّ إلى أقصى درجات الجد لا يسمح بإهدار لحظة واحدة من وقته لكنه ليس عابساً ولا متجهماً بل إنه دائم الابتسام والابتهاج وهو رغم إدراكه العميق للركام الثقيل الذي يعاني منه العالم الإسلامي فإنه متفائل بموعد انبلاج الفجر فلا يسمح لليأس أن يتسلّل إلى عقله وهو رجل سلمي يكره العنف ويستهجن التعصب ويدعو إلى السلم والتسامح والانفتاح وتبادل الاحترام بين المجتمعات والفئات والطوائف والأفراد وهو مفكّر يهتم بالفكر إلى درجة العشق ويحترم العلم إلى درجة تقترب من التقديس.

ما رأيتُ مثله في ولعه بالمعرفة وحبّه للعلم وإخلاصه للحقيقة وحفظه للوقت ومثابرته على البحث وعشقه للكتاب وحرصه على كل ما يزيده علماً أو يُكسبه بصيرة..

منظّم التفكير بشكل رائع ويتحدث عن أفكاره بتسلسل عجيب وترابط آسر وبمستوى لا يقل عن مستواه في الكتابة.. يكره فضول القول ولا يطيق حشو المحسنات البلاغية أو المترادفات فاللّغة عنده وسيلة لنقل الأفكار والتواصل مع الناس لذلك لايقبل من نفسه ولا من غيره أي لفظ بلاغي لا تقتضيه مهمة التوصيل وإبلاغ الأفكار.

عظيم التديّن ولكن بوعي مشرق.. شديد الولاء للإسلام ولكن دون تعصب ولا تجريم للآخرين.. يحفظ القرآن ويُرتّله بخشوع ولكن ذلك لم يمنعه من أن يكون نَهِماً في قراءة الفكر أياً كان مصدره وأن يكون دارساً لمنجزات المفكرين في القديم والحديث بإمعان وعمق مهما كانت اتجاهاتهم..

إن عشقه للمعرفة هو من النوع النادر العجيب وإن استمتاعه بالعلم يشبه حالة التوحُّد عند أهل التصوف وهو من أجل ذلك يتفحص عناوين الكتب كما يتفحص البخيل سبائك الذهب وتكاد الكتب الجديدة الجادة أن تخطف عقله من شدة الاهتمام والرغبة والتعلق وهو لا يقرأ للتسلية وتزجية الوقت وإنما يقرأ دارساً منقّباً من أجل المزيد من فهم الوجود والإنسان والمجتمع..

منذ حداثته لم يعرف عبث الشباب ولا تفاهات المراهقة وإنما كان جاداً منذ صباه ففي المرحلة الدراسية الإعدادية كان دائم الحركة بحثاً عن مجالس الذكر أو ندوات الفكر وكان يصغي بعقل متلهف إلى المعرفة يستخلص من كل فئة خير ما عندها.. أما في مرحلة الدراسة الثانوية فقد دخل مرحلة العطاء وكان متوقد النشاط يلقي المحاضرات ويعطي الدروس وهذا النضج المبكر بالغ الندرة في حياة الناس..

ومن دلالات التميّز الملحوظ والجد المتوقد والنضج المبكر أنه في نهاية المرحلة الجامعية بكلية الطب كان مطلوباً منه أن يقدِّم كغيره من الطلاب بحثاً جامعياً مختصراً لا يتجاوز حجم المقالة ولكنه في هذا الظرف القصير أنجز كتابه الشهير (الطب محراب الإيمان) الذي كان بداية لمشروع علمي رائد يستهدف تعزيز الإيمان بالعلم والفكر والفطنة وقد وجد الكتاب آنذاك وما زال إقبالاً شديداً من القرّاء وصادف رضى من المتابعين لأنه كان وقت صدوره أقوى دراسة علمية فكرية تتصدى لموجة التشكيك التي كانت تملأ الأرض بالإرجاف والمغالطة..

ومقدرته العقلية والمعرفية على التطور السريع قد تجلَّت في الفرق الذي بدا واضحاً بين جزئي الكتاب نفسه فرغم قِصَر المسافة الزمنية بين إنجازهما فإن الجزء الثاني (من كتابه الطب محراب الإيمان) قد كشف عن وثبة فكرية ملحوظة وعن تطور نوعي في التفكير لافت للنظر..

وفي عام ١٩٧٢ التقى (بمالك بن نبي) قبيل وفاته رحمه الله ولازمه شهراً كاملاً فكان هذا اللقاء نقطة تحول في تفكير (خالص جلبي) حيث ظهر ذلك واضحاً في كتابيه الهامين (النقد الذاتي) و(ظاهرة المحنة) ومنذ ذلك التاريخ تحدَّد اتجاهه الفكري الوسطي الواضح الذي يجمع بين عمق الإيمان وانفتاح العقل والاقتناع بحق الآخرين في المغايرة في التفكير وحقهم في التعبير عن أفكارهم ومواقفهم فهو يمقت الوصاية على عقول الناس ويرى أن الطريق الصحيح للتحولات الاجتماعية هو السماح لجميع الاتجاهات الفكرية أن تتصارع حتى يكتشف الناس الحقيقة من خلال النقد والنقد المضاد فيستجيبون بالإقناع وليس بالإخضاع..

وبعد توقُّفٍ عن التأليف دام سنوات استأنف الكتابة الأسبوعية بجريدة الرياض فكان هذا الالتزام الأسبوعي بهذا المستوى الرفيع لكتابة المقال الرئيسي للجريدة شاهداً حياً على غزارة معرفته وتوقّد حماسه وعمق إيمانه بقيمة الفكر وشِدّة إحساسه بمسؤولية المفكر وقد وَجَدَت هذه المقالات من القراء ومن المفكرين والمتابعين تقديراً بالغاً ومتابعة حميمة..

إنني بهذه السطور القليلة لا أُقدِّم كتاباً وإنما أقدِّم كاتباً، فحسب الكتاب أن يكون من إنجاز (خالص جلبي) ليكون جديراً بالقراءة والاهتمام...

* * *

مجتمع الخوف

تعرفت على رجل فاضل في دمشق عندما بدأت حياتي الجامعية وكان مدرِّساً لا يعيبه شيء سوى أنه بين الحين والآخر ينحبس لسانه فيتأتئ! كانت هذه (التأتأة) تزداد معه طرداً مع التوتر فإذا ارتخى انفلت لسانه فكانت له عذوبة في الحديث، وتجرأت يوماً فسألته عن سبب انعقاد لسانه فروى لي أنه عندما كان طفلاً غضب عليه أبوه فأراد تربيته بلون من العقاب لا ينساه فدفع به إلى ظهر السطح في العراء وهو ذميم طوال الليل أصيب فيها بنوبة من الرعب الأعظم كانت الأعنف في كل حياته؟! وبذلك نجح الأب الفاشل في إنزال العقاب فضبط الطفل ورباه ولكن بلسان أخرس!

وهكذا تفعل الأنظمة القمعية فهي تحقق مجتمعاً أمنياً إلى أبعد الحدود أكثر من أمريكا التي تنتشر فيها الجريمة بثمن قاتل من مواطن أخرس في مجتمع مشلول في مقبرة تضم حفار قبور واحد وقبور تبلع وجثث تتوافد. ولكن يوماً من الحرية في الغرب يعادل ألف شهر من أيام الأمن في الشرق المستباح. قال صاحبي: إنه نزل تلك الليلة فلم يعد ينطق، ثم تحسّنت حالته بعد ذلك ولكنها تحولت إلى علّة لم تفارقه مدى الحياة؟

وأعرف قصة امرأة شابة أصيبت برعب شديد فلم ينبلج الصبح عليها إلا وقد اشتعل الرأس شيباً! وتعلمنا من الطب أن داء السكري قد يحدث بعد نوبات مريعة من الانهيارات النفسية. ويقص لنا القرآن عن النبي يعقوب عليه السلام أن عيناه ابيضت من الحزن فهو كظيم، وعندما جاءه الخبر بعودة المفقودين شم رائحة يوسف من مسافة مئات الأميال فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ

أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قبل أن يأتي البشير فيلقي القميص عليه ليرتد يعقوب بصيراً في مفاجأة لا يملك الطب لها تفسيراً.

اعتبر عالم النفس (بريان تريسي) أن الطفل يأتي إلى الدنيا بريئاً لا يعرف الخوف إلا من أمرين: الأصوات العالية والسقوط من شاهق. وعدا هذين الأمرين لا يعرف الطفل الخوف فلا يفرق بين الجمرة والجوهرة والعصا والثعبان وأمه فكلهم عنده سواء.

الخوف كمخزون غريزي جيد فلدغة الأفعى والجمرة المحرقة تشكل تهديداً مباشراً على الحياة؛ فيتعلم الطفل أن يتجنب النار ويهرب من لدغة العقرب، ويتشاءم من رؤية رجل الأمن كما يتشاءم الفأر إذا رأى قطة سوداء؟؟ ولكن الثعبان ليس كعصا النظام فسم الكوبرا ترتيب طبيعي لا حيلة لنا تجاهه، والله ﷻ قد منحنا تجاه هذه المخاطر حفاظاً علينا آلية الخوف، وهكذا فالشعور بالخوف يدفع العضوية إلى الاستنفار فيضخ القلب كمية أكبر من الدم، وتتوسع الحدقة لمزيد من الرؤية، وتتقلص العروق المحيطية ويزداد تجلط الدم تحسباً لنزف قاتل، وتضخ الغدد المزيد من الأدرينالين والكورتيزون والسكر استعداداً لاستهلاك أكبر من الطاقة. ولكن الخوف من النظام السياسي ثقافي نصنعه بأيدينا ندشن فيه مواطناً منافقاً يتقن فن الخرس والكذب والتآمر في حزمة إمراضية واحدة؛ إن تحدث مدح مولاه بدون مبرر إلى درجة القرف، وإن نطق كذب على طريقة أشعب حتى يصدق نفسه، ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا﴾ ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾.

في هذه النقطة تختلط الغريزة مع الثقافة على نحو سيّء لأنها تحفز آليات الخوف بدون مبرر وتكررها على نحو ضار؛ فالخوف العابر في مواجهة حادث سيارة طبيعي، لكن أن يعيش الفرد في مجتمع ترتعد فيه مفاصله من الخوف بالعشي والإشراق فهذا مرضي.

ولكن لماذا كان استيلاء هذه المشاعر سيئاً ضاراً؟؟ جوابه في حديث العضوية فكل المؤشرات سلبية فالمعدة تتقرح، والضغط يسعى حثيثاً لتفجير الدماغ، فالوجه مصفر، والريق ناشف، والمزاج سيء في مؤشرات لا تحكي الصحة قطعاً؟

نحن لا نواجه الأفاعي كل يوم، ولا تلدغنا العقارب كل لحظة، ولكننا في زحمة العمل الاجتماعي نتوتر ونتصادم ونخاف، أو ننجز ونتعاون ونتحاب، ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾.

بقدر ما كان الخوف ضمن شروطه ضرورياً لنجاة العضوية، بقدر ما كان ضاراً في الثقافة لإنسان ينمو في ظل مجتمع مشبع بالخوف.

نحن نَبَتنا في بيئة مكتوب علينا الخوف، بختم على الحبل السري، مدانين بدون ذنب، نخاف فيها من صيحة الأب وعصا الأستاذ وسجن الحاكم، لا نشعر فيها بلحظة أمان من المهد حتى اللحد؛ ودخول القبر يصوره لنا البعض أنه ولوج أقبية المخابرات نواجه أسئلة محرجة في مواجهة جلادين يمسكون بأدوات تعذيب؟ لا أننا نواجه رباً كتب على نفسه الرحمة؟

الأب يُربّينا على احترام قواعد السلامة في مجتمع انقلب منذ أيام الحجاج إلى قطيع من الصيادين للفرص بأن السكوت من ذهب وإذا نطقنا فيجب أن نقول كلاماً لا يوقظ نائماً ولا يزعج مستيقظاً في محافظة على سيمفونية الشخير العام أن لا يخرج منها صوتاً نشازاً، والأستاذ يلوح بالعصا يضبط الصف بالخوف محذراً من سؤال خارج المنهاج، والنظام مدجج بكل السلاح المتطور منشغل ببناء أجهزة أمنية من حجم خرافي تدب على الأرض بأثقل من أطنان الديناصور اللاحم تواجه مواطناً أعزلاً خائفاً كما يواجه المسدس العصفور؟

وهناك من يقرأ القرآن فيتمتع باستحضار الآيات التي تشع بالعذاب

والنار في حكاية عن ثقافة تعتمد الترويع أكثر من حكمة القرآن البالغة.

وتحكم دائرة الخوف قبضتها إغلاقاً على الأنثى؛ فالرجل يهدد المرأة من أول ليلة يدخل بها أنها بضاعة مسجلة انتقلت بالبريد المضمون من يد الأب إلى الزوج أنه الأعلى؟ وهل هناك شهادة أفضل لنقل الملكية من بطاقة حفل الزواج التي رصعت باسم الذكور الاثنين المتلقي العريس والأب المانح (كريمته كذا؟)؛ فالفتاة ليس لها اسم بل هي بنت فلان، والزوجة معدومة الكنية فهي حرم فلان في ملكيات لا تنتهي للذكر؛ والميراث يتم الاحتيال عليه لكائن ناقص العقل قاصر يحتاج إلى الوصاية عليه في الوقت الذي يقول القرآن ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾، والعلاقة الجنسية تعاقَبُ عليها الفتاة بسفك دمها الحلال من أقرب الناس إليها تطهيراً للشرف في الوقت الذي يُنظَر إلى الذكر أنه يُنَمّي تجربته الجنسية قبل الزواج، في ثقافة حولاء تعتمد الفحولة أكثر من العدالة، والله سبحانه يعدل في توزيع عقوبة الزنا للجنسين بالتساوي، وتبقى مشكلة النزف من ليلة الزواج الأولى أعظم اختبار لشرف العائلة؛ فما لم يتدفق دم البكارة مِدراراً تتورط الأنثى وأهلها في فضيحة اجتماعية.

إن مجتمعاً بهذا القدر من التشوه تنقلب طبيعته فيصبح ذكورياً توضع فيه كل المفاتيح بيد الرجل المكين الأمين بما فيه جواز السفر الذي يُسأل فيه موافقته على قاصر غير مخولة الحركة غير مؤتمنة، تُحفظ فيه الأنثى كجوهرة في بيوت أشبه بالقلاع أو البنوك أسوارها عالية تختفي منها الشروط الصحية من تهوية وإنارة، بنوافذ صغيرة محكمة الإغلاق بشبك من حديد بزجاج أسود سميك، في ثقافة عوراء عرجاء مثل أسطورة (شق وسطيح) في التراث؛ فأما الأول فكان بنصف بدن يقفز برجل واحدة، وأما الثاني فكان مسطحاً كحدوة الحصان بدون عظام، ولكن هل تستطيع كائنات أسطورية من هذا النوع أن تمشي سوياً على صراط مستقيم؟؟ في الوقت الذي

يمتن الله سبحانه على نبيه أنه سيمنحه زوجات سائحات؟ ولكن ثقافتنا ودعت السياحة منذ أيام ابن بطوطة؟.

كان بعض المثقفين يلفت نظر السلطان العثماني أن يزور بلاد الغرب سائحاً لأن هناك تطورات مثيرة تحدث؛ فالعالم يتبدل ولم تعد أوروبا في قبضة ملوك طغاة بساقين من كنيسة وإقطاع؟ كان جوابه: سلطان المسلمين لا يزور بلاد الكفار إلا فاتحاً؟

انتبه كل من رشيد رضا والقاسمي لمعنى (السياحة) عند المرأة أنه مفهوم قرآني مُغيَّب في الوقت الذي اصطدم الآخرون بكلمة (سائحات) ضمن ثقافة ترى المرأة حبيسة الجدران فلم يكن أمامهم إلا الاستعانة بآلية توليد المعاني من الألفاظ، في عمل أقرب إلى السحر فيمكن أن نُخرج منها ما نشاء، كما يفعل حاوي السيرك الذي يُخرج الأرانب من القبعات، وهكذا أصبح معنى السائحات بشكل ما صائمات؟ كما حصل في تحول الفأرة إلى ثعبان في قصة الملا الكردي وتلاميذه؟

كان المدرس (الملا) الكردي ينقل لتلاميذه نصاً فقهياً يترجمه من العربية إلى الكردية: انظروا أيها التلاميذ: إذا وقعت الفأرة في السمن فخرجت حية (أي على قيد الحياة) ولكن الملا فهم أنها حية موسى التي تسعى فتابع يترجم: فخرجت ثعباناً؟!... يبقى السمن حلالاً؟ تعجب أحد التلاميذ فسأله أيها الملا كيف خرجت ثعباناً وكانت فأراً؟ صرخ به الملا اسكت أو ما تفهم؟!

التحرر من الخوف

الخوف ضروري كآلية حفاظ على العضوية إذا جاء ضمن الوسط الذهبي بين قطبي اليأس والأمل، وهو ضار ثقافياً لأنه يمزق شبكة التعاون الاجتماعية وينتج النموذج المنافق، ويمكن التحرر منه بغرس شجرة اللاعنف، لأن شجرة العنف جذورها الكراهية وثمرتها الخوف والجريمة، وشجرة اللاعنف جذورها الحب وثمرتها الأمن والسلام الاجتماعي، فهذه مضامين فلسفية أولى يجب أن يضعها رجال الأمن العربي في اجتماعاتهم التي لا تنتهي في كيفية مكافحة الإرهاب، وهذا يتطلب جراحة ثقافية، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾.

يتساءل عالم النفس السلوكي (سكينر) في كتابه (تكنولوجيا السلوك الإنساني) عن علاقة السلوك بالمشاعر وجدلية تأثير كل طرف على حده المقابل. هل نحن نخاف فنهرب أو أننا نهرب فنخاف؟ الواقع أن كلاهما سليم فعندما نخاف نبتعد، وبقدر حجم الخوف يكون الفرار، وهو بدوره يزيد من جرعة الخوف ويدعم تأثيره.

يُعتبر الخوف عامل طرد كما أن الأمل يُعتبر قطب الجذب المقابل، وهكذا فأفضل (حقل) تتحرك به النفس هو السباحة بين قطبي الخوف والأمل، وهذا يُفسِّر لماذا سلَّط الدين هذين التيارين على عقل المؤمن بين جنة عرضها السموات والأرض أُعدّت للمتقين، وناراً تتلظى نزَّاعة للشوى في إعدام بدون إعدام؟!

لعلّ أفضل وضع للحركة عند مطاردة مجموعة لشخص تريد النيل منه

أن يركض مستخدماً أفضل مهاراته الفيزيائية والروحية عندما يخاف أن يقع في قبضتهم مع كل أمله أنه يمكن أن يتخلص منهم، وبين هذين القطبين يكون الركض على وضع مثالي، وتبدأ الحركة في التباطؤ طرداً مع ازدياد شحنة أحد القطبين، عندما يبدأ شعور الخوف بالازدياد، والإحساس بالأمل بالتلاشي، وتتوقف الحركة تماماً عند استيلاء أحد الشعورين الكامل على الإنسان؛ فبقدر ما كان الخوف ضاراً كان الأمل سماً قاتلاً، من هنا نبه القرآن أن لا يستولي علينا هذا الشعور المخدر بالأمن ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ وبالمقابل أن لا نطوق باليأس فهي صفة الكافرين.

نخلص من هذا أن جمود الروح وتَيَبُّسها في حقل بعينه يقتلها، وأن مخطط الحركة وتواترها بين قطبين هو الذي يدفع تيار الحياة إلى الوجود كما في التيار الكهربائي، فهي ظاهرة موجودة في الحياة أينما تفقّدها المرء فالدماغ الميت يعطي مؤشر السواء بدون موجات، وخفقان القلب يعطي مخطط صعود وهبوط بدون توقف، والكهرباء تقوم بترددات لا تعرف الراحة، كذلك الحال في فعالية الروح وحركة المجتمع، وكذلك كان مخطط الحضارات في التاريخ بين يقظة وتألق فانهيار وتفسخ سنة الله في خلقه.

يفيدنا علم النفس في فهم ظاهرة الخوف على نحو آخر ويمكن دمج العلوم العصبية بمفاهيم قرآنية باستخدام العلوم المساعدة؛ فلا يمكن اعتماد تفسير قديم لفهم القرآن مع روح العصر إلا بقدر استخدام أدوات فرعونية لفتح الجمجمة في الجراحة العصبية؟ وهذا ليس نيلاً من مكانة المفسر ولكن الرجل لو بعث في يومنا هذا بمعلومات عصره لزلزل وشرع في كتابة تفسير جديد يتحول معه تفسيره القديم إلى قطعة متحفية، أمام طوفان للحداثة يكتسحنا وتتبلل عباءاتنا من سماء تفتح أبوابها بماء منهمر من المحطات الفضائية وتتفجر الأرض عيوناً من الأنترنيت. نحن بأوضاعنا وأنظمتنا

القرون أوسطية أصبحنا متحفاً للسياح أو حديقة حيوانات يحافظ الغرب فيها على بعض الأنظمة بأشد من محافظة جماعة البيئة على أصناف من الحيوانات المنقرضة. نحن اليوم كمن يريد قياس الأرض بالشبر، ومن كان عنده مكتبة ضخمة لا تضم إلا كتباً في السحر ليس أمامه إلا أن يمارس الشعوذة وزمع الكهان.

علم النفس يرى الروح تسبح في ثلاث حلقات بين النفس (العادية NORMAL) وحالة (العصاب NEUROSIS) و(الذهان PSYCHOSIS) في توتر يصعد وينخفض من المؤشرات المختلفة في مخطط لا يعرف الراحة والتوقف حتى في النوم فهناك الوجود الثاني لنا عندما ينفلت اللاوعي من قبضة الوعي فيتحرر لينشد أنغامه الخاصة في فسحة سجين بدون حراس. نحن نسبح في عوالم مختلفة من الانفعالات تجللنا سحب الحزن، ويغشانا ضباب الشهوة، وننهار مع انكسارات الحزن، ونعمى مع انفجارات الغضب، ولكن سرعان ما نتغير فتختفي غيوم الإحباط، وتشرق شمس السعادة، وتضيء الروح بنور ربها بكل الانفعالات الإيجابية، وهذا النشاط من التردد طبيعي يشهد للنفس أنها تعيش مخططها اليومي العادي، ولكن هل تبقى الروح هكذا أم يمكن أن تنزلق للأسفل أو تصعد للأعلى؟

إن الدين يسعفنا بمدخل رائع للنهوض بالروح في رحلة الاكتمال نحو بناء النفس المطمئنة كما فعل الإمام الغزالي في تحليله لمعارج القدس في مدارج معرفة النفس، كذلك يتوجب علينا أن نلج (علم النفس المرضي) و(علم النفس الإنساني).

إذا بقي الإنسان في تردد عادي مع مخططات هبوط وصعود بين الخوف والرجاء كان ضمن الحلقة العادية؛ فإذا زادت جرعة الخوف تحولت إلى رهاب (فوبيا PHOBIA) تدفع الروح إلى الانزلاق إلى عتبة دنيا لتدخل

دائرة خطيرة من القلق المدمر؛ فإذا تكثف شعور الخوف وازدادت جرعته تحول إلى سم، ونحن نعرف هذا من الطبيعة والدواء؛ فالطعام لا نأكله بدون ملح، ولكننا كذلك لا نأكله إذا امتلأ بالملح وفاض، والدواء إذا أعطي بجرعته فوق العادية ينقلب إلى سم بدل أن يكون ترياقاً، وبقدر ما كان الحديد أساسياً في بناء الدم فإن تراكمه يقود إلى تشمع الكبد القاتل، وكذلك المشاعر فممارسة الجنس الحلال يعطي بهجة للروح ولكن الولوغ فيه يدفع الروح نحو التفسخ والإباحية، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾.

إن رفع جرعة الخوف في المجتمع يقوده إلى شلل على مقداره ونسبته، ولكن هناك قدراً أفظع بالانحدار إلى عتبة دنيا تُطوّق الإنسان حزمة من المشاعر السلبية؛ كأن يشعر أن كل الناس يتآمرون عليه وكل اثنين يتكلمان فهما حوله لأذيته؟ وهو المعروف في علم النفس بالزور البارانويا (PARANOIA) فيدخل المريض حالة من تكزز الروح وسيطرة مخطط ذو ذرى جنونية حادة عالية متقاربة، جعل الناس يتعارفون عليها أنها الجنون.

مقابل هذه الحلقات الثلاث يتقدم لنا القرآن برؤية تكاملية تصعد للأعلى بين النفس الأمّارة بالسوء وتلك التي تمارس النقد الذاتي (اللّوامة) وتلك التي نضجت (المُطمئنة).

ما ينطبق على الفيزياء والسيكولوجيا يصدق في ميدان علم الاجتماع فالثقافة المريضة تُعلِّمنا أن الحاكم إله لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، أو تُعلِّمنا أن الزوايا المظلمة تعجّ بالغيلان والجان، والثقافة المذعورة تحقن عروقنا بالجرعة السمية من الخوف فلا يبقى رجل الشرطة موظفاً يؤدي دوره لا داعي للقلق منه، ورجال الاستخبارات أجهزة أمن وليسوا أجهزة رعب كجزيئات الهواء يدخلون الرئتين مع كل زفير وشهيق يَعلمون خائنة الأعين

وما تخفي الصدور، وهكذا فالثقافة تحقن الوعي بالخرافة أو العلم بالأوهام أو الحقائق..

القرآن أراد بناء ثقافة يحيد فيها الخوف والحزن لنعيش في مجتمع نطعم فيه من جوع ونأمن من خوف، ولكن تاريخنا ممتلئ بالرعب فالحاكم يبني أجهزة أمنية بحجم خرافي، والمحكوم يلجأ إلى حماية نفسه بالتآمر والنكتة والدعاء للخلاص من الحكام والظُّلّام وأولاد الحرام، وإذا سنحت له الفرصة لجأ إلى التنظيمات السرية تحت الأرض في حل يلغي كل الحلول.

نحن نعيش نكتة الدجاجة والثعلب.

أصيب رجل بخوف شديد فخُيِّل إليه أنه دجاجة يتربص بها الثعالب ريب المنون فانحصر في منزله لا يفارقه؛ فأخذه أهله إلى طبيب نفساني بارع استطاع أن يصل إلى إقناعه أنه بشر سوي وليس دجاجة مطلوبة من الثعالب المحومة حول البيت؟ خرج الرجل من العيادة أخيراً يبدو معافى، ولكنه بمجرد أن وضع قدمه في الشارع انقلب مذعوراً ترج مفاصله تدور عيناه كالذي يغشى عليه من الموت، حتى ارتمى في أحضان أهله؟ صرخ به الطبيب قائلاً: ولكنك اقتنعت أنك لست دجاجة أليس كذلك؟ أجاب باستسلام: نعم يا سيدي ولكن هل اقْتَنَعَتْ الثعالب في الخارج أنني لست دجاجة؟

التربية الديموقراطية
(قصة النمر والبوم والأرنب)

يُعَرِّف (آلان تورين) الديموقراطية في كتابه (ما هي الديموقراطية؟ حكم الأكثرية أم ضمانات الأقلية؟) أنها ثلاث أشياء: قواعد أولية في حق اتخاذ القرارات الجماعية، وأكبر قاعدة من المشاركة، وأن تكون فعلية وليست صورية، ولهذا فإن رصيد الديموقراطية هو وعي الأمة أكثر من صناديق الاقتراع، الديموقراطية ثقافة وتربية يجب أن يتشربها الطفل مع رضّاعة الحليب ومنذ الأيام الأولى من حياته.

ولفت نظري الكتاب المُصوّر المُلوّن الذي أحضرته ابنتي القادمة من كندا وهي تقرأ لابنها البالغ ١٥ شهراً قصة (النمر والبوم والأرنب) باللغة الإنكليزية، تأملت القصة وتمتعت أنا شخصياً بها لأنها تعطينا المفتاح لفهم الديموقراطية. وتذكرت في هذا الصدد ما فعله (أورويل) في كتابه حيوانات المزرعة الذي أُخرج على شكل فيلم كرتون. وقبل ذلك (ابن المُقفَّع) الذي كان صاحب الفكرة العبقرية بإنتاجه كتاب (كليلة ودمنة) فأنطق الحيوانات والطيور. وكان ابن خلدون أيضاً بارعاً في استخدام مثل هذه القصص في مقدمته كما جاء في قصة (البوم والملك والموبذان).

وأضع بين يدي القارئ هذا النموذج من تربية الطفل الكندي على الروح الديموقراطية وستكون مسلية لكل قارئ أن يأخذها لطفل حوله فيقرأها عليه؛ فنعرف لماذا تنبت الديموقراطية في غابات كندا وتعجز عن النهوض في منطقة أرض الحضارات دجلة والفرات.

كان النمر يتأمل صور وحوش الغابة فأدرك أنه ينتسب إلى فصيلة الأسد ملك الوحوش فقال في نفسه: يجب أن أكون ملكاً أيضاً. هكذا قال النمر. ولكن البوم الحكيم قال: لسنا بحاجة لملك. قال النمر: ولكن ما تقولون لو أن وحشاً خطيراً يعسّ الآن في جنبات الغابة يهددكم؟ سأل النمر: من سيحميكم منه؟ أُسقط في يد حيوانات الغابة. أعدّ النمر خطة بدهاء. تسلَّل إلى بيت الأرنب مستغلاً فرصة غيابه عن منزله فسرق غطاء طاولة ووسادة ومكنسة، ثم عمد النمر إلى هذه الأغراض فصنع منها شكل حيوان مفترس غاضب وعلّقه على جذع شجرة بخيط. قال النمر في نفسه يكفي هذا القدر من التخويف حتى أفوز بالعرش وأُنصَّب ملكاً.

عندما اقتربت الحيوانات من الشجرة بدأ النمر بهز دمية الوحش الكاسر إلى أسفل وأعلى وبدأ بالصراخ: حيوان مفترس... مكرراً حيوان مفترس. انجوا بأرواحكم قبل الهلاك. ثم قام النمر بحركة مسرحية فهجم على دمية الوحش وعاجلها بضربات من عصا أمسكها في يده، ثم انقض عليها فأمسك بها بإحكام وحشرها في قفص أعدّه للمسرحية. سكن روع حيوانات الغابة وبدأت تصفق للنمر المنتصر وتصيح: نجونا.. نجونا لقد أنقذنا النمر، يجب أن نُتوّج النمر ملكاً علينا أجمعين. هكذا تم تتويج النمر ملكاً على غابة (المائة هكتار) وتمَّ انتخابه بإرادة جماعية لم يغب فيها إلا الأرنب. وبدأ النمر فوراً بممارسة صلاحيته كعاهل عظيم يعلو عرشاً مهيباً ويلمع على رأسه تاج مُرصّع. قال النمر: قبل كل شيء ومن الآن وإلى الأبد يجب أن نُغيّر اسم غابتنا (المائة هكتار) فتصبح منذ اللحظة تحمل اسم (مدينة النمر TIGER POLIS). هكذا أعطى النمر أوامره الأولى. وكان الأمر الثاني أن تُلوَّن أشجار الغابة على شكل مخطط تَيمُّناً بجلد النمر فلا يليق بها أن تخسر الصبغة الملكية وتحرم الرعية هذه الرؤية البهيجة. قال النمر: فليكن على لونين ممتعين للرعية بالأسود والبرتقالي لاشيةَ فيها تسرُّ الناظرين.

انهمكت الرعية في صبغ أشجار الغابة باللون الجديد، وجلس النمر على عرشه يتأمل الحيوانات والطيور وهي تكد في العمل الشاق وعلى شفتيه ابتسامة الرضا. عندما انتهت حفلة الدهان فلم يعد في الغابة شجرة خضراء كانت الحيوانات مرهقة ففاجأها النمر بالأمر الثالث: ابدأوا بالتصفيق والرقص ابتهاجاً بإنجازاتي. قال الدب (بو) (وهو رمز مهم ومحبوب في ثقافة الأطفال في شمال أمريكا): ولكن أقدامي متعبة يا سيد الغابة؟ أشار النمر إلى دمية الوحش بإصبعه ولم يتفوه بكلمة. ارتعب الجميع وأدركوا بسرعة أنه لا يجب الجدال مع ملك. ولم يكن أمامهم سوى أن يتابعوا القفز بهمة احتفالاً بالانتصارات السلطانية.

أثناء هذا الصخب والرقص الحامي مَرَّ الأرنب مستغرباً مما يحدث فوقف مغتاظاً لأنه رأى أشياء تخصه وهمهم قائلاً: يبدو لي أن هذا غطاء طاولتي، وتلك وسادتي التي أنام عليها، وهذه المكنسة التي أَنَظِّف بها فناء داري، هذه الأغراض كأنها هي التي أملكها. تابع الأرنب قائلاً: إذا كان النمر قد استعار هذه الأشياء بغير علمي فيفترض به أن يستأذن قبل أن يأخذها ويتصرف، سوف ألقنه درساً لن ينساه. مد الأرنب يده فاسترد أغراضه المفقودة، ثم عمد إلى ورقة فكتب فيها كلمات وألصقها على القفص الفارغ وانصرف إلى بيته، مر البوم الحكيم فلفت نظره اختفاء الوحش من القفص ووعى ما جاء في الورقة المعلقة، ثم اقترب من النمر الملك فقرأها على مسامعه، فيجب اطلاع الملك على كل صغيرة وكبيرة. كانت الورقة تحمل توقيع وحش كاسر جديد متجول في الغابة يقول فيها: لقد حررت صديقي من الأسر وهو بصحبتي الآن، أصيب النمر بالخوف فقد انقلبت اللعبة عليه وقد يكون هناك وحش فعلي هذه المرة.

أطلق النمر صفارات الإنذار وصاح بحيوانات الغابة: عل كل منكم النجاة بجلده بالفرار إلى شعف الجبال ورؤوس التلال. قال الدب (بو) وهو

يحك رأسه بعد أن فكر ملياً: أليس علينا أن نمسك بهذا الوحش الشارد ونقي أطفالنا شر افتراسه. تابع: إن عليك حمايتنا أيها النمر الملك وإلا فلماذا مَلَّكناك علينا. أجاب النمر: أنت محق ليتبعني كلّكم، وبدأوا يمشون على آثار الوحشين قَصصاً. كانت خطوات الوحشين تقود إلى بيت الأرنب. اقترب النمر بحذر فعاين الداخل ثم هتف: إنه الوحش في الداخل، واقتحم الباب وانقض عليه، كانت مفاجأة غير سارة بانتظار الجميع عندما ارتفع صراخ الأرنب بأعلى صوت: أيها النمر السارق إنها أغراضي التي سرقتها وليست وحشاً كما زعمت. شعر النمر بالخزي واعترف حقاً إنها كذلك. ثم حاول تدارك الموقف عسى أن ينفع فقال: ولكن ما زال هناك وحش شارد آخر في الغابة يهددنا خارج هذا المكان وهو من كتب على الورقة. صاح الأرنب من جديد: ليس هناك من وحش أنا من كتبت الورقة.

قال أحد الحيوانات: إنني لا أفهم أيها الملك ماذا يجري أمامنا هل يمكنك أن تُفسِّر لنا ما حدث ويحدث؟ نكس النمر رأسه خاشعاً من الذل، وقد أدرك أن كل ألاعيبه باتت مكشوفة وقال: علي أن أدلي باعتراف. أنا من صنع دمية الوحش الموهومة لأنني أردت برغبة عارمة لم يمكنني مقاومتها أن أكون ملكاً، ولقد تماديت في هذا السبيل. ثم ابتلع النمر ريقه وكرر: إنني آسف لما فعلت. قال الحصان: أظن أننا أمام اعترافك بالخطأ يمكن أن نسامحك بعد كل ما فعلت فالتوبة تَجُبُّ ما قبلها. إنك الآن صديقنا من جديد. قال النمر وقد استطاع أن يرفع رأسه من الذل ويتأمل من حوله سعيداً: أحقاً هذا... ثم صرخ: إنني صديقكم قطعاً. قال الدب (بو): ولكن ماذا سنفعل بكل هذه الأصباغ التي لطخنا بها أشجار غابتنا الجميلة الخضراء، وبالرقص والتصفيق الذي أنهَكْتَنا به؟ قال النمر: أعدكم أنني لن أعيد هذه الفعلة الشنعاء أبداً إلى آخر الدهر.

قالت الحيوانات: تعالوا نعمل حفلة خلع التاج، علينا أن نتخلص من

هذا التاج اللعين فهو سبب كل مصائبنا، اجتمعت الحيوانات حول النمر مسرورة، ومدت يدها إلى رأس النمر فأزالت ما وضعت من تاج، ورمت العرش إلى غير رجعة، وفرحت واحتفلت حتى مطلع الفجر. وقف النمر يتحدث في حفلة التخلص من العرش والتاج قائلاً: الحق أقول لكم إنني أشعر الآن بأفضل ما يكون. أنني نمر حقيقي بدون تزييف: إنني الآن نمر يقفز مرحاً بدون عدوان. إنني وإن كنت لست مَلِكاً فشعور الأخوة أكرم وأرحم من الاستبداد. إنني والحمد لله ما زلت نمراً كما ولدتني أمي. قال الأرنب بعد هذه الحفلة المزعجة بتنهد: إنها حقيقة. ابتسم النمر للجميع بعد أن عادت الغابة إلى سيرتها الأولى وهو يقول: أنا نمر حقيقي فريد من نوعي أما الملوك فهم كثيرون.

عادت الحيوانات سيرتها الأولى أخوة متحابين. وهَنَّأْتُ حفيدي أنه سينشأ في وسط تخلّص من الوثنية السياسية، أما نحن فأمامنا الكثير من الوقت ونحن نقرأ قصص كلية ودمنة وغدر العصر العباسي قبل أن ندخل العصر.

اليوم الأشد سوءاً في تاريخ ألمانيا الحديث
(مذبحة إيرفورت)

عند الساعة ١١ ظهراً من يوم ٢٦ أبريل من عام ٢٠٠٢م اقتحم الطالب (روبرت شتاين هويزر ـ ١٩ سنة Robert Steinhaeuser) ثانوية (جوتنبرغ Gutenberg) في مدينة (إيرفورت Erfurt) الألمانية وعلى ظهره كيس مليء بالأسلحة والذخائر. فغطى وجهه بقناع ثم دخل المبنى وهو يحمل مسدساً وبندقية قصيرة من نوع (Pumpgun)؛ فقتل في الطابق الأرضي السكرتيرة (أنيليزة شفيرتنر Anneliese Schwertner). وأكمل بها في نفس الغرفة بنائبة المديرة (روزيماري هاينا Rosemarie Hajna). ثم اعتلى الأدوار وهو يمشطها واحداً بعد واحد. ويصطاد الأساتذة والمعلمات مثل العصافير بدون أجنحة ويقتل مباشر في الممرات أو أمام أعين التلاميذ في الحصص ومن مسافة قصيرة وبسلاح شديد التفجير لا ينجو منه أحد وبيد مُدرَّبة تماماً فقد كان حائزاً لشهادة التدريب على إطلاق النيران من النادي المحلي وكان حصاد الهشيم ١٥ قتيلاً.

ثم قفل عائداً من الطابق الثالث بعد الحملة الانتقامية وصادف في طريق العودة أستاذ التاريخ (هايزه Heise) ولكنه عفَّ عنه لسر غامض، ثم هبط إلى الحديقة وهناك قتل معلمة الفنون (بيرجيت ديتكيه Birgit Dettke) ولما رأى أن لا أمل له بالنجاة دخل البناء مرة ثانية وقتل الشرطي (أندرياس جورسكي) فأكمل به ١٦ ضحية. وفي الطابق الأول خلع عن رأسه القبعة ليجتمع بمدرس التاريخ هايزه مرة ثانية فصاح به: أنت هو إذاً روبرت،

أجاب بهدوء: نعم ويكفي اليوم حصاده. كان مدرس التاريخ محظوظاً فالشاب ما زال مسلحاً ولكن فورة الدم كانت قد هدأت فاستطاع دفعه إلى غرفة ملابس صغيرة وأغلق الباب عليه. وهنا دوى صوت طلقة فقد كان (شتاين هويزر) ينزف دماً من فك مدمر وطلقة اخترقت الجمجمة. وبذلك اجتمع في العالم الأخروي ١٧ فرداً يختصمون، في حصيلة مروعة لم يشهدها العالم حتى الآن في صراع الطلبة والأساتذة، وكانت أمريكا قد ضربت الرقم القياسي، ولكن الألمان بِدقَّتهم المعهودة خرقوا الرقم القياسي في هذا السباق.

حضر الجنازة الجماعية مائة ألف ويزيدون من كل ألمانيا ومنهم رئيس الجمهورية في جو من الصدمة والعزاء أدخل الشلل إلى التفكير لكل ألمانيا. والسؤال: كيف يحدث مثل هذا في مجتمع يسبح في الزبدة والعسل يأتيه رزقه رغداً من كل مكان ويتمتع بالأمن والرفاه والضمانات الاجتماعية؟ وفي مدرسة عريقة يعود بناءها إلى عام ١٩٠٨م، كُتب على واجهتها في المدخل الأيمن: «تعلم من أجل أن تعيش» ويقابلها في الزاوية الأخرى: «عش من أجل أن تتعلم» وكيف يحصل أن طالباً ثانوياً من نفس المدرسة يفاجِئ مُلقّنيه العلم بقتلهم واحداً خلف الآخر في حمام دم لا يرحم؟

ليست حادثة (شتاين هويزر) الأولى من نوعها ففي ٢٠ نيسان عام ١٩٩٩م أقدم كل من (إيريك هاريس) و(دايلان كليبولد) في الذكرى (١١٠) لولادة الفوهرر وهما يؤديان التحية الهتلرية وعلى ذراعهما شريط يقول: أكره الناس، فقتلا ١٣ إنساناً بين مدرس وتلميذ، وجرحا ٢٨ ثم انتحرا، وحتى عام ١٩٩٧م تواترت تسعة حوادث مزلزلة قتل فيها التلاميذ والأساتذة وزملاءهم، كان أشدها حادثة طفلان لا يزيد الكبير منهما عن ١١ سنة قتلا في مدرستهما في مدينة (جونسبورو JONESBORO) من ولاية (آركنساس) المعلمة وأربعة من التلاميذ، وفي (أوريجون) قتل مراهق بعمر ١٥ سنة اثنين

من الزملاء وجرح ٢٢ شخصاً، وفي ٩ نوفمبر من عام ١٩٩٩م في (مايسن) في ألمانيا اقتحم طالب ثانوي الحصة وطعن الأستاذة بسكينتين ٢٢ مرة فخرت تسبح في دماءها، ولما سُئِل الفاعل قال: كنتُ أكرهها.

يُعرف القتل الجماعي في الطب الجنائي بظاهرة (الأموك Amok) وهو مرض يُصاب به ثلاثة أصناف من الناس: جماعة الشيزوفرنيا (الانفصام) والمصابون بـ(الاكتئاب) وأخيراً (ذو الشخصيات المضطربة)، ويحمله واحد في المليون من الرجال مقابل واحد من عشرين مليون بين النساء، ولذا كان ٩٥٪ ممن يتعرض له من الرجال. فأما مجموعة (الفصام) فهم يقعون تحت تأثير تصورات أن قوى شريرة تنصب لهم المؤامرات أو أنهم معرضون لهجوم من كائنات غريبة من المريخ وسواه، وهم في العادة قتلة من النوع (المفرق) وليس (الجملة) ويقتلون في العادة من حولهم، فقد يخنق الحفيد جدته وقد يقتل الزوج زوجته وأولاده بل وأمه وأبيه.

و(النوع الثاني) المصابون بالاكتئاب حيث يستولي عليهم شعور مسيطر باستعادة الشرف كما في نموذج (آرنست فاجنر) الذي ذكره الخبير الألماني (لوثار أدلر Lothar Adler) الذي درس ٢٠٠ حالة في كتابه (مجانين الآموك) قتل المذكور زوجته وأولاده وحتى يُقنع نفسه أنه قتل كل العشيرة فقد أوقد النيران في قريته (مول هاوزن)، ويُروى عن جنكيزخان أيضاً أنه كان يأمر بذبح العشيرة كلها أو إفناء قبيلة بدون تردد، ولم يحفظه التاريخ بين سلسلة المجانين (الآموك) بل الفاتحين العظام، وهو ليس الوحيد في قائمة العقلاء المجانين، ومن الغريب أن أكثر من يمارس القتل الجماعي هم طواغيت العالم الثالث ولكنهم يُعبدون من دون الله ويُعتبرون قديسين تُزار أضرحتهم أو أبطال يُدعى لهم على رؤوس المنابر وتُسك العملة بصورتهم البهية.

و(الصنف الثالث) هم ممن يعانون من (اضطراب الشخصية) يمتاز

أحدهم بشدة التعلق بأمه ويميل إلى بناء عالم مثالي يزداد انفكاكاً عن الواقع مع الوقت. وقصة (شتاين هويزر) تدخل تحت هذا التقسيم فقد كان شاباً عادياً ولم يُعرف عنه العدوانية، ويعكف اليوم على حادثته مجموعة من المتخصصين في الأمراض النفسية والطب الجنائي وعلماء النفس والتربويين، والمعلومات الأولى التي جاءت عن تربيته النفسية وخلفية الطفولة لم تُظهر سوى أن الشاب بعد سن المراهقة بدأ يدخل في حالة انعزال أكثر وصمت يزداد إطباقاً، ويبدأ العيش في عالم خاص به يتكون من غرفة تضم كمبيوتر وتلفزيون وفيديو، لم يكن له أصدقاء ولا يختلط بالناس كثيراً وصديقته الوحيدة كانت القطة (سوزي). كان يسمع الموسيقى الصاخبة ويكرر معهم: ما الناس إلا قمامة، كان يرى أفلام الرعب ويستطيبها ومناظر القتل الجماعي فيتمتع بها. وأكثر ما كان يستهويه ذلك الرجل المعتمر قناعاً يغطي شخصيته ويحمل سلاحاً ثقيلاً ويقتل أعداءه على نحو جماعي بدون رحمة، وبشغفه بالكمبيوتر انقطع عن الدراسة أكثر، وفي فترة الأشهر الستة الأخيرة لم يعد يداوم على المدرسة ولم يكن يعرف أبواه شيئاً بسبب الكذب عليهما بما فيها تزوير علامات الامتحانات وشهادات المدرسة، إنها كما نرى جريمة المجتمع والثقافة من جانب ولكن لا أحد يشير بإصبعه إلى ذلك.

يمتاز مريض القتل الجماعي (الآموك) بست صفات: أنه وسطياً رجل في حدود ٣٥ سنة، والأقرب أن يكون مثقفاً وبقدر ثقافته بقدر بطشه، وعادة يقع في ظروف الحادثة تحت انهيار نفسي من البطالة على الرغم من كفاءته المهنية، ويمتاز بأنه خامل جنسياً أو خجول لا يعرف الحب أو الجنس. وفي النهاية مستعد للقتل بسرعة وأعصاب باردة وقسوة الحديد وفي العادة يكون قد انتقى سلاحه واستعد ليوم الفصل وما أدراك ما يوم الفصل. ويمارسه على شكل طقوس مثل لبس القناع الذي يحمل عدة معاني: تُحَوِّل الإنسان إلى آلة، والمحافظة على مسافة بينه والآخرين. وليس آخرها إثارة

الرعب، وفي النهاية ينتحر، وبقدر عدد الجثث بقدر ميله للانتحار.

يقول الخبير الألماني (آدلر): إنها حالة تشبه الخرّاج الذي يزداد امتلاءً بالقيح حتى تأتي تلك اللحظة التي ينفجر فيها الخرّاج ولات مناص. وكانت تلك الساعة مع (شتاين هويزر) يوم ٢٦ أبريل عام ٢٠٠٢م.

وفي مدينة عربية انفجرت أحداث العنف فهربت نسوة البناية إلى القبو واحتشدن في زاوية فدخل رجل مسلح من القوات الخاصة عليهنّ ووجَّهَ فوهة الرشاش وبدأ حصد الأرواح فأسرعت إحدى الأمهات وخبأت ابنتها تحتها واستقبلت الرصاص. وخلال لحظات تحول المكان إلى بركة دم وجثث. نجت الفتاة وخرجت بعد يومين من تحت الأموات، وعانت لفترة طويلة من صدمة نفسية، وهي الشاهدة الوحيدة على الواقعة.

إن هذه القصص لا توردها مجلة (دِير الشبيجل) الألمانية وليس هناك من يستطيع التحقيق فيها حتى اليوم.

الكراهية تربة العنف

(المذبحة الأعظم في مدرسة ليتلتاون)

العنف شجرة خبيثة تربتها الكراهية وثمرتها الخوف والجريمة، تتبرمج في النفس من خلال (دورة حضانة) للأفكار تترسخ في اللّاوعي لتطفح في النهاية على السلوك مثل المرض الفيروسي في إنتاجه مرض جنون البقر والبشر، يمارسه أناس خارج المصحات العقلية صفتهم أنهم عقلاء يفكرون؟ وهي مثل طيف اللون بدءاً من (أزرق) الحقد مروراً بـ(أصفر) الوجه من القسمات البغيضة واللفظ السام، وانتهاءً بـ(أحمر) اللهب والصواريخ. وهي في النهاية مرض نفسي ينتحر صاحبه في النهاية كما فعل (إيريك هاريس) وزميله (دايلان كليبولد) وهما يؤديان التحية الهتلرية في الذكرى (١١٠) لولادة الفوهرر فيقتلان ١٣ إنساناً بين مدرس وتلميذ، ويجرحان ٢٨ جروح بعضهم خطيرة، ويخران صريعين غارقين في الدم في كافتيريا المدرسة الثانوية في مدينة (ليتلتاون) من ولاية كولورادو الأمريكية، في مدرسة نموذجية من أحد ثماني مدارس هي الأفضل في كل أمريكا، في مدينة هادئة تضم ٤٠ ألفاً، يعيش فيها الناس بأكثر من الأمان فلا يُغلقون أبواب بيوتهم ليلاً.

في ليلة ٢٠ نيسان ١٩٩٩م كان (دايلان كليبولد DYLAN KLEBOLD) مع زميلته (ديفون آدامس DEVON ADAMS) ويقضيان الليلة على أنغام موسيقى حالمة يغزلان نسيج المستقبل بخيوط من أحلام وردية، ولم يَدُر في خلد الفتاة أن هذا من طقوس القبائل (الجرمانية التيوتونية) قبل استقبال الموت فبعد ٦٧ ساعة من نسمات الليل الباردة كان كل من (أريك هاريس

١٨ سنة) و(دايلان كليبولد ١٧ سنة) يرقدان جثثاً هامدة في كافيتيريا المدرسة الثانوية، بعد أن جرا معهما إلى العالم الآخر قبضة من البشر في مذبحة هي الأعنف من نوعها في تاريخ أمريكا الحديث.

عند الساعة ١١,٣٠ ظهراً من يوم عشرين نيسان (إبريل) من عام ١٩٩٩م صعد الاثنان في سيارة BMW سوداء، مسربلين بأقنعة سوداء يحملان حقائب ثقيلة تضم بندقيتان ومسدس عيار ٩ملم نصف أوتوماتيكي وغدارة و٣٠ قنبلة قاما بتصنيعها بأنفسهما ثم حَشواها بالزجاج، بالإضافة إلى قنبلة بزنة عشرة كيلوغرامات تفجر المدرسة وما حوت.

توجه الاثنان إلى الكافتريا يلبسان معاطف ضباط الاستخبارات النازية (الجستابو) الجلدية السوداء الطويلة بمشية هتلرية ثم يقومان بعزل ثلاث مجموعات: السود والإسبان والرياضيين، ولمدة ساعة يبدأ منجل الموت يحصد الأرواح فيقتلان ببرودة أعصاب مترافقة مع ضحكة هستيرية بين حين وآخر؛ فعندما طاردا الفتى الأسود فقتلاه بثلاث زخات متتابعة تخاطبا: هل قُتل الزنجي التافه؟ نعم... ثم أقبلا على بعضهما يتغامزان بعد أن اندلق دماغه من الجمجمة: هكذا إذن يبدو دماغ الزنجي إنه أبيض؟ إنه حقاً شيء عجيب؟ ثم يمضيان يقهقهان كإبليس.

ليست حادثة (ليتلتاون) الأولى من نوعها فمنذ عام ١٩٩٧م تواترت تسعة حوادث مزلزلة يقتل فيها التلاميذ الأساتذة وزملاءهم، كان أشدها حادثة طفلان لا يزيد الكبير منهما عن ١١ سنة قتلا في مدرستهما في مدينة (جونسبورو JONESBORO) من ولاية (أركنساس) المعلمة وأربعة من التلاميذ، وفي (أوريجون) قتل مراهق بعمر ١٥ سنة اثنين من الزملاء وجرح ٢٢ شخصاً.

كانت الجريمة تصب على حقل إنساني محدد من السود أو البنات أو حتى الرياضيين والأطفال، ففي كندا قبل سنوات قام مجنون من هذا النوع

محقون بكل هلوسات الجنس وعقد كراهية المرأة فقتل في حصاد واحد ١٤ فتاة جامعية، وفي ألمانيا في فرانكفورت كانت جرعة الموت من حظ مجموعة من أطفال المدرسة الابتدائية على يد رجل كهل كاره لكل الحياة وما حوت من نضارة وبراءة الأطفال فسلبهم الحياة وأهلهم السعادة، ولحق بهم سريعاً غير نسيان إلى عالم الأموات (أوزيريس وأنوبيس) السفلي بإطلاق النار، وفي (ليتلتاون) كان إيريك هاريس يوجه كلامه إلى الرياضيين والسود ثم يقوم بتوجيه طلقاته مباشرة إلى الوجه فيتفجر ممزقاً.

كانت الحادثة بمثابة الزلزال للمجتمع الأمريكي، وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون أن العنف في السينما أو حرية وسهولة الوصول إلى اقتناء الأسلحة هي السبب فيما حدث، وهي الجزء الأبسط المعلن من رأس جبل تيتانيك العنف المختفي في أوقيانوس المجتمع، يرطم سفينة المجتمع بالضربة الموجعة على غير موعد.

ولكن ما هو العنف تحديداً؟ هل هو ممارسة الحرب وإطلاق الرصاص؟

(سكينر) عالم النفس السلوكي رأى أن برمجة العنف يبدأ في الصدور قبل تراشق الصواريخ، العنف يحتل طيفاً عريضاً من مشاعر النفس فتعبر عنها قسمات الوجه بالحقد واللسان بالتعبير السام واليد بالبطش والمجتمع بالحرب، ولكن الحوض الأساسي للعنف يبدأ من البرمجة الذهنية واستيلاء مشاعر الكراهية كمرض ثقافي يتشربه اللّاوعي فيفرز السلوك، ويعمل مثل المرض العضوي، ويبدأ في ضخ مظاهره الإمراضية. فيروس البوليو يعطب الجهاز الحركي عند الأطفال فتشل السيقان، وجرثومة الكوليرا تحتل الأمعاء فتتدفق بإسهال منهمر، ولولبية الزنا الشاحبة تقود إلى صمغ الدماغ فيختل بالعتّه والجنون.

إذا كان مرض العضوية يحدث بـ(الوحدة UNIT) الإمراضية من فيروس وباكتريا؛ فإن مرض العنف وحدته الإمراضية (الفكرة) المدمرة.

الكراهية تربة العنف تشبه الرمل الفارط تنمو فيها شجرة العنف لتسقط

تحت ثقلها بعد حين، وتقوم مشاعر الكراهية بنفي الآخر والارتداد على الذات، فلا تتوحد مع الآخرين ولا تعترف بهم. الكراهية تشحن لكل المشاعر السلبية من الغمز واللمز والانتقاص والأذية حسب كثافتها؛ فإذا استعرت قادت إلى إفناء الآخر بالجرعة القصوى.. الحرب.

الكراهية هي التربة التي تمد جذور العنف بأسباب البقاء في ثلاث ظواهر: (هاريس وزميله كليبولد) يعلقان على الذراع الصليب المعقوف النازي مكتوباً عليه بأحرف لا تقبل التأويل وباختصار: (أكره الناس I HATE PEOPLE)، والصرب محتقنون بحقد تاريخي لا يملكون الفكاك من قبضته ينكأ جرحه مجرمون من حجم (رادوفان كارديتش وآركان وسلوبودان)، ويمكن لهذا المرض أن يكرر إنتاج نفسه في كل مجتمع، مبرمجاً لآلية العنف، عندما يغتصب الفرد إرادة الأمة بالاستبداد، ما لم تتلقح ضده بالدواء النوعي.

(هاريس وكليوبولد) يكرهان الزنجي فيقتلانه، والصرب يرون عين الصواب بأن لايبقى عليها غير صربي في البلقان، والنازية أرادت مد (المجال الحيوي LEBENSRAUM) إلى شرق أوربا بتنظيف الأرض من الشعوب السلافية الوضيعة، وعندما يلجأ الحاكم إلى توظيف القوة وممارسة الإكراه واغتصاب إرادة الأمة تقاومه بطريقتين ظاهرة وباطنة تدشن مبدأ التقية حتى إشعار آخر، التظاهر بالرضوخ مع الكذب خارجاً، والكراهية مقترنة بالتآمر داخلياً، وعندما تلجأ الروح إلى تربة الكراهية فإنها تستلهم العنف آلياً، وعندما يغتصب الفرد إرادة الأمة تنكسر رافعة التوازن النفسي، والطبيعة تقوم على التوازن، وتوازن النفس هنا هو رد الاعتبار في برمجة العنف من جديد.

المشكلة في العنف أنه لا يحل مشكلة بل يقود إلى دورة عنف أشد هولاً وأعظم نكراً، هكذا علمنا التاريخ باتساع دورات الحرب، وهكذا عالج (هاريس) مشكلة الأسود بقتله والانتحار، وعندما يلغي الفرد الأمة يبرمج لإلغاء نفسه ولو بعد حين.

قصة المرأة

أعترف للقارئ أنني مررت أثناء نضجي الفكري بمراحل أكاد لا أصدق نفسي فيها، بين لا شيء وبين الحيادية وبين التعصب وبين الانفتاح والنضج، وكذلك خلقنا الله طبقاً عن طبق. وخلقكم أطواراً، مالكم لا ترجون لله وقاراً، ومن أعجب الأمور التي كانت البيئة المحلية توحيها لنا أن تعليم المرأة يفسدها ولا يرقيها. كما يُنقل عن أبي العلاء المعري: وعلموهن الغزل والنسج وخلوا قراءةً وكتابة. ولقد طبقت هذا أنا البطل بصرامة على أختي فحرمتها من متابعة التعليم وأنا أحزن وأندم حتى هذه الساعة. ولكن لو بكى الإنسان دموعاً بقدر مياه دجلة هل سيعيد ما حصل.

وأنا اليوم أحاول تصليح أخطائي وأتوب إلى الله العليّ الغفّار، ولقد هيّأت لبناتي الآن كل ما رغبن وزيادة، وأصغر بناتي الآن تدرس في الحقوق ولم ترغب في الطب نهائياً لأن الطب عمل يَدَيْن ومناوبات ليلية مرهقة، والمهم فعند تدفّق قصتي من حفريات الذاكرة عرفت أنني لست الوحيد الذي كان أعمى فهداه الله كما قال فرعون لموسى وهو يمن عليه. ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾، فلا عجب من انقلاب الأشياء إلى أضدادها، وكما في الحديث: **أن الناس معادن وخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**[١].

(١) متفق عليه.

وفي عام ١٨٩٩م سمحت ألمانيا للمرة الأولى بأن تدخل البنات كلية الطب فتتخرج طبيبات وكانت الفتوى أنه لا يليق بالمرأة أن تختلط بالرجال وأنها لا تتحمل رؤية المصابين وقَطع الأعضاء في الحروب ومناظر الدم المريعة في الجراحة ورؤية الجثث في دروس التشريح وهي عارية، وكأن الجثة تستحي أو أن الطب يتقدم بدون معرفة كل شيء في الجسد، وفي ألمانيا يُعلمون الطبيب حكمة الكشف عن كل الجسد لأنه وحدة مترابطة، أما عندنا فيجب الكشف عن ثقب بحجم رأس دبوس، ولكن يجب مسايرة عقول الناس وإلا خسرتَ رأسك ورزقك.

كما حدثني من أثق به أن فوجاً من المتشددين هجموا على رئيس بلدية يطلبون منه نفي القرود من البلدة، وكان الرجل قد وضعها تسليةً للناس بجانب شلال مائي، قال المتعصبون: إن القرود تمارس الجنس علانية. قال: ويحكم ولكن هذا يحصل في مزارعكم بين الجمال والمعز والخرفان والأرانب على مرأى ومسمع، قالوا: لا هذه تحدث في أماكن تجمع ورؤية الناس، والمهم ما زالوا بالرجل يأخذونه بين الحبل والغارب حتى نفى القرود إلى غير رجعة نكالاً لها.

أما في الولايات المتحدة فقد كانت سباقة في تعليم البنات، فقد أسست كلية في الطب في (فيلادلفيا) للبنات في ولاية (بنسلفانيا) قبل نصف قرن من ألمانيا عام ١٨٤٨م وأنا زرت هذه المدينة العريقة حيث كُتب أول دستور لأمريكا، وقصة المرأة في التاريخ مليئة بالعِبَر والحُزن، وفي بريطانيا لم يُسمح للنساء بالإدلاء بأصواتهن إلا في عام ١٩١٢م، بعد يوم حافل من ضرب النساء لمدة ست ساعات على يد الشرطة في قلب لندن ومقتل اثنتين، فالتاريخ هو رحلة على جسر من المعاناة فوق نهر من الدموع.

لكونها أنثى؟
(قصص عالمات كافحن في جو التمييز الجنسي)

كتبت (مجلة دير الشبيجل) الألمانية في حديثها عن نساء ساهمن في أعظم إنجازات الثورة العلمية الحديثة (مرفوضات وغير معترف بهن؟؟) فذكرت قصص ثلاث نسوة عبقريات كان لهن الدور الكبير في إحداث اختراقات نوعية فيه: (روزاليند فرانكلين ROSALIND FRANKLIN) أول من كشف النقاب عن تركيب الشيفرة الوراثية و(دوروثي كروفوت هودجن DOROTHY CROWFOOT HODGKIN) التي طورت تقنية معرفة التركيب الذري للبنسلين والأنسولين و(باربارا مك كلينتوك BARBARA Mc CLINTOCK) التي طرحت فكرة ثورية عن (طفرة) الجينات وتغير صفات الكائن مع الزمن.

أما قصة فرانكلين فحزينة تروي الخيانة في العمل وسرقة الجهود؛ فعندما شقت الطريق إلى معرفة تركيب (الكود الوراثي) عند الإنسان من خلال تطوير تقنية دراستها بالأشعة السينية، في عمل إبداعي مذهَّب وصور على غاية الجمال، خانها صديقها في العمل (موريس ويلكينز MAURICE WILKINS) لأنها كانت عالمة معتدة بنفسها أكثر من مساعدة تبني مجده؛ فتطوع بنقل عصارة جهدها سراً لرجلين منافسين هما الثنائي (جيمس واتسون GAMES WATSON وفرانسيس كريك FRANCIS CRICK &) حصدا ثمرة عملها بقطف جائزة نوبل للكيمياء الحيوية عام ١٩٦٢م، وتسجيل اسمهما في التاريخ أنهما كانا أول من سبق في إماطة اللثام عن تركيب الخارطة السرية

للخلق (الحامض النووي) في نواة الخلية، كانت أثناءها روزاليند فرانكلين قد ماتت بسرطان الثدي عن عمر ٣٧ سنة، ولم يكتف (جيمس واتسون) بالاستفادة من عمل السرقة بل لاحقها إلى القبر في كلمات عجيبة تخترقها في أهم خصوصية لها كأنثى: مع أنها كانت فاتنة لم تكن لتُعنى بنفسها كامرأة قط، لا في ملابسها ولا حتى بأحمر الشفاه؟! ولكنه اعترف في آخر كتابه بأن معلومات الكشف الخطير تسربت له من يهوذا الخائن.

وأما (دوروثي هودجكن) التي درست في أوكسفورد وكان من تلامذتها أول رئيسة وزراء هي (مارغريت تاتشر) فكان لها دور اكتشاف البناء الذري للمواد الكيماوية الحيوية التي سمتها (البلّورات الأنيقة الجميلة) مما قاد إلى الإمساك بسر تصنيعها لاحقاً كما في الأنسولين الذي قامت بدراسته لمدة ٣٥ سنة، أو الفيتامين (ب١٢) الذي اشتغلت عليه لمدة سبعة سنوات وكان نقصه يقود إلى فاقة الدم الخبيثة القاتلة، ولم يمنعها الروماتيزم الخبيث الذي شوه يديها من متابعة عملها، فوصلت إلى معرفة تركيب الكُليسترول المركب الأساسي للهرمونات الجنسية، والفيتامين (D) المسؤول عن كساح العظام عند الأطفال، وفي النهاية تم الاعتراف بها فمُنحت جائزة نوبل للكيمياء عام ١٩٦٤ وكانت المرأة الثالثة في تاريخ الجائزة، ووصلت في خاتمة حياتها إلى رئاسة (اتحاد العلماء) عام ١٩٧٥م وأمضت بقية حياتها تكافح ضد التسلح النووي لتودع العالم عام ١٩٩٤م.

أما الثالثة (مك كلينتوك) فكانت ثالث ثلاثة من رواد علم الوراثة بجانب (جريجوري مندل) و(توماس هانت مورجان THOMAS HANT MORGAN) فأما الأول فوضع قوانين الوراثة الثلاثة عام ١٨٦٥م، وأما الثاني فاستطاع أن يربط مادياً بين الصفات الوراثية والكروموسومات، ولكن فكرة (مك كلينتوك) كانت عن حركة الجينات فهي تقفز من مكانها فتغير صفات المخلوق وهي ما عُرفت بـ(الطفرة MUTATION) وهذا قرب إلى فهم

نظرية التطور أكثر، عن خلق مبرمج يمشي خلقاً من بعد خلق، يزيد في الخلق ما يشاء، وبقيت مك كلينتوك تمارس نشاطها العلمي لسن التسعين بعمل سبعة أيام في الأسبوع لمدة ١٢ ساعة يومياً في عشق لا يذوي في حب المعرفة في مخبر (كولد سبرنج) في ولاية نيويورك (COLD SPRING HARBOR LABORATORY). وصفت السيدة (كلينتوك) بأنها كانت (ظاهرة إبداعية) تشك كثيراً وتتنبأ أكثر، ووضعت قوانين الجينات دوماً تحت وابل من الأسئلة المتشككة، واعتبرت أن الوراثة ما زالت حافلة بالأسرار لم تبُح بكل ما في صدرها، وكانت محقة في ذلك عندما اكتشفت في نبات الذرة ظاهرة الطفرة فحققت بذلك أعظم إنجازات القرن، قالت (مك كلينتوك): إن الجينات لا تجلس متجمدة كتلاً ثابتة كحبات اللؤلؤ في جيد حسناء، بل هي وبالصدفة تتزحزح من موضعها من وقت لآخر وبطريقة مجهولة وهو ما يغير المعلومات الوراثية، وبهذا الطرح عارضت الجو العلمي جملة وتفصيلاً بتحدي مُسَلَّمة رئيسية من ثبات الجينات؟ كانت (مك كلينتوك) راديكالية ولا تبحث عن المجاملات في العمل العلمي ومصممة ووحيدة مما عرضها (كأنثى) أن لا تفهم وترفض وتتهم أنها لا تمشي مع السياق العام، وبقيت أفكارها حول الطفرة لا تؤخذ بعين الاعتبار حتى تقدم اثنان من العلماء (الذكور) عام ١٩٦١م هما (فرنسوا جاكوب FRANCOIS JACOB وجاك مونود JACQUES MONOD) «بموديل» جديد حول توجيه الجينات عند الباكتريا، في شبه كبير لطرح السيدة (مك كلينتوك) حول نظام الطفرة، وبعد أربع سنوات عام ١٩٦٥م نال الاثنان جائزة نوبل عليها؟! ولم يستوعب العالم حتى ذلك الوقت الطرح المثير والجريء التي كانت قد سبقت فيه (مك كلينتوك) بمراحل لتوصف ووصفت بأنها تستخدم طرقاً بالية قديمة لوضع استنتاجاتها.

كانت (مك كلينتوك) متفردة باقتناعها وبحدس خاص تستخلص

عصارات هامة من وحي الطبيعة تتجلى لها في لحظات العمل المخبري، وتطاول الوقت حتى السبعينات من هذا القرن حتى بدأت تشد الانتباه بأفكارها، وفي عام ١٩٨٣م قبل موتها بتسع سنوات وعمرها يومها ٨١ سنة منحت متفردة وللمرة الأولى في تاريخ النساء جائزة نوبل للطب، عن عمل كانت قد نشرته قبل ٣٦ سنة في عام ١٩٤٧م، واليوم تعتبر (مك كلينتوك) بجانب مندل ومورغان هنت أحد الأدمغة الأعظم في علم الوراثة.

وقبل فترة قصيرة قامت عالمتان أمريكيتان هما (إليزابيث بلاك بورن وكارول جايدر) باختراق معرفي مثير عن الكشف عن أنزيم الموت عندنا؛ فقد عرف أن حياتنا محدودة بعدد معين من الانقسامات الخلوية ومع كل انقسام تتآكل نهاية الكروموسوم الذي يحفظ أسرار بناء الجسم، وبتواتر الانقسامات تستهلك النهاية الحافظة للكروموسوم فينفرط عقده ويعجز عن نقل أسراره وإعادة طباعتها في مطابع الخلية (الريبوسوم) في وثيقة اضطربت سطورها لا تصلح للحياة، اهتدت العالمتان إلى ما يعمل ضد الاهتراء وعرف أنه أنزيم (التيلوميراز) يتكاثر في أجسام الأجنة وأنسجة السرطان فإذا حقنت به الخلايا تابعت انقسامها ونشاطها بدون مظاهر شيخوخة.

اليوم يتم كشف علمي مثير عن الدماغ الإنساني أنه دماغان؛ يمتاز الأيسر بالتحليل العقلي والنطق، وتحتل الأيمن فيه المشاعر والأحاسيس، وعرف أن دماغ الرجل أثقل وزناً وأكثر بـ (١٦٪) بعدد النورونات من المرأة، مقابل ضمور دماغ الذكر بتقدم العمر، ولكن دماغ المرأة يتمتع بربط أشد إحكاماً بين نصفيه مما يحيل النطق عندها إلى عملية مفعمة بالوجدان وتتحول المرأة إلى كائن أكثر اجتماعية وأفضل قدرة بإثارة مواضيع منوعة للنقاش كبلبل لا يكف عن صدح أعذب الأنغام في حياة ثرة غنية واعتبر «التلفون» أنثوي، المرأة تعيش أكثر من الرجل سبع سنوات، تحمل كرهاً وتضع كرهاً، هي مستودع الرحمة وينبوع الحب ومخزن الثقافة تشحن (لا وعي) الطفل

بالقيم والخبرات تبني شخصيته وتعلمه النطق وإتقان اللغة وبها يدخل عالم الاتصالات البشري، وثبت بالتجربة أن الأمهات الصامتات يموت أطفالهن مع وافر الغذاء.

دشنت المرأة الثورة الزراعية فأدخلت الإنسان الحضارة ولم يكن شيئاً مذكوراً كما أكد المؤرخ (ديورانت) وما زالت تحب الرياحين، ولكن الثقافة الإنسانية ابتليت بخطأ كرموسومي عندما تأسس المجتمع على العنف واحترام العضلات وسيادة الذكور وعسكرة المجتمع؛ فاستلبت منه الرحمة وانزلقت (المرأة) إلى طبقة مسحوقة مستغلة دونية، واختل توازن المجتمع الإنساني وما زال بما فيه قمته الشمالية، وقصص النساء العبقريات عينة بسيطة من كارثة ثقافة التمييز الجنسي؛ فأين المرأة العربية المؤودة من كل هذا؟

مع هذا فلم تطو صفحة التاريخ كطي السجل للكتب بل كل المستقبل للمرأة، وتنقل الإحصائيات اليوم أن المرأة أشد ذكاء، في مفاجأة غير سارة لثقافة الفحولة...

علاقات القوة والجنس

العطش إلى (القوة) والمزيد من امتلاكها مرض ذكوري، هذا ما قرره (بروس كارلتون Bruce charlton) الخبير في علم (التطور)، والذكور هم الذين يشنون الحروب.

والذكور هم الذين يتحاربون فَيقتُلون ويُقتَلون، والذكور هم الذين أنشأوا المؤسسة العسكرية ورسموا قدر المجتمع بمرض التراتبية (الهيراركي Hierarchy) وخططوا كل نظام المجتمع على صورة (الثكنة) كما أشار إلى ذلك (غارودي) في كتابه (في سبيل ارتقاء المرأة).

والذكور هم الذين شوهوا التطور الإنساني برمته برؤية العالم بعين حولاء ذكورية؛ فلا يمكن أن يمشي المرء برجل واحدة إلا في أسطورة (شق وسطيح)، ولا يمكن أن يرى بعين واحدة إلا إذا انعدمت الرؤية الفراغية، أو تحول إلى كائن خرافي بعين واحدة كما في قصة (الأوديسة) عند (هوميروس).

جاء في (السيرة) أن شقاً كان بنصف جسم فإذا مشى قفز على رجل واحدة، وأما سطيح فكان مسطحاً مثل حدوة الحصان بدون مفاصل.

والمجتمع (الذكوري) هو الذي دفع المرأة إلى شريحة دونية مستضعفة وهي كارثة كونية في كل الثقافات، وفي الثقافة الصينية يعني ضمير المتكلم (أنا) المؤنث إلى (العبد) وفي الثقافة الهندية تعتبر المرأة خاضعة للرجل من المهد إلى اللحد فهو من كتف الإله (فيشنا) وهي من أقدامه.

وفي اليابان لم يتقدم المجتمع إلا بإلغاء نظام الساموراي. وبالمقابل فإن المرأة هي التي بدأت الثورة الزراعية كما قرر ذلك المؤرخ (ديورانت) فأطعمت عائلتها من جوع ودلف الجنس البشري إلى الحضارة؛ فلولا الثورة الزراعية ما تجاوز الجنس البشري مرحلة (الصيد وجمع الثمار) وما تخلص من خوف الموت جوعاً وما نشأت المدن وازدحمت بالسكان وولدت الاختصاصات وتم تقسيم العمل كما شرح ذلك عالم الاجتماع (دركهايم).

كل ذلك كان ببركة يدي المرأة ولكن الذكر بنى الجيوش والحرب والطغيان وما زال.

إذا كان الحاكم ينفخ في الصور فيقول للعباد أنا ربكم الأعلى فإن الزوج في البيت يُعلن أنه الأعلى لا مُعقِّب لحكمه وهو سريع الحساب، والاستبداد السياسي هو التجلي الأعظم لتراكمات أخطاء البيت واحتكار النصوص بيد طبقة الكهنوت وخنق التعبير تحت دعوى الخيانة أو الردة.

والطغيان يتأسس من خلية العائلة ليظهر في النهاية على شكل تنين سياسي يقذف باللهب على عباد يرتعشون وجلاً خاشعةً أبصارهم من الذل.

إن مصادرة الأمة على يد فرد وخلفه النخبة الحاكمة الخفية، سبقتها مصادرة الزوجة والولد في بيت الطاغية (الترانزستور) الزوج الأب، فإذا أنتجت العائلة الإنسان الأخرس الخائف هيأت الجو الاجتماعي للخرس الجماعي المطبق وخشعت الأصوات للحاكم فلا تسمع إلا همساً.

لا يمكن (أنسنة) المجتمع بدون استعادة المرأة دورها الطبيعي، المرأة هي التي تحمل الحياة وتنجب الحياة وتحافظ على الحياة حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً. وهي التي لا تمارس الحرب فإذا مارسته مثل (تاتشر) و(غولدا ماير) فهي عدوى وباء ذكوري قاتل.

والمرأة هي مصدر الحب فتخلع معنى على الحياة وتعطيها الاستمرار،

ومع انطفاء الحب ينطفئ معنى الحياة ومبرر وجودها، لأن الحب مشاركة تتجلى في أعظم صورها بالزواج والإنجاب وتترك بصماتها على الحياة في ذرية مباركة. والحرب كراهية وارتداد على الذات ونفي للآخر.

وحسب (دانييل جولمان) صاحب كتاب (الذكاء العاطفي Emotional Intelligence) فإن (جوزيف لو دو joseph le doux) الذي اكتشف (دورة المخ العاطفية) أظهر أمرين: أن هناك ضرب من الذكاء لم ننتبه له حتى الآن غير المتعارف عليه (IQ) كما أن المرأة بواسطة تركيب دماغها تشريحياً تتفوق على الرجل في هذا النوع من الذكاء.

والمرأة «موديل» متطور عن الرجل بحيث تحمل إمكانية أن يتطور الجنس البشري على نحو «إنساني» أفضل زكاة وأقرب رُحماً، ولذلك كان الاستنساخ الجسدي من الأنثى كما حدث مع (دوللي) فمنها خلق وإليها يعود ومنها يخرج تارة أخرى.

وتفاءلت السيدة (شفارتزر Schwarzer) بولادة المجتمع النسائي الإنساني بحيث يمكن الاستغناء عن الذكور المخربين نهائياً للمستقبل أو استبدالهم بجنس معدل سلامي. وهي صاحبة مجلة (لا نريد بورنو. . POR... NO..) وهو عنوان مثير ولكنها تلاعبت بحركة ذكية بالكلمة (بورنو) التي تعني (الإباحية) وحينما قسمت الكلمة إلى شقين انقلب المعنى.

يذهب الأنثروبولوجي (بيتر فارب) في كتابه (بنو الإنسان): (أن الذكر لا يفترق عن الأنثى إلا بعضلاته) وقسوته وجحوده في الوقت الذي تتفوق المرأة بالرحمة والحب والوفاء، فإذا ماتت عن الرجل زوجته فكروا له بالعروس ولمّا تدفن الزوجة بعد وزوجوه في أيام، وإذا مات عن المرأة بعلها حفظت وده واعتنت بالأولاد وعاشت مدبرة، وهي خصلة للغالبية الساحقة من النساء قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله، وإذا عجزت المرأة

رماها إلى بيت أهلها براتب أو بدونه، وإذا وقع سدت عيبته وسترت عورته ورفعت من تحته قاذوراته حتى الممات.

وينتبه (بيتر فارب) إلى مفارقة عجيبة وهي أن الجنس الأنثوي هو الذي يجب أن يسود لأنه: (الجنس الأطول عمراً والأكثر صحة والأقل عرضة للحوادث والمساوي للذكر في الذكاء) ولكن الذي حدث هو العكس، ولا تتزوج المرأة رجلين في الوقت الذي يعدد الرجل ولو في الكلام والأماني بين المزح والجد وفي لحن القول.

وإذا جاءت الفرصة لم يقصر لأنه الفحل الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، وعند الخطيئة الجنسية تُقتل الفتاة ويُكافئ الرجل في مجتمع يقوم على معايير الفحولة أكثر من العدالة، مع أن القرآن وضح حدود الزنا بالتساوي للجنسين ولكن الثقافة عندها قدرة أن تبني مفاهيم أثقل من نجم نتروني وتفرض على الواقع شريعة جديدة تلتوي لها الأعناق بدون وحي، ومع كل عضلات الرجل فالمرأة بنعومتها تتحمل أضعاف ما يتحمله الرجل من الألم بدون بطولة ويظهر هذا واضحاً في العمليات الجراحية، ومع كل عضلات الرجل فالمرأة تعمر أكثر منه في المتوسط بـ٦ ـ ٨ سنوات كما تظهر الإحصائيات، والمرأة أكثر حكمة من الرجل بانفعالاته فإذا غشيه ضباب الشهوة وعلته الرغبة الجنسية فقد كُلّ عقله ولم يعقب.

وتظهر الصور الساخرة هذه المأساة على صورة فيلسوف يحبو على أربع قد علت ظهره امرأة، ويعتبر ديكارت (أن أعظم النفوس عندها استعداد أن ترتكب أفظع الرذائل) وهي في هذا الحقل معهودة ومعروفة، وإذا كانت حاجة المرأة للمحرم أحياناً بداعي (الأمن) فإن الذكر يحتاج دوماً إلى محرم كي لا ينزلق إلى أحضان الأخريات.

واعتبرت مدرسة (علم النفس التحليلي) أن (الليبيدو LIBIDO) أي

الشهوة الجنسية هي محرك التاريخ الأعظم، وإذا كانت (الطاقة النووية) هي أشدها في الطبيعة فهي (الجنس) في البيولوجيا، وكل شيء يفسر من خلالها، ومن يتورط فيها هو الرجل عادة و﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، ووقف المؤرخون طويلاً أمام أثر المرأة في التاريخ تحت إغراء (أنف كليوباترة).

بحيث يعتبر (إدوارد كار) صاحب مؤلف (ما هو التاريخ؟) أن التاريخ ينقلب بهذه الطريقة أمام عدم فهم المرأة إلى كيان هلامي يتملص من القوانين ويصبح كائناً رخواً عصياً على الفهم والضبط تتقاذفه الأهواء ويدمدم فيه عالم اللاوعي وهو ليس كذلك ولكنه ضريبة تحييد المرأة، وتدخل المرأة مسرحية (علاقات القوة) حيث يظهر الجنس مختلطاً بالعنف كما تبرزها صناعة السينما بكثير من المساحيق، ومعظم الجرائم تدور حول الملكية في المال والمرأة.

وتظهر تعابير (امتلاك) المرأة في ثقافتنا من حيث لا ننتبه لأن الوعي يقوم على ظاهرة (الانتقاء) فهي (جوهرة) وبهذا التعبير تخسر المرأة بضربة واحدة آدميتها وتتحول إلى عالم (الشيء) و(الممتلكات) لتدخل بأمان إلى (خزانة) الرجل العامرة بالأشياء، إنه حتى ممارسة الجنس بما يختلط من عنف هو بقايا غريزة الغابة وهو عملية تعبيرية عن خطف المرأة واغتصابها. لا غرابة أن استفحلت قوة ردة الفعل في المجتمع الغربي فبعد حركة (المساواة EMANCIPATION) تبرز الحركات (النسوية ـ الفيمينست FEMINIST) إلى الواجهة وتتحرك في مظاهرات ضخمة لرد الاعتبار. وهذه الحركة (النواسية) بين الفعل ورد الفعل تبدت أيضاً في حركة (الستربتيز) أي الاستعراء، فبعد موجة الرهبنة وحبس الغرائز جاء الدور لانتقامها فحطمت كل البنى القديمة، واليوم تتدفق أمواج الإباحية من الملكوت العلوي على ظهر ثبج البحر الأخضر الالكتروني من المحطات الفضائية فلا يستطيع منعها

إنس ولا جان، لقد كسر العلم الجغرافيا وحطم الرقابة ولكن قانون الله هو الذي سيثبت في النهاية فيذهب الزبد جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال.

وعندما بدأت أفلام (الجنس SEX) في الغرب غصت الرفوف بها فلا ترى إلا العري، وانطلقت موجة (الستربتيز) في الستينات من بريطانيا فزكمت الأنوف وشكلت أشرطة الفيديو ٨٠٪ من خزائن النوادي حسب إحصائيات مجلة (دِر شبيجل) الألمانية، وبعد عدة سنوات انكسرت حدتها وتراجعت موجتها إلى ٢٠٪ ثم تحولت إلى ظاهرة مخيفة بين (الجمود) و(الانحراف) فالجنس كالسبع الضاري من حرضه أكله، ومن رمى له بقطعة لحم عند جوعته أمنه، كما ذكر ذلك (ابن مسكويه) في كتابه (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق). ولكنها تفعل فعلها السُّمّي اليوم في العالم العربي لأنها تدخل بيئة عذراء غير مُهيّئة لهذا النوع من الاجتياح في ظل (تابو) المجتمع العربي، ولم تتطور الثقافة الجنسية بين الإظهار والإخفاء من فراغ على قاعدة (أرسطو) الذهبية أن كل فضيلة هي وسط بين رذيلتين، فمع الإباحية يتحول المجتمع إلى مستنقع يستحق التدمير ﴿فَجَعَلْنَا عَلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾. ومع الكبت تنشأ الأمراض النفسية من الهلوسة الجنسية وتحويل كل النشاط إلى جنس حتى لو كان ظاهرياً عين التقوى بسبب جوعة الجنس.

ويصبح (جسد المرأة) المسرح السياسي لطغيان الرجل وإعلانه الوصاية على كائن متخلف عقلياً في اللباس، ويعلل (مالك بن نبي) في كتابه (شروط النهضة) المعركة حول جسد المرأة بالمزيد من تعريتها أو التشدد في تغطيتها إلى نفس الآلية الخفية من الدافع الجنسي لامتلاك جسد المرأة مع أن ظاهر الأمر يوحي بالتناقض بين الفحش والتقوى، ولكنه في حقيقته واحد مثل «الفِلم» الأسود قبل التحميض والملون لاحقاً، إن الأسود الخفي هو قاعدة الملون الفاقع ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

إن طغيان الذكر على الأنثى يتبدى في ادعاء الملكية والخجل من ذكر اسم الأنثى وعدم الاستبشار بمولدها ولو كانت أصح من عشرة ذكور، وإذا مشى تركها خلفه لخطوات كما رأينا ذلك في العائلات التركية في ألمانيا، وتطل قسمات الدونية في الخجل من ذكر اسمها فهي (الجماعة) أو (العائلة) أو (أم الأولاد) أو (أنت أكبر قدر) كمن يتعفف من ذكر مكان الخلاء، هي لا اسم لها يتم استلامها بالبريد المسجل من الأب إلى الزوج ومن المهد إلى اللحد، وهناك من يدعي أن المرأة لها ثلاث (خرجات) من الرحم وبيت أهلها إلى بيت زوجها ومن بيتها إلى القبر ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾، وعند الزواج يغيب اسمها فهي (كريمة) فلان تزف إلى الشاب الذي يحمل اسماً ولقباً عريضين، ويسلب حقها من الإرث، ويدفع لها راتباً أقل، وتخشى على نفسها المسغبة عندما يغيض الشباب ويزول الجمال وتطعن في السن فتراهن على عطف بناتها أكثر من حقوقها إذا كان لها بنات، ويمكن للرجل أن يلقي بها في الشارع بطلاق مع متأخر رمزي دراهم معدودة هذا إن دُفعت.

إن أبعاد الكارثة إنسانية وليست عربية فقط وإن كانت المرأة العربية تبتلع الجرعة السامة منه ولا تكاد تسيغه ويأتيها الموت من كل مكان، مع هذا فإن المرأة في بريطانيا لم تُصوِّت إلا في عام ١٩١٢ وهي ما زالت محرومة في بقاع شتى من هذا الحق البسيط والطبيعي، وفي بعض الأماكن ما زال الزمن متوقفاً عند عتبة الأنثى فتُحرم من قيادة السيارة، في الوقت الذي يطير الشباب الأرعن بدون رخصة سوى فحولته «ويفحط» ألواناً من الأشكال السريالية على رصيف الطرق، محولين الطرقات إلى ساحات حرب تنقل الجثث على مدار الساعة، إن مصادرة المرأة كامل بما فيها صوتها البشري فهناك من يعتبر صوتها عورة مع أن القرآن يروي سورة كاملة باسم امرأة جاءت إلى النبي ﷺ تشكو وترفع صوتها وتجادل والله يسمع تحاورهما، إنها نكبة ثقافية عندما يُصادَر القرآن برأي شخص.

إذا كان ظلم الإنسان لنفسه هو الظلم الأعظم، فهو يؤسس بدوره لفهم جذور المشكلة الإنسانية وفهم الظلم الاجتماعي عندما تتصدع الشرائح الاجتماعية إلى (مستكبرين) و(مستضعفين) في أي مستوى بما فيه الجنسي، ومصدر هذا الخلل هو طبقة المستضعفين أكثر من طبقة الجبارين المتكبرين، وهذه القاعدة تنطبق على علاقات (المرأة ـ الرجل) فلماذا قبلت الأنثى هذا الاضطهاد الطويل؟ إن علاقات القطبين المشؤومين (الاستضعاف ـ الاستكبار) ذات مصدر موحد، كذلك كانت علاقات القوة في المجتمع بخلل هذه الرافعة بين بني البشر، ودعوة الإسلام جاءت لإنتاج نسخة بشرية جديدة بالتخلي عن علاقات القوة. فكانت أول من آمن به امرأة. وفي الثورة الإيرانية كانت المرأة تنزل الشارع جنباً إلى جنب مع الرجل في المظاهرات المليونية ولم يمنعها (الشادور) من الاستشهاد فالطريق إلى الجنة لا يقف في طريقه قطعة قماش. الضعفاء هم الذين يخلقون الأقوياء، والأمم الهزيلة هي التي تنبت الطواغيت، والمستنقع هو الذي يولد البعوض. والغربان تحط على البقرة الميتة، والقابلية للاستعمار هي التي تمهد للاستعمار، والدول تنهزم بتفككها الداخلي. وتنهار الحضارات بالانتحار الداخلي، هذا القانون يمسك جنبات الوجود بوتيرة مكررة بدءاً من الذرة إلى المجرة ومن أبسط الأفكار إلى أعظم الامبراطوريات، والمرأة لا تشذ عن هذا القانون وهي مسؤولة عن تشكيل هذا التراث الخاطئ.

ألقي القبض يوماً على امرأة خارجية وجيء بها إلى الحَجَّاج فقال لأصحابه: ما تقولون فيها؟ قالوا: عاجلها بالقتل أيها الأمير. فقالت الخارجية: لقد كان وزراء صاحبك خيراً من وزرائك، قال: ومن صاحبي؟ قالت: فرعون فقد استشار وزراءه في موسى ﷺ فقالوا: أرجه وأخاه. فأطلق سراحها.

نساء مكافحات للسلام

في ٥ أيلول (ديسمبر) من عام ١٩٥٥م كانت الخياطة (روزا باركس Rosa Parks) في طريقها إلى منزلها بعد أن أنهت يوماً حافلاً بالعمل، كانت قوانين المرور في مدينة (مونتغمري) من مقاطعة (ألاباما) الجنوبية في الولايات المتحدة الأمريكية تنص أن يدفع السود ثمن التذكرة من الباب الأمامي ولكنهم يصعدون الحافلة من الخلف، كما كان محظراً عليهم أن يركبوا في المقعد المجاور لمرور الركاب (Isle)، وكذلك كان القانون يقول أن الأسود يجب أن يخلي موقعه للأبيض في الازدحام، ولكن ذلك اليوم البارد من ديسمبر كان على موعد مع حدث جلل. فقد صعد رجل أبيض إلى الحافلة ووقف أمام (روزا بارك) وهي السوداء ينتظر أن تقوم وتترك مقعدها له، وهو شيء عجيب كان يحدث قبل نصف قرن في أمريكا خلاف كل أعراف الدنيا بتخلي الرجال عن مقاعدهم للنساء. كانت (روزا باركس) قد قررت أن تفعل شيئاً جديداً في كسر القانون العنصري فرفضت بكل بساطة التخلي عن مقعدها للأبيض، وأمام إصرارها تدخلت الشرطة فنزعتها من مقعدها بالقوة وأجبرتها على دفع غرامة وأُوقفت في الحجز لمخالفتها قانون الولاية، ولكن الحادث في ذلك اليوم كان الشرارة التي أوقدت ناراً هائلة في غابة جافة عظيمة من مشاعر محتقنة ضد الظلم والتمييز العنصري. لم تلجأ المقاومة إلى السلاح وأعمال العنف بل كانت سِلْمية مدنية فقاطع السود الباصات لمدة عام كامل، ورُفِعت القضية إلى أعلى هيئة دستورية في البلد، واستمرت المحاكمة مدة ٣٨١ يوماً، وفي النهاية خرجت المحكمة بحكمها الذي نصر (روزا باركس) في محنتها وانكسر القانون العنصري إلى غير رجعة.

وفي ٢٧ تشرين أول (أكتوبر) من عام ٢٠٠١م بعد مرور ٤٦ سنة عليه تم إحياء ذكرى الحادثة في التاريخ الأمريكي حيث أعلن مدير متحف (هنري فورد) السيد (ستيف هامب) في مدينة (ديربورن) في (مشيجان) عن شراء الباص القديم المهترئ من موديل الأربعينات الذي وقعت فيه حادثة السيدة (روزا باركس) والذي كان الزناد الذي دفع حركة الحقوق المدنية في أمريكا للاستيقاظ بحيث تعدل وضع السود وتم شراء الباص بمبلغ ٤٩٢ ألف دولار أمريكي. واليوم بعد أن بلغت (روزا باركس) الثمانين من العمر تَذكُر في كتاب صدر لها لاحقاً بعنوان (القوة الهادئة) عام ١٩٩٤م: «في ذلك اليوم تذكرت أجدادي وآبائي والتجأت إلى الله فأعطاني القوة التي يمنحها للمستضعفين». وهي تُذكِّرنا بدعاء نوح ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾.

هذا الأسلوب الهادئ البسيط هو الذي يكسر أشد القوانين جبروتا وَتَيَبُّساً وعنصرية بـ(رفض الطاعة). إنه أسلوب خفي محجوب وقريب ومبارك ونبوي في المقاومة المدنية ولكن أكثر الناس لا يعلمون. إن الطاغية لا يُقاوَم بقتله بل برفض طاعته وعدم التعاون معه في الشر، ولكن على ما يبدو فنحن نؤمن بأن سيد الحلول هو القتل الذي لا يُوَلِّد إلا مزيداً من القتل وبيننا وبين الفهم سنة ضوئية. وفي أفغانستان تُجْبَر المرأة الآن على خلع برقعها وكانت من قبل على يد الطالبان تُجْبَر على وضعه، وفي عاصمة عربية تم الهجوم على جميع النساء في يوم نحسٍ مُستمِر فخُلِعت الأغطية عن رؤوسهن أجمعين، تحت ظن أن الإكراه هو الحل المناسب للتخلص من الرجعية إلى التقدمية بزعمهم. والذي حدث أن هذا العمل الأحمق والصاعق كان له المفعول العكسي فازداد عدد النساء اللواتي يغطين شعورهن، وهكذا أصبح جسد المرأة موضع الصراع السياسي بين الفرقاء الأيديولوجيين المتصارعين باعتبارها قاصراً يجب أن تعلم ماذا تلبس وتخلع، وحتى اليوم يتبرع (الذكور) في الحديث عما يناسب المرأة ولا يتركون (المرأة) هي التي تقرر لنفسها بوعي وإرادة فتختار ما تلبس، وقد يظن البعض أن التغطية بالقوة

عين التقوى ولكن الخَلع والتغطية من منطلق الإكراه يحكمه قانون نفسي واحد، وهو في أعماقه كما يقول مالك بن نبي يحمل دوافع جنسية خفية فمن يخلع ملابسها للإباحية هو الوجه المقابل للتغطية المفرطة.

ومقابل قصة (روزا باركس) تأتي قصة مكافحة السلامية (بيرتا فون سوتنر Bertha Von Suttner) (١٨٤٣ ـ ١٩١٤) التي نشأت من عائلة ارستقراطية في (براغ)، وفي عام ١٨٨٩م نشرت قصتها بعنوان (تخلصوا من السلاح die waffen nieder) التي أصدرها ناشر على استحياء وطبع منها ألف نسخة فقط، ليتحول الكتاب إلى أفضل الكتب رواجاً ويترجم إلى كل اللغات الأوربية، وهي قصة آسرة تروي قصة زوجة عاصرت أربع حروب متتابعة في القارة الأوربية خسرت زوجها وولدها في ساحات القتال وقررت أن تقول: لا للحرب. حاولت (بيرثا فون سوتنر) أن تنظم حركة عالمية من أجل السلام وكانت تشم رائحة الحرب وترى سحبها القاتمة القادمة عبر الأفق الأوربي فالحرب التي سميت (بالعُظمى) كانت فاجعة الفواجع وهي التي فرخت الشيوعية والنازية والفاشية ومهدت للحرب العالمية الثانية. وأهم إنجاز للمرأة أنها من خلال علاقتها الطويلة مع (ألفرد نوبل) عالم الكيمياء السويدي أن أوحت إليه بفكرة (جائزة نوبل للسلام). وفي جو الحرب المشحون عام ١٩١٤ منعت (فون سوتنر) من المحاضرات وضحك الجميع من سذاجتها وهلل الجميع للحرب وخذلها أقرب الناس إليها من أصدقائها الذين كانوا معها في الصف السلامي، وماتت قبل طلقات (جافريلو برنسيب) على «الأرشيدوق» النمساوي في سراييفو بسبعة أيام في ٢١ يونيو من عام ١٩١٤م.

إن قصة النساء المكافحات للسلام تظهر بأجلى صورة في قصة ملكة سبأ وهي نصوص ذكرها القرآن عن امرأة في غاية الذكاء والحكمة استطاعت أن تطوق الصراع المسلح مع سليمان بحكمة اقتربت فيها من حكمة النبي، ففي الوقت الذي هدد سليمان ﷺ بإرسال الجيوش ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ

لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ كانت تقوم بحكمة في إطفاء نار الحرب من خلال الرسل والهدايا إلى درجة أن تذهب بنفسها لمقابلته بدل الاستعداد للحرب وتعتنق الدين الجديد حباً في العدل أكثر من الخوف من جيوش سليمان الجرارة من الجن والإنس والطير فهم يوزعون.

ومقابل نموذج (روزا باركس) الأمريكية السوداء و(بريتا فون سوتنر) الأوربية تنشر مجلة (دِر شبيجل عدد ٤٤ ـ ٢٠٠١) هذه الأيام المقالة الكاملة المترجمة لداعية السلام الهندية (أرندهاتي روي Arundhati Roy) وعندما قرأت مقالتها باللغة الألمانية أصبت بالحسرة لأنها قالت أكثر مما نكتب وتم نشر المقال بالكامل بدون حذف الرقيب مما يدل على مأساة الفكر العربي واختناقه ومصادرته، ومما جاء في مقالتها أن (علم) الدولة يخدم تماماً في لف الرؤوس كي تختنق عن أي تفكير، فإذا مات الناس في ميادين القتال خدم مرة أخرى في لف الجثث المقطعة المشوهة، ثم قامت باستعراض فريقي الحرب في أفغانستان ونقلت عن(بوش) قوله: «إننا أمة مسالمة» و(توني بلير) أن بريطانيا شعب سلامي وقامت باستعراض لائحة الحروب الأمريكية: «١٩٥٠ ـ ١٩٥٣ كوريا ـ غواتيمالا ١٩٥٤ و١٩٦٧ ـ ١٩٦٩ ـ أندونيسيا ١٩٥٨ ـ كوبا ١٩٥٩ ـ ١٩٦١ ـ كونجو ١٩٦٥ ـ لاوس ١٩٦٤ ـ ١٩٧٣ ـ فيتنام ١٩٦١ ـ ١٩٧٣ ـ كمبوديا ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠ ـ جرينادا ١٩٨٣ ـ ليبيا ١٩٨٦ ـ سلفادور في الثمانينات، وكذلك نيكاراغوا ـ باناما ١٩٨٩ ـ العراق ١٩٩١... واليوم أفغانستان والعراق، وعلقت على أحداث ١١ سبتمبر أنها غيرت أموراً جوهرية خمسة: الحرية والتقدم والرفاهية والتقنية ومفهوم الحرب. وكان عنوان مقالتها: الحرب تعني السلام أو السلام هو الحرب» لتصل إلى جملة لاذعة: إنهم يريدون منا أن نعتبر فجأة أن الخنازير أصبحت خيلاً وأن العذارى انقلبت ذكوراً وأن الحرب هي السلام؟

وعند ظاهرة الطالبان تذكر فكرة مهمة وهي أن حرب العشرين سنة التي

كلفت ٤٠ مليار دولار في أفغانستان وسبعة ملايين لاجئ ومليون ونصف قتيل وعدداً من الألغام الأرضية يفوق عدد السكان تقدر بحوالي ١٥ مليون لغم أرضي ضد الأفراد يموت من انفجارهم كل شهر أربعين من الأطفال. وإذا كان التقدم والحداثة قد دخلت أفغانستان فقد جلب التقدم على صورة مدفع فوق ظهر حمار فلم تعرف أفغانستان التقدم إلا بتوريد الأسلحة الحديثة فأتقنوا القتال وصناعة الموت وانتُزِعت الرحمة من قلوبهم، مما يذكر بحرب داحس والغبراء في الجاهلية لنكتشف بمرارة أن حرب الجهاد الإسلامية لم تكن إسلامية بقدر أنها كانت حرباً أمريكية خاضها شباب مسلمون غُرِّر بهم، إن اللعب بالنار لا يجعل النار لعبة.

إن اعتماد السلاح لحل المشاكل يرهن صاحبها في قبضة القوة ومن اعتاد قتل العدو سوف يقتل الصديق والرفيق والأخ غداً، وهذا الدرس مهم في إدراك أن القوة لا تحرر بل تأسر، وفي نهاية مقالتها تصل (روي) أن حرب أفغانستان ليست حرب حضارات سخيفة بل حرب توسع وهيمنة وأن أربع مؤسسات في أمريكا هي مصانع السلاح والبترول والإعلام مع الخارجية يشكل ورماً متجانساً وخطيراً في توجيه أمريكا والعالم وأن (ديك شيني) و(بوش) لهم علاقات خاصة مع هذا (الكارتل).

إن كفاح (أراندهاتي روي) و(روزا باركس) و(بيرتا فون سوتنر) ومن قبل (إيميلين بونكهرست) البريطانية التي قادت مظاهرة في عام ١٩١٠ من أجل حقوق المرأة فتعرضن للضرب من ١٠٠٠ من الشرطة والغوغاء لمدة ستة ساعات متواصلة مات فيها سيدتان فيما عرف بيوم الجمعة الأسود في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) في تاريخ الحركة النسائية، وكذلك (روزا لوكسمبرغ) من ألمانيا التي خطبت في ٧٩١ وفداً نسائياً من ٢٧ دولة من العالم عام ١٩٠٠م ضد التسلح وبناء الجيوش الخرافية والأجهزة الأمنية العملاقة وخوض حروب الجنون كل هذا يشكل رفداً متواصلاً في نشاط المرأة أن

تعيد الإنسان إلى بناء الحضارة والحب والتخلص من مرض العنف والدمار.

إن المرأة «موديل» متطور عن الذكر الذي كتبت مجلة (دير شبيجل) الألمانية عدداً كاملاً عنه بعنوان (الجنس الهش) ولعل مستقبل الجنس البشري سينتهي في يد المرأة التي تنتج الحياة وتصون الحياة.

وفي النهاية نذكر من التراث الشرقي امرأة إيرانية هي (قرة العين) هزّت الأوساط السياسية في منتصف القرن التاسع عشر بنشاطها الجم في تحرير المرأة وإعادة الاعتبار إليها وأنها كائن مساوي للرجل، فاعتلت المنابر وخطبت في الناس فأثرت وأبكت، وكانت في غاية الجمال والفصاحة وقوة الشخصية والحجة وكان مصيرها عام ١٨٥٢ أنها حُكمت بالإعدام فقدمت منديلها الحريري لِتُشنق به فجُرّت من شعرها بذنَب بَغْل ثم أُحرقت حية على إحدى الروايات، ويقول عنها (علي الوردي) في كتابه (موسوعة تاريخ العراق الحديث) متأسفاً أنها سبقت عصرها ولو جاءت متأخرة لكانت من أعظم شخصيات القرن. وكما يقول النيهوم: «المرأة في بلادنا لم تشارك في هندسة مجتمعنا. ولا نعتقد أن ثمة فرقاً بين هفوة المرأة والرجل ولا نريد مجتمعاً يوزع امتيازاته حسب طول الشوارب، والمساواة بين الرجل والمرأة مستحيلة في أي مجتمع لاتتساوى فيه فرص الكسب. وهل تستطيع أن تفعل شيئاً مجدياً سوى أن تقف وراء منصة وتتسول من الرجل حقوقها؟».

في محفل سياسي بمناسبة عيد الشهداء ضم العديد من الأمهات وتقدم الخطباء يتكلمون عن أهمية الأم في تقديم الشهداء للمعارك قام أحد المتكلمين فقال: أيتها الأمهات أريد أن أقول لكم أن لا تسمعوا لأقوال هؤلاء، وأن عيد الشهداء هو موسم تقديم القرابين البشرية لآلة الحرب، وأن كل فريق يدعي أن من مات على مذهبه ملاك وشهيد، ومن مات من الفريق المقابل مجرم وشيطان رجيم فلا يخدعنّكم السياسيون بعد اليوم وانتبهوا أن تقدموا أولادكم طعاماً لفوهات المدافع.

المناضلة البورمية من أجل الحرية

السيدة (أوانج ساسو كايا) البورمية البالغة من العمر ٥٦ سنة وشكلها النحيف يذكر (بالمهاتما غاندي) وترتسم على وجهها علامات الخشوع والهدوء خرجت من الاعتقال الإجباري في بيتها بعد ١٩ شهراً وأجرت معها مجلة (دِر شبيجل) الألمانية مقابلة وسألتها: من أين لك كل هذه القوة في مواجهة حكومة العساكر؟ قالت: أنا مؤمنة، قالوا لها: لقد عانيت كثيراً وسمعنا أن ولديك الاثنين حُرما من زيارتك كما أن زوجك أصيب بالسرطان ومات ولم تتمكني من مشاهدته، قالت: نعم هذا صحيح ولكن أين معاناتي من معاناة الشعب البورمي على يد العساكر؟ ثم إنني أتصل بأفراد حزبي الناشطين في رانجون وسوف نستمر في نضالنا حتى نحقق الديموقراطية والحرية لشعبنا.

وفي تقديري فإن هذه السيدة التي نالت جائزة نوبل للسلام ستصبح أول رئيسة جمهورية في أول حكومة ديمقراطية في بورما. وما يلفت النظر في قصة هذه المرأة المكافحة أنها امرأة تقدمت في السن ونحيفة البنية يصرعها غلام صغير، ولكن الذي أعطاها كل هذه القوة الروحية إيمانها بالأسلوب السلامي في التغيير. وجماعة العسكر يتمنون ويطلبون منها ومن أفراد حزبها أن يلجأوا للسلاح كي يدخلوا الحقل الذي يحسنون فيه حسم الصراع، ولكن السيدة (أوانج كايا) تعرف هذه اللعبة جيداً ولذلك حيدت العنف.

وهذه النقطة صعبة علينا في المجتمع العربي أن نؤمن بالسلم أسلوباً للتغيير أي المقاومة المدنية، ونظن أن هذا تعطيل للجهاد أو أن العمل

السلمي جبان مع أن الذي يمارسه من أشجع الشجعان، لأن الذي يُضْرَب يَضْرِب فهذه غريزة حيوانية تفعلها الكلاب والقطط، ولكن الشيء الإنساني الجديد هو التخلي عن القوة وعدم رد الأذى بالأذى، ويصعب على الناس استيعاب هذا التكتيك مع أنه أسلوب براجماتي نفعي واقتصادي للغاية فضلاً أنه أخلاقي ويحافظ على طرفي الصراع. وتمنيت أن تبقى الانتفاضة سلمية تمارس المقاومة المدنية، ولكن المشكلة في القيادة التي ترى أن القتل سيحل المشاكل، والشباب متحمسون بطبعهم ولا يُنضجوا الحلول في العادة. وفي ثورة إيران رأينا نجاحاً مذهلاً لاعتبارين جوهريين، التحام قيادة ناضجة مع شباب مضحي وشاه فاسد ومقاومة مدنية.

ومشكلة العمل المسلح أن صاحبه يرى فيه سيد الأحكام وعندما يحل مشكلته مع عدوه بالسيف فسوف يتحول إلى حكم بينه وبين أخيه في المستقبل، ولذلك يجب أن لا يحزن الإسلاميون أنهم فشلوا في الجزائر وغيرها من الوصول إلى سدة الحكم التي تتحول في بعض الأحيان إلى كرسي إعدام؛ لأن من يصل بالسيف إلى الحكم سيفتك بكل معارضة.

وتاريخ الثورات شاهد، والعراق احتفل قبل قليل بالذكرى الأربعين للانقلاب الأربعين وقد يستمر أربعين أخرى ويقتل أربعة ملايين عراقي[1]. والشيوعيون نالهم من ستالين ما لا يخطر على قلب بشر، ففي أوكرانيا لوحدها أرسل ستالين مليون إنسان إلى الموت، وكابول ضُربت على يد المجاهدين أكثر من الروس بلاغاً للناس فهل يهلك إلا القوم الظالمون، وبن لادن كان يراهن على دفن الأمريكان كما دفن الروس من قبلهم فاشترت أمريكا رؤوساء القبائل بثمن بخس وكانوا من الزاهدين، في نكتة كبيرة لا يضحك لها أحد.

(١) هذا الكلام كُتب قبل هجوم قوات الاحتلال الأمريكي البريطاني على العراق.

وجرت العادة أن من أَخَذَ بالسّيف بالسّيف يُؤخَذ. والشباب القوميون الذين ركبوا ظهور الدبابات وقاموا بالانقلابات العسكرية ضحوا برفاقهم ـ الذين خاضوا معهم تجربة الانقلاب ـ وبرؤساء أحزابهم، وحُكم على مؤسس الحزب بالإعدام على يد شباب الحزب الذين رباهم بيده، ويداك أوكتا وفوك نفخ، وبقي مؤسس الحزب الاشتراكي طريداً شريداً في باريس حتى وافته المنية، وهناك كتب في التجارب المرة أكثر من عشر مجلدات، وكتب القومي العريق منيف الرزاز كتاباً يقطر ألماً بعنوان التجربة المرة عن غدر الرفاق، وفي عدن قتل الرفاق بعضهم بعض بما يذكر بأيادي سبأ ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، ومن ارتهن للقوة تحول إلى عبد لها، والسيدة البورمية الآن وبواسطة هذا الأسلوب من الكفاح كسبت احترام العالم ونالت جائزة نوبل للسلام وحتى أن خصومها يحترمونها ويبقى هامش للعمل السياسي لكل أطراف الصراع، في حين أن طريقة القتل والقتل المضاد لا تترك هامشاً للمناورة، فأما أنا أو أنت، وهو يعني أن الإرادتين تدمر أحدهما الآخر ولا تعترف بوجود الآخر، فهذه هي أفكار ثلاثة من قصة السيدة البورمية (كايا) التي تكافح وهي امرأة أعتى الرجال العسكريين وبواسطة المقاومة المدنية، وينمو عملها كل يوم وأصبحت مشهورة في كل العالم كنموذج للكفاح السلمي، أما نساؤنا فيجب أن تُحشر في علبة كبريت، وإذا مشى الفحل أمامها فيجب أن تمشي في ظله، ومهمتها للإنجاب مثل الأرانب والقطط، وهدفها التاريخي إرضاء رغبات وغرائز الرجل حتى يرضى، مع أن القرآن يتكلم عن امرأة فرعون وهي تناضل، ويتفضل على نبيه بأن يبدله نساءه بنساء سائحات، وكانت الذرية الطيبة لامرأة عمران مريم بعد أن ظنت أن الأنثى قد تعجز عن خدمة المبدأ.

قصة روسية

تقول قصة: إن طفلاً ضاع في قرية فبدأ يبحث عن أمه وهو يبكي فحز ذلك في قلوب فريق من الناس فاجتمعوا حوله يحاولون تهدئته، ولكن الطفل كان متعلقاً بأمه إلى حدٍ كبير. وهو ليس الطفل الوحيد الذي يرى في أمه جزيرة الأمان في بحر لجي متلاطم من الحياة المضطربة، قال رجل: يا غلام لك عندي حلاوة طيبة تتسلى بها ريثما تعود والدتك من غيبتها وهي ليست بعيدة بالتأكيد، بكى الطفل وقال: أمي أطيب من كل حلاوة ولا أريد شيئاً بل أريد أمي فقط، اقترب منه رجل ثاني فقال: أين بيتك هل تعرف يا ولد أين بيتك فنعيدك إليه ولا شك ستعود أمك فتراك في المنزل، بكى الطفل من جديد وقال: لا . . لا أعرف أين منزلنا أريد أمي أرجوكم أعطوني أمي، أشفق القوم عليه فاقترب ثالث فقال: كيف أضعت أمك أيها الطفل وفي أي مكان فلعلنا أن نهتدي إلى المكان ونقودك إليه فتجتمع بمن فقدت، بكى الطفل من جديد بأشد وقال: لا أعرف لقد فقدتها وأريد أمي ولا أعرف أين هي.

نظر القوم في بعضهم حيارى وكانت عجائز من القرية قد أقبلن على الصياح والاجتماع فقلن للرجل: ما خطب الغلام؟ أجاب الرجال: لقد أضاع الطفل أمه ونحن في حيرة كيف نجد له أمه، تقدمت عجوز وقالت: أيها الطفل الذكي ما أجملك يا شاطر أين أمك وهل تستطيع أن تصفها لنا فلعلنا أن نتهدي إليها ونحضرها لك والقرية ليست كبيرة وعدد الناس بين ظهرانينا معروفون، مسح الطفل دموعه من وجنتيه وقال: أمي أجمل امرأة في العالم؟! التفت الرجال والنساء إلى بعض من أهل القرية وقالوا بصوت

واحد: لا شك أنها (ناتاشا) الجميلة المعروفة بحسنها واعتدال قدها وجمالها الذي لا يضاهى، ثم إن امرأة ركضت تبحث عن (ناتاشا) حتى وجدتها وقالت: لقد بحثنا عنك كثيراً وإن ولدك ضاع وهو يبكي بحثاً عنك تعالي فخذيه، التفت ناتاشا إليها وقالت: إن ولدي في البيت ولم أضيع أحداً.

ثم إن القوم التفتوا إلى الطفل من جديد وقالوا: صف لنا أمك ما طولها وما لونها، صاح فيهم الغلام وقال: ألم أقل لكم إن أمي أجمل امرأة في العالم؟ تلفت القوم من جديد وقالوا: لا شك إنها (أولغا)؟ وفي تلك اللحظة مرت (أولغا) فأشاروا إليها بأيديهم أهي أمك؟ نظر الطفل إلى (أولغا) وصاح مستنكراً بشدة: لا.. لا إن أمي أجمل من هذه بكثير. إن أمي أجمل امرأة في العالم. وبعد لحظات مرت (كاترين) صاح الكل: انظر إليها إنها (كاترين) الجميلة فلعلها أمك، بكى الطفل وقال: كم مرة أقول لكم إن أمي أجمل امرأة في العالم أيمكن أن تصفوا هذه المرأة بالجمال أليس لكم عيون؟ وهي لا تقترب منها في الجمال فكيف تقولون عنها أنها أمي، وهكذا بدأ القوم رجالاً ونساءً يستعرضون أسماء نساء شتى من القرية، (هيلدا)... (مارجريتا).. (لويزا)... ولكن جواب الطفل كان يتكرر على نفس الوتيرة وبحرقة: لا إنها ليست أمي إن أمي أجمل امرأة في العالم.

وبينما هم في هذه المحنة يحاولون حل مشكلة الطفل وإرجاعه إلى حضن أمه كي تقر عينها ولا تحزن إذ خرجت عليهم امرأة مُسنة تلبس أسمالاً بالية منحنية الظهر مشققة اليدين من العمل الخشن ملأت التجاعيد وجهها فهرع إليها الغلام لا يصدق وهو يبكي: أمي أمي، ثم عانقها بشغف والتفت إلى القوم وقال: ألا ترون أمي إنها أجمل امرأة في العالم؟! تعجب الرجال والنساء وحكوا رؤوسهم وقالوا: نعم إنها بالنسبة له أجمل امرأة في العالم. والمثل يقول: القرد في عين أمه غزال، كما أن العكس صحيح، ولله في خلقه شؤون.

مشكلة المرأة

عندما يناقش الرجل في موضوع المرأة يرتكب خطأً أساسياً مثل مناقشة الحداد في مهنة الطب أو الفلاح في تكنولوجيا الفضاء، وليس أبرع في مناقشة موضوع المرأة من المرأة. وليس أنجح في تحديد لباس المرأة من المرأة، وعندما يفرض الرجال على النساء ضرباً من الوصاية فيختاروا لباسها ويحددوا أناقتها يشبهون في هذا نجاراً يصمم سترة فضائية للاستخدام على سطح المريخ، ويجب أن نعترف أن المرأة تشبه كوكب الحب إيروس الغامض، ومع كل الحياة الزوجية الطويلة فإن المرأة عندما تأوي إلى التراب وتودع زوجها في رحلة الأبدية لا يكون الزوج قد فك لغز المرأة وعرف جغرافيتها أكثر من الأمي الذي مسح بيده على جمجمة أنثى وادعى أنه عرف كامل التركيب العصبي وشبكات الارتباط في مائة مليار خلية عصبية.

قال رجل: عشرة أشياء يفهمها الرجل عن المرأة، فلما سئل: ما هي؟ بدأ بالعد ١.. ٢.. ٣.. ثم لم ينطق بكلمة. وعندما كانت (نوال السعداوي) تناقش الشيخ الذي كان يلوح بالآية القرآنية أن ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ ويستخدمها في معنى مغلوط ثلاث مرات في أن (الذكر خير من الأنثى) كنت أشاركها محنتها ولكن من زاوية مختلفة، فهي كانت أمام متحارجة مخيفة أقحمها فيها الشيخ غير الحصيف بين أن تكذب القرآن فتعلن كفرها على مسمع من جمهور مستعد أن يقذف بها إلى خانة الردة لأنها أنكرت معلوماً من الدين بالضرورة، أو أن تكتم عدم قناعتها فيما وصل إليه الشيخ فتمارس النفاق، وهكذا كسب الشيخ الجدل ببراعة فوضعها بين خانتي الكفر

والنفاق، وهي ليست في الاثنتين، فلم يكن أمامها سوى أن تلتف حول الموضوع بدون القدرة على حله، أو كما يسميها جماعة الحداثة (زحزحة موضع النقاش) بدون أن يتزحزح عملياً.

وهذا يعني أنه لا يمكن حل مشكلة الفكر العربي بدون الدخول على مفاتيح إصلاحه الديني، كما حدث في أوربا مع الكنيسة و(مارتن لوثر). ولكن بيننا وبين الوصول لهذا خمسة قرون، فـ(مارتن لوثر) قام بإصلاحه الديني عام ١٥١٧م، ونحن في عام ١٤٢٤هـ، والمرأة لم تمنح حق التصويت في بريطانيا إلا عام ١٩١٢م، ونحن نراوح في الزمن في مرحلة ما قبل الإصلاح الديني، بيولوجياً في القرن الواحد والعشرين ولكننا فكرياً في القرن الخامس عشر للميلاد، في زمن المماليك البرجية أيام الملك الناصر صلاح الدين قلاوون، عندما كان الناس لا يتجرأون على التصريح بآرائهم ويقتلون من أجل مخالفة التيار السائد.

والمشكلة مع الصنف من الناس الذين لم يتشبعوا بالثقافة الإسلامية أنهم في النهاية يطلّقون الثقافة الإسلامية سراً أو علناً حسبما تسمح المساحة السياسية، وفي النهاية فإن الآية التي تلاها الشيخ على مسامع (السعداوي) لا تفيد الخيرية أو الأفضلية، كل ما ترويه الآية هو (الغيرية) أن الذكر غير الأنثى، مثل أن «الفيديو غير التلفون»، والبرتقال غير التفاح، والأرنب غير الأسد، والآية منتزعة من سياق خماسي في خمس فقرات متماسكة بحلقات يأخذ بعضها برقاب بعض تقول فيها امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ وجملة ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ قد تكون اعتراضية وقد تكون من قول المرأة، والقرآن ينقل عن الجميع، على لسان ملكة سبأ، والشيطان يوم القيامة، وفرعون عندما أدركه الغرق، مع هذا فقد يتسرب من الآية شعور غامض أن الأنثى قد تقصر في خدمة المبدأ (نظرياً) فأراد الله أن يثبت

لها (عملياً) أن الأنثى يمكن أن تقوم بنفس الدور كي يصحح هذا الشعور.

ومن يريد أن يوظف الآية أنها تفيد (أن الذكر أفضل وخير من الأنثى) يفتري على الله الكذب وقد خاب من افترى، ولذلك كان من الضروري قطع الطريق على من يخلط بين الإلهي والبشري، والنص وفهم النص، وسحب البساط من تحت أقدام من يوظف النصوص القرآنية لمفاهيم أحادية الاتجاه، كمن يبني شوارع سريعة بدون طريق عودة، وسيارات ذات تكنولوجيا راقية تمشي للأمام فقط فإذا دخلت «الكاراج» انحشرت فلم تخرج. وهو اتجاه خطير ومدمر باحتكار معنى النص الإلهي في قنوات بشرية، وعندما ناقش (مالك بن نبي) مشكلة المرأة في كتابه (شروط النهضة) اعتبرها مسألة (اجتماعية) ذلك أن قطبا المجتمع هما المرأة والرجل. فلا يمكن فهم مشكلة طرف بدون فهم الطرف الآخر، ولا يمكن حل أي مشكلة اجتماعية بدون (حضور المرأة) كما لا يمكن للسيالة الكهربية أن تتدفق بدون وجود السالب والموجب مع اتصال القطبين.

ومن أعجب التحليلات وأطرفها التي وصل إليها أن كلاً من دعاة تحرير المرأة والحجر عليها ينطلقون من قاعدة نفسية (لا شعورية) واحدة أساسها مشاعر جنسية، وقد يرى البعض أن دفع المرأة لكشف مفاتنها يمكن فهمه بدافع جنسي إلا أنه خفي جداً في من يشتد في سترها وتغطيتها، ولكن التحليل النفسي يقود لنفس الآلية أي المحافظة على الأنثى أن لا يشاركه فيها أحد، يقول (مالك بن نبي) في كتابه (شروط النهضة): «ولسنا نرى في الأقاويل التي تقولها على حقوق المرأة أدعياء تحريرها أو الذين يطالبون بإبعادها من المجتمع إلا تعبيراً عن نزعات جنسية لا شعورية، ولقد يكون هذا التعليل ظاهراً بالنسبة لأولئك الذين يطالبون بخروج المرأة في زينة فاتنة غير أن أولئك المتمسكين بإبعاد المرأة عن المجتمع والمؤمنين بضرورة إبقاءها في سجنها التقليدي بعض الغرابة، بيد أن هذه الغرابة لا تلبث أن

تزول حينما نعلم أن ليس لتفكيرهم من مبرر منطقي إلا ما يتعللون به من الحفاظ على الأخلاق الذي يختفي وراءه مغزى التمسك بالأنثى؛ فالغريزة هنا تكلمت بلسان آخر لينتهي ابن نبي إلى أن «كلا الفريقين يصدر رأيه عن اعتبار واحد هو الغريزة ولا أمل في أن نجد في آرائهما حلاً لمشكلة المرأة».

ولقد روى لي (عبدالحليم أبو شقة) طرفاً من مأساة تعليم المرأة في مصر وهو صاحب موسوعة (تحرير المرأة في عصر الرسالة) في ست مجلدات لم يسبقه إليها أحد تبحث كل ما يتعلق بالمرأة، وقد حرص الرجل أن ينقل من كتاب الصحاح نصوصاً عن حضور المرأة الاجتماعي يكاد المرء لا يصدق عينيه وهو يقرأها، قال الرجل: عندما بدأ أصحاب الاتجاه غير المتدين بحركة تعليم المرأة اعترض العلماء التقليديون واعتبروا أنه فتح باب الفتنة، وأن تعليم المرأة وخروجها من بيتها سيقود إلى مفسدة عظيمة، وأن دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح، وعلموهن الغزل والنسج وخلوا قراءة وكتابة، ثم جندوا كل النصوص العقلية والنقلية في حرمة هذا الاتجاه، حتى تمكن الآخرون من شق الطريق إلى المدارس الابتدائية وابتدأت البنات في الذهاب إلى المدرسة. عندها لحق بهم المتدينون فقالوا: نعم يجب إدخال البنات المدارس، وأن الإسلام حض على العلم، وأن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم، واطلبوا العلم ولو كان في الصين، وأنه ما اجتمع قوم (وفيهم طبعاً النساء) يتعلمون إلا غشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده، وجندوا بالاتجاه المعاكس كل الأدلة العقلية والنقلية على جواز ذهاب البنات إلى المدارس الابتدائية، ولكنهم قالوا: يكفي هذا القدر من التعلم وحسبها أن تفك الخط وتكتب الرسائل.

وتذكر هذه المأساة بقصة (البدعة) في رفع صوت الأذان بمكبرات الصوت، وقد روى لي شاهد عيان عن الضجة الكبرى التي ثارت في

الستينات من القرن عندما رأوا فيها (بدعة) وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، واليوم لا يقام الأذان في كل العالم الإسلامي بدون «المكرفونات»، وتباع أجهزة المكبرات في كل سوق بدون معارك، ويتلو القراء القرآن في قيام الليل في رمضان ولساعات بصوت يشق الفضاء ولو كان من مسجد في مشفى مرضاه في أمس الحاجة للنوم والصمت.

وهي نفس المشكلة مقلوبة فكما تحرج الناس من استخدام مكبرات الصوت فإنهم لا يتجرأون على الاعتراض على استخدامها المؤذي أحياناً ومن تجرأ فنصح دخل في عداد الهراطقة، وكل ممارسة يمكن أن تمر طالما رفعت فوقها الشعارات الدينية صحيحة كانت أم خطأ، فنحن محرومون من التفكير في عصر التكفير، ونمشي على رؤوسنا أحياناً، ولكن من يمشي على رأسه يخسر رأسه ورجليه معاً. ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟

وأرجع إلى قصة تعليم المرأة فقد قفز الآخرون إلى تطوير تعليمها لمستوى المدارس الثانوية؛ فوقف التقليديون يكافحون ضد التيار، وقالوا إنها الطامة الكبرى بخروج المراهقات إلى المدارس، وسوف تحدث الفتنة ويختلط الرجال بالنساء، وعندما استقرت المدارس الثانوية لحق المتدينون بالاتجاه من جديد وللمرة الثانية، وقالوا: لا حرج ويجب أن تتعلم المرأة، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وعندما واصلت المرأة التعليم إلى المستوى الجامعي ارتجت الأرض من جديد واتسع الخرق على الراقع فقالوا: كيف ستجلس الفتيات في قاعة الفتيان؟ والذي حصل أنه لم يحصل شيء وتابعت المرأة تعليمها ولحق التقليديون الاتجاه مرة ثالثة. واليوم تعج قاعات المحاضرات بالفتيات المسلمات يزاحمن الرجال على التعلم وتكشف الإحصائيات عن تفوق الإناث على الذكور.

كان (عبد الحليم أبو شقة) يذكر لي هذه الواقعة التي عاصرها في مصر ويتأوه ويقول: كنا دوماً مع الرأي الدبري ولم نكن نخترق ببصيرتنا المستقبل فنندفع نحن إلى تطوير التعليم وسواه.

وما حدث في التعليم حدث في مستويات شتى من الفنون مثل الموسيقى والغناء والتمثيل، واليوم تخلب هوليود عقول الناس، ولم نستطع تطوير سينما راقية محلية لا تكلف أكثر من شراء عشر طائرات حربية لن نستعملها، واعتبر الناس من يغني شيطاناً مَريداً، وأما الموسيقى فحُرمت بدون نص واحد من القرآن، وقامت طالبان بتحطيم آثار بوذا في باميان مما حرض عليهم العالم جميعاً فدخلت عليهم أمريكا كابول وتبَّرت ما علت تتبيراً.

لقد ساق (أبو شقة) في كتابه (تحرير المرأة في عصر الرسالة) نصوصاً عجيبة عن حضور المرأة مما يفسر قيام ذلك المجتمع الفريد، فعندما يصيح المؤذن أيها الناس تهرع الصحابية للحضور لتسمع القرارات الخطيرة وهي تقول: وأنا من الناس. وعندما يرى الرسول ﷺ زوجة صحابي لم تعتن بنفسها يسألها لماذا أهملت نفسها؟ تقول: إن أبا الدرداء قد نأى بنفسه عن الدنيا، وينام الرسول ﷺ عند أم حرام فيقوم من نومه وهو يضحك فيبشرها بأنها ستكون مع أحد الحملات العسكرية على ثبج البحر الأخضر مثل الملوك على الأسرة، وهو الذي حصل حينما شاركت في حملة قبرص فوقعت عن دابتها فماتت رضي الله عنها، ويبرع الرجل في التمييز بين الحجاب واللباس وأن (الحجاب) كان خصوصية لزوجات النبي وهو يعني الفصل الكامل، أما اللباس فهو شيء مختلف فتلبس المرأة المحتشم وتشارك في بناء المجتمع.

ومن أعجب الأمور التي قرأتها في كتاب الرجل أنه استشهد بنفس أدلة

شيخ نقل ما لا يقل عن أربعين حديثاً في حرمة كشف الوجه فاستنبط منها العكس تماماً، وأن السائد في زمن النبوة كان كشف الوجه، وهو تحصيل حاصل لحضور المرأة الاجتماعي، والمناقشة في هذه البديهيات تعني أننا لم ندخل بعد ميدان الإصلاح الديني، وأن موجة التشدد تعلو، وأن بيننا وبين الصحوة الإسلامية مسافة سنة ضوئية قبل دخول عصر التنوير الإسلامي.

في ١٨ آذار (مارس) ١٨٧١م أسقطت العاملات والعمال الحكومة الفرنسية وأعلنوا قيام الجمهورية الثالثة، وأقاموا دولة شعبية بدون جيش وعاصمة، وأعلنت مساواة المرأة بالرجل، ولبست النساء اللباس العسكري وحملت السلاح وقاتلت في الصفوف الأولى فيما عرف بكومونة باريس، ولكنها لم تدم أكثر من شهرين فسحقت بدون رحمة وقتل في معارك الشوارع أكثر من ٢٥ ألفاً بالتعاون مع الألمان الذين كانوا قد قهروا فرنسا في معركة سيدان عام ١٨٧٠ بعد أن انهار حكم الامبراطور نابليون الثالث. وفي النهاية ألقي القبض على آلاف النساء فمنهن من أعدمت مثل (ليونتين سوتين) ومنهن من نفي مثل (أويلالي بابافوين ولويز ميشيل).

إن تاريخ المرأة في التاريخ كان جسراً على نهر من دموع.

دماغ الرجل والمرأة

أرسل لي شاب من الكويت يتتبع مقالاتي يسأل: هل هناك فروق بيولوجية بين دماغ الرجل ودماغ المرأة؟ وإذا كانت هناك فروق ما هو المدلول العلمي لذلك؟ فأجبته بقولي: نعم هناك فروق بيولوجية بين دماغ المرأة ودماغ الرجل فقد ثبت أن تكوين دماغ المرأة أفضل من الرجل من عدة جهات؛ فهو أشد كثافة في الجسر الذي يربط بين نصفي الدماغ وهذا يعني أنها أفضل في التعليم والامتلاء الثقافي والحديث.

وثبت أيضاً حسب دراسات علمية نشرتها مجلة (دِر شبيجل) تفوقها الدراسي. كما ثبت أن المرأة تتفوق على الذكر بتحملها وهذا يعود إلى تكوينها البيولوجي أيضاً، فالشرايين عند المرأة لا تتعرض للتصلب كما هو الحال عند الرجل. والمرأة لذلك أفضل من الرجل وتعمر أكثر منه في المتوسط ثماني سنين، وهي بالتكوين الهورموني أقل عدوانية لذلك كانت الحرب نشاط ذكوري عبر التاريخ.

ولكن هذا الرد لم يعجب البعض فأرسل لي محامي يدافع عن الذكور المضطهدين يقول: قرأت ردك على المذكور حول تساؤله عن الفرق بين دماغي المرأة والرجل، وأنا أدرك أن نظرتك الحضارية لمكانة المرأة أملت الرد؛ ولكن أستأذنك في الإشارة إلى أن دماغ الرجل أثقل وزناً من دماغ المرأة، ودعني أسأل بعد أن تساوت فرص التعليم والتحصيل والتثقف بين الجنسين في أوروبا بالذات: كم نسبة النساء إلى الرجال في هذا المضمار؟ وكم امرأة حصلت على جائزة نوبل مقارنة بعدد الرجال؟ أما إشارتك للحرب على أنها

نشاط ذكوري فأظن أن سبب الحروب أساساً كان الطمع بالأراضي الخصبة وبالمياه والماشية وسبي النساء أي أنهن كن سبباً للحروب منذ وجود الإنسان الأول، نعم المرأة تعيش مُدّة أطول من الرجل لأنها «تكومه» وتقضي عليه كمداً وطلباً ولا أظن بسبب عنصر إيجابي في دماغها، ولعلي أقول: إن هناك فرقاً بين العقل والدماغ إذ قد يكون دماغ المرأة أكمل تشريحياً من دماغ الرجل، وهذا أمر لا يسعني مناقشتك فيه كونك من أهل الذكر الذين نسألهم ولكنني أرى أن عقل الرجل أرجح بحكم استقرائي للمسيرة التاريخية لكلا الجنسين.

وجوابي على ما قال المحامي هو: إن الحجج الثلاث واهية تتساقط بأول تسليط شعاع من نور العلم، فأما وزن الدماغ فلا علاقة به بالذكاء والحكمة، ويذكر (بيتر فارب) صاحب كتاب بنو الإنسان أن دماغ الكاتب الروسي (تورجينيف) كان في الوزن ضعف دماغ (أناتول فرانس) وكان الاثنان مبدعان.

وجوائز نوبل ليست المعيار في العبقرية والحكمة وإلا كان (إسحاق رابين) سيد السلاميين والعباقرة وهو الذي دعا لسحق عظام الفلسطينيين، وهناك العديد من النساء اللواتي نلن جائزة نوبل ليست بسبب العبقرية بقدر التشكيل الثقافي للجنس البشري فالذكور هم الذين يسيطرون على المجتمع فينمون التنافس البغيض ويشعلون الحروب.

وأما سبب نشوء الحروب فلا يراهن أحد على سبب محدد ولكن الأكيد أن الذكور هم الذين يشعلونها وهم الذين يشتعلون بنارها فيتحولوا إلى رماد ويتابع التاريخ رحلته على يد امرأة، ولكن الحجج لا تنفع في مجتمع ذكوري أحول الرؤية، وأما رجاحة عقل الذكور فيشهد له الآن صراع (صدام وبوش وشارون).

وكان لي صديق طبيب استشاري عاقل يقول: إن المرأة يجب نفضها مثل السجادة من حين لآخر حرصاً على نظافتها، والسؤال: كم يحتاج عقله إلى نظافة؟ وهو الذي ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

جدلية الشيعي والسني

سألني أحدهم عن زميل لنا يعمل في القسم: هل فلان شيعي؟ قلت له: لا أعرف، ولست متأكداً، ولم أسأله، وقد يكون، قال: لقد عرفت أنه شيعي؟ قلت: وكيف عرفته؟ قال: من عينيه، كانتا تشعان بالخبث، سكتُّ أنا للحظات بعد هذا الاكتشاف المذهل؟ ثم التفتت إليه فسألته: هل تعلم أين ولد فلان؟ قال: لا، قلت له: الرجل ولد في الناصرية في جنوب العراق، ولم يستوعب ما أرمي إليه فهو خارج إحداثيات الجغرافيا والتاريخ، ثم فاجأته بسؤال أصعب: يا صديقي لو ولدت أنت في (بايرن) في ألمانيا هل كنت تعلم ما هو الدين الذي كنت ستدين به؟ ذعر من السؤال ولم يتصور ارتباط (بايرن) بالدين، أجاب بشيء من التضايق: ماذا تقصد بسؤالك؟ قلت له: لا شيء مجرد السؤال، وعدم الجواب أحياناً يبقى أبلغ من أي جواب.

يولد الناس من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً وعندهم قدرة التشكل على قالب أي ثقافة بأفضل من الحديد في مصانع الصلب، فتخرج منها سيارة مرسيدس أو حاوية قمامات، وقدم البنت الصينية كانت في القرن الفائت تضغط لتبقى صغيرة بطول بضع سنتمترات لأن القدم الكبيرة كانت غير مرغوبة في الزواج، وفي قبائل غينيا من العيب على الرجل أن يمشي بدون قرن ثور مشدود إلى قضيبه دلالة على الفحولة، وفي تهامة من عسير يطهر الغلام بسلخ جلد منطقة العانة كلها ويوضع الطين فوق المكان المكشوط، وفي بعض مناطق التيبت يرحب بالضيف بإبراز اللسان، وفي الأسكيمو يحتفل الرجل بالضيف بتقديم زوجته له.

كما أن الصينيين يكرمون الأموات بوضع أفخر أنواع الطعام على الضريح، وعندما تعجب بريطاني منهم أن الميت لا يأكل؟ كان جواب الصيني: إنكم تضعون أجمل الزهور على قبر ميتكم والميت لا يشم؟

والمشكلة هي أن كل واحد يسخر من ثقافة الآخر ويضع يده على رأسه عجباً، ولم يدع نوح قومه إلا إلى ما هو منفعتهم ولكنهم ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾، وضحك مشركو قريش كثيراً من الأمثلة التي كانت تضرب لهم، ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾، أي يضحكون.

وكان الإزتيك عام ١٥٠٠م في المكسيك يتقربون إلى الله بانتزاع قلب شاب قوي وهو على قيد الحياة فيخرج الكاهن إلى الشعب وبيده القلب يخفق فيهلل الجمهور استحساناً، وإلى فترة قريبة كان البشر يأكل بعضهم لحم بعض فكرهتموه، ويذكر المؤرخ (ديورانت) أنه لفترة قريبة من التاريخ الإنساني كان لحم البشر يباع معلقاً عند القصابين مثل الخرفان. وينقل عن بعض القبائل الإفريقية أنها كانت تستطيب لحم الرجل الأبيض. ومعروف عن الأسد أنه إن أكل البشر اعتاده بسبب ملوحته عن لحم الغزلان، وفي فيلم (على قيد الحياة) وهي قصة حقيقية سقطت طائرة على قمم جبال الإنديز وحوصر الناس لمدة ٧٢ يوماً في الثلج والبرد ولم ينقذهم من الموت إلا أن يأكلوا بعضهم بعضاً، وعند حصار تل الزعتر في بيروت أفتى أحدهم بجواز أكل لحم الميت دفعاً للمجاعة التي فرضها عليهم إخوانهم العرب.

وعند سكان أوستراليا الأصليين تتدلى أثداء النساء بدون أن تثير الفتنة، وفي كهوف الفليبين يعيش الناس رجالاً ونساءً مع أطفالهم في حالة عري كامل فلا يصيح واعظهم أن هذا مخل بالأخلاق.

وبالمقابل فإن كشف (يد) امرأة متلفعة بالسواد من مفرق رأسها حتى

أخمص القدم في بعض المناطق من العالم العربي يثير الشهوة عند رجال يعيشون في حالة هلوسة جنسية عن عالم المرأة. ولو اندس رجل أبيض وتلفع بالأسود ثم أبرز يده لحرك شهوة القوم. وفي بلد عربي لاحق أحد المتشددين سيدة يطلب منها الانتباه إلى حقيبتها فشكرته وتعجبت من الأريحية، ولكن تبين أنه كان يريد إفهامها أن حزام الحقيبة أظهر حجم كتفها بما يثير الفتنة.. مما يؤكد أن الجنس (هندسة ثقافية) كما كتبت المغربية (فاطمة المرنيسي) كتاباً كاملاً عنه.

وفي السودان كانت حكيمة القبيلة تشق بسكين حادة وجوه الناس خطوطاً وتترك ندبات مخيفة، وبذلك يفرق الدناقلة عن الشايقية والجعالين، ثلاث خطوط مستقيمة واقفة ١١١ أو أفقية أو مائلة تلتقي على خط قاعدي، فيميز الواحد ابن قبيلته مثل شمشمة الأرنب للأرنب.

وفي ألمانيا تزعمت امرأة النقابات العمالية، وفي أمريكا أخذت سيدة منصب وزيرة الصحة، كما أن سيدة قفزت إلى الواجهة فتربعت على منصب رئيسة وزراء كندا، بدون أن تكون إحداهن أكثر إثارة جنسياً. وعندما انطلقت كوكبة من الفتيات عاريات الصدر في كندا ألقى البوليس القبض عليهن ليس بسبب جنسي بل لتجاوز الحد المقرر من الحرية. وقيمة (الحرية) هناك تشكل العمود الفقري لحزمة القيم مقابل مفهوم (الشرف) السائد في الشرق، بمعنى أن المرأة التي تمارس الجنس بحريتها ليس عليها جناح ولكن الويل لمن اغتصبها، أما الأنثى في الشرق فينحرها أخوها بيده غسلاً للعار في شريعة الفحولة أكثر من العدالة.

وفي مؤتمر إسلامي في (آخن) في ألمانيا حضرت امرأة ألمانية مع زوجها من مسافة ٤٠٠كم فتطوعت سيدة عربية لفصلها عن زوجها بدعوى التقوى فكان جواب الألمانية: إنني مسلمة ولكنني لست ملزمة بعاداتكم

العربية ولست مفارقة زوجي ومقعدي سيكون بجانبه في المحاضرات فافعلوا ما بدا لكم، فسكتوا كارهين، ولكن في أمريكا طلب منظمو المؤتمر من الشرطة الأمريكية التدخل لإلقاء القبض على سيدة مسلمة أبت إلا أن تجلس في مكان الرجال لاستماع المحاضرات ولم ترض أن تقعد بين الخالفين مع صراخ الأطفال في القاعة الخلفية.

ويرى المؤرخ (توينبي) أننا لو أخذنا طفلين: الأول من عائلة لوردات بريطانية وجعلناه يتربى بين قبائل الزولو، وأخذنا الطفل الأسود وربيناه في كنف عائلة أرستقراطية، لخرج الأول يرقص بالحربة على قرع الطبول في الاحتفالات الليلية، ولكان الأسود أكاديمياً يدخن السيجار وينطق الإنكليزية بلهجة ويلز.

ولو رجع أحدنا في الزمن إلى عصر الأنبياء لهرب بعد أيام لافتقاد حبة أسبرين للصداع ورائحة المدن الكريهة وانتشار الأمراض واللصوص في كل مكان، وبالتأكيد لو قفز إنسان من عصر تيمورلنك عام ١٤٠٢م إلى مونتريال في كندا عام ٢٠٠٠م فلن يعود إلى حضرة السفاح ولو أغرقه بالذهب والنياشين السلطانية، فطبيعة التاريخ تقدمية.

ولو انقذف أحدنا بآلة الزمن إلى العام ٥٠٠٢ فسوف يغيب لأنه سيرى عالماً خالياً من الحرب والمرض والظلم وامتهان المرأة ولا وجود لشيعي وسني وسلفي وخلفي، وينقل (محمد إقبال) عن الصوفي (عبد القدوس الجنجوهي) أنه لو عُرج به إلى السماء كما حصل لمحمد ﷺ لما عاد.

وعندما يحضر زميل عمل إلى مؤسسة يبدأ تصنيفه: هل هو علوي؟ درزي؟ شيعي؟ ويمضي التصنيف إلى الأسفل كما في تقسيم أنواع الحشرات عند علماء الطبيعة. فإذا كان سنياً هل هو سلفي أم خلفي؟ صوفي أم فقيه؟ وإذا كان من معسكر الصوفية فمن أي فرقة الرفاعية أم الشاذلية؟ وإذا كان

إسلامياً فمن أي حزب؟ هل هو من الإخوان المسلمين أم حزب التحرير أم جماعة الجهاد؟ هل هو من جماعتنا أم منشق علينا؟ هل هو سليم العقيدة على منهج السنة والجماعة أم متأثر بفكر العلمانيين والحداثيين أم هو شيخ العصرانيين؟

﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾.

إنها تساؤلات يخفيها الجميع علناً، والكل يتهامس بها سراً، وفي أكثر من بلد عربي يعرف الجميع أن الجيش والحكم بيد طائفة معينة، وأنه مواطن من الدرجة الخامسة، ولكن لا أحد يصرح بها ولو في منشور سري. في حالة نفاق مزمن ليس له إيمان، وخراج خفي ينفجر مثل انسمامات الدم في الحروب الأهلية.

قصة الثعبان والهدهد والفلاح
(الغدر وعاقبته)

بينما كانت مجموعة من الصيادين في طريقها في الغابة فوجئت بفحيح ثعبان في وجهها فهجمت عليه تريد قتله فهرب حتى دخل بيت فلاح في قرية مجاورة. تقول الرواية: إن الحية استغاثت بالرجل من كيد الصائدين ورجته أن يخفيها في مكان آمن كي لا يقتلها من اشتد في السعي خلفها، نظر الفلاح فلم يجد سوى بطنه مكاناً آمناً هكذا تقول الأسطورة الأفريقية، دخلت الأفعى بطن الرجل فوجدت الأمن والدفء، فلما جاء الصيادون يبحثون عنها لم يعثروا لها على أثر فرجعوا خائبين، بعد أن انصرف موكب الأعداء صاح الفلاح في الحية: قد أمنت على نفسك ونجوت فاخرجي في حال سبيلك، نظرت الأفعى في قول الرجل وهي في بطن الرجل قد أغراها المكان فرفضت الخروج، فاحتار الرجل في كيفية إخراجها، فمضى على وجهه يلتمس سبيلاً يخرج الأفعى من أحشائه، حتى اجتمع في طريقه بطائر الهدهد فرآه مهموماً.

قال له: ما بالك يا صاحبي وأنا أعرفك نشيطاً طيب النفس كل يوم تنطلق إلى الحقل وأنت تغني فما بالك اليوم قد انطويت على نفسك وفارقت وجهك نضارة السعادة؟!

قال: يا صديقي كلامك صحيح وهناك من الهم ما ركبني وقد أعيتني الحيلة عن فك ما وقعت فيه.

قال: وما هو يا صديقي عساي أن أنجح فأحل مشكلتك وأشور عليك

بما ينفعك ويفرج كربتك فقل لي: ما الذي دهاك من هموم الدنيا؟

قال: يا صاحبي هي أفعى لعينة طلبت مني النجدة عندما حزبها أمرها وطاردها الصيادون وطلبت الأمن عندي فمنحتها أعز ما أملك فحشرتها في بطني فهي راقدة فيه لا تبغي حراكاً أو خروجاً.

قال الهدهد: أصلحك الله لقد أتيت منكراً من العمل وأدخلت على نفسك السقم، فهل رأيت من يأوي الأفاعي وهو يعلم أن في أنيابها العطب.

قال الفلاح: هذا الذي حصل فهل عندك حيلة أخرجها من بطني؟

فكر الهدهد ثم قال: لك عندي حيلة إن أطعتني أخرجناها معاً.

قال الرجل: وكيف؟

قال: تجلس القرفصاء وتحبس نفسك وتضغط بطنك فيشتد عليها المكان ويضيق فتخرج بعد أن تحس بالحرج، قال: ثم ماذا؟ قال: يأتي دوري فأنتشلها بمنقاري فألقيها خارجاً أو قتلتها.

قال: نعم الرأي ما قلت، ثم إن الرجل هبط إلى الأرض وكتم أنفاسه ونفخ بطنه فضاقت المجاري على الحية فبدأت تطل من حلقه إلى الخارج فما كان من الهدهد الذي يتربص في مكمن له إلا أن انقض على رأس الأفعى فشدها وألقاها في الخارج.

ففرح الرجل لما رأى خلاصه من الحية ونظافة بطنه منها، ولكنه ارتاب في أمر فهمس في أذن الهدهد وقال له: يا صاحبي تعرف ما الذي يجعلني أعاني الهم الآن؟

قال الهدهد: ألم تقتنع بعد أنك نجوت ونظفت أحشاءك من الأفعى اللعينة؟

قال: هو كذلك، فأنا الآن أخشى أن تكون قد بصقت سمها داخل بطني فأموت بعد حين.

نظر الهدهد في وجه الفلاح المرتاب ثم قال له: حسناً وهذه لها حل.

قال: وما هو؟

قال: علاجها أن تذبح ستة طيور بيض تطبخها على نار هادئة وتأكلها في مساء بارد مع قدح من اللبن المملح، فإن كان هناك سم طرحه بدنك فتعافيت.

نظر الفلاح إلى وجه الهدهد الحكيم ثم قال: مثلك لا يفرط به فهلّا اقتربت مني فكافأتك بطعام من حبوب أو شيء تحبه.

ولما اقترب الهدهد من الفلاح أمسك برقبته ثم حشره في كيس ثم ربط عنقه، ولما رجع الفلاح إلى بيته قص الخبر على زوجته.

قالت: ويحك أهذا جزاء من أنقذك وخلصك من الحية السامة أن تحشره في كيس لتأكله الآن.

قال الفلاح: الكلام ما قلت. ثم عمد إلى الكيس فأطلق الهدهد، فلما خرج إلى الحرية كان أول ما فعله أن انقض على الفلاح ففقأ عينه ثم أطلق جناحيه للريح.

إن الذي يغدر بالآخرين يجب أن ينتظر عاقبة أعماله في فاتورة مريعة من المصائب مع فوائدها المركبة.

مذهب الغدر

في عام ١٩٧٥ اتفق الشاه وصدام في الجزائر على مسألة الحدود ووقّع الطرفان على وثيقة دولية في جو من العناق، وبعد خمس سنوات تبين أن الاتفاق لا يساوي قيمة الورق الذي كتب عليه، وأن الغدر سيد الأحكام، وأن السيف أصدق أنباء من كل المواثيق الدولية، وأن القواعد تُستخدم لخرق القواعد.

وفي معظم بلدان العالم العربي يتم الاحتفال بأعياد وطنية فتغلق المؤسسات العامة، وهي ذكريات أيام الغدر والانقلابات، ويخطئ من يظن أن هذا المرض حديث فالمتتبع للتاريخ العربي يكتشف مسلسلاً محموماً من قنص السلطة الدموي والغدر المتصل، ثم محاولة شرعنته على يد وعاظ السلاطين، وظاهرة الغدر بدأت منذ أن صادر البيت الأموي الحياة الراشدية مثل مرض الإيدز الاجتماعي، ونحن نعرف من مرض فقد المناعة الكسبي أن الخلل هو في تسلل الفيروس إلى الشيفرة الأصلية للتكوين، والمرض الأموي أصبح مقدساً محصناً ضد أي مراجعة، وأصل البلاء ليس أنه مرض عارض جاء ثم تعافت منه الأمة كما يحدث لأي واحد منا يصاب بالأنفلونزا فينهار ثم يستعيد عافيته بعد أسبوع، ولكن مسلسل الانهيار لم ينته بعد، ونحن نقدس أسلافنا مثل مشركي قريش لأسلافهم فلا يمكن رؤيتهم في صورة بشرية، وإنا على آثارهم مقتدون.

وسفينتنا الغارقة ما زالت تغوص إلى القاع مثل التيتانيك ولم تستقر بعد في قاع المحيط، وإذا كان للسفن الغارقة قاع ترسو عليه، فإن المجتمعات

تمضي في رحلة الانهيار إلى درجة الموت والتفسخ ثم التحلل الكامل، عندما تتمزق شبكة المجتمع، وينقلب من نشاط مشترك على أنغام موسيقى جميلة، إلى كائنات بيولوجية فوضوية لا يضمها خيط، يبحث كل فرد عن خلاصه الفردي في جو من التيه والخوف، ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾.

وإذا كان الأمويون قد خرج فيهم العادل عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإن العباسيين قد خرج من بينهم السفاح أبا مسلم الخراساني الذي حمل توصية خاصة بقتل كل من رابه أمره ولو كان طوله خمسة أشبار، ومضى تاريخ الخلفاء العباسيين بعد ذلك على نحو أدهى وأمر؛ فقد قتل جعفر (المتوكل) على الله وهو الخليفة العاشر، كما قتل الخليفة الحادي عشر (المنتصر بالله) فلم ينصره أحد. أما (المستعين بالله) فقد خُلع ثم قُتل ولم يعنه أحد وكان الثاني عشر، كذلك قتل الخليفة (المعتز بالله) بدون أي عز وكان الخليفة الثالث عشر، وكذلك كان مصير (المهتدي بالله) الخليفة الرابع عشر، أما الخليفة الثالث والعشرين (المستكفي بالله) فقد سجن حتى مات، أما الراضي بالله وهو رقم ١٩ بين الخلفاء وهو (عبد الله بن المعتز) فقد حكم يوماً واحداً ولم يكن راضياً، وفي النهاية خرج آخر خليفة عباسي سمين حاسر الرأس ليقابل الجزار هولاكو فيسأله بخبث: أين مخبأ بركة الذهب الخالص؟ ثم حكم الخلفاء العباسيون في مصر بدون أن يحكموا، ولم يكن مصيرهم بأفضل وكان عددهم ١٧، وأما المماليك فكانوا ثلاثة أجيال: البحرية والبرجية والشراكسة، فأما البحرية فقد حكم منهم ستة انتهت حياة خمسة منهم بالقتل، وأما المماليك البرجية فقد حكم منهم ٢١ واحداً، خُلع منهم ١١ وقتل ٤، أما المماليك الشراكسة فقد حكم منهم ٢٥، خُلع منهم ١٢ وقُتل أربعة، وكان أعقلهم المدعو (جقمق) فقد استقال بعد أن تحول كرسي الحكم إلى كرسي الإعدام.

ولكن ما معنى هذه الرواية الحزينة من التاريخ؟

نحن كما نرى في حالة استعصاء كاملة، بعد أن تحول المجتمع العربي إلى مهزلة للعالمين، ويفرك الإنسان عينيه ولا يكاد يصدق عندما يجتمع عقلاء القوم في أكثر من بلد عربي فيغيروا الدستور، وإذا كان الحكم الملكي الوراثي يجعل الوريث ملكاً ولو كان في المهد صبياً، فإن أنظمة العالم العربي اتخذت درجة فهرنهايت سياسية قد توصل عمر المرشح من ١٤ عاماً إلى ١٠٤ بحيث أن الحاكم يضمن ولايات الترشيح مفتوحة في ملك لا ينبغي لأحد من بعده عطاء غير مجذوذ، إلى حين انقضاض جنرال جديد يشكل لجنة حجر على عقل الحاكم فيرسله إلى مصح أمراض عقلية أو حبل المشنقة.

وهذا المرض تكرره باكستان التي ترضع من نفس معين الثقافة المريض فتتكرر المهزلة تحت التظاهر بثوب إسلامي لا يسر الناظرين.

إنها أزمة ثقافية وأخلاقية تروي روح الغدر المتفشية، وإذا استطاع الطب فك كامل الشيفرة الوراثية بحيث يمكن معالجة الأمراض التي كانت في حكم المستحيل، فإن جراحة اجتماعية متقدمة هي بحكم الضرورة للتخلص من هذا المرض الاجتماعي، ولكن أين الجراحون وأين الأدوات؟

تبرئة الذات واتهام الآخرين

في عام ١٢٤٨م سقطت إشبيلية بيد الأسبان وبعدها سقطت بغداد بيد المغول عام ١٢٥٨م بفارق عشر سنوات، وبذلك سقط جناحا العالم الإسلامي واكتمل الكسوف العربي من سماء التاريخ، ومسلسل الانهيار هذا ما زال ماضياً في طريقه بعد أن انطفأت شمس الحضارة الإسلامية على ما قرره العلامة (ابن خلدون) بجملته المشهورة «وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب على نسبته ومقدار عمرانه وكأنما نادى لسان الكون بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة». ولا يخرج الاستيطان الصهيوني عن حلقة في هذا المسلسل، هذه المرة ليس في الجناح بل القلب.

والسؤال المفزع: إلى أين يمضي مخطط الانهيار؟ ثم من هو خلف الانهيار الذي يكتمل كسوفه يوماً بعد يوم وتشتد ظلمته مع الوقت؟ من هو المتسبب عن المرض المزمن هل هو هجوم خارجي أم اعتلال داخلي؟

يحلو للعرب دوماً أن يوجهوا إصبع الاتهام إلى الأعداء الذين يحتلون طيفاً كبيراً لا يكف عن الاتساع فهو أمريكا والصهيونية والصليبية العالمية والماسونيين، وإذا فرغت الجعبة فيمكن اللجوء إلى سلاح استخدمه الشيطان عندما أرجع خطأه إلى الله ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ وبهذا السلاح يمكن أن يخرس أمامه كل لسان، طالما تدخلت الإرادة الإلهية على الخط.

ويبدو أن هذا المرض قديم في الثقافة العربية فقد نسب مشركو الجزيرة العربية شركهم إلى الله ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ وبالتحلل من المسؤولية وإعادة الأمور إلى الإرادة الإلهية يتعطل كل

جهد ويُرسل الوعي إلى إجازة مفتوحة، فماذا يملك البشر أمام قدرة الله؟ ولكن اتهام الآخر هو وجه العملة المقابل لتبرئة الذات. وهناك علاقة متبادلة بين الحقلين، واتهام الآخرين يحمل آلياً صك براءة للذات، والعقل حينما يمشي إلى الخارج لاكتشاف سبب الانهيارات يقوم بثلاثة أخطاء قاتلة: أولاً: في التحليل المنهجي، وثانياً: في ممارسة خطأ علمي، وثالثاً: في إحداث مرض نفسي.

فأما خطأ المنهج فلا يمكن أن يولد أي حدث بدون تضافر حزمة من العناصر، سواء في الطبيعة مثل سقوط غصن، أو السياسة عندما تنهزم دولة في حرب، أو في الحضارة عندما تموت أمة، وأما أنه غلط في العلم فهو في نقل الهامشي إلى مركزي والأساسي إلى عنصر مغيب، ونحن نعرف من علم الأمراض أن انفجار المرض لا يحدث بسبب وجود الجرثوم بل بالاستعداد له، وهذا يفسر اندلاع الأوبئة في أمكنة دون غيرها، ولم يكن الطاعون ليعود مجدداً إلى الهند لولا تقديس الجرذان، وثالثاً تخلق الحالة النفسية أثناء زحزحة المسؤولية عنها ودفعها باتجاه الآخرين إلى انفراج نفسي مترافق بتعطيل آلية الجهد الذاتي، فطالما وجدنا فاعل الجريمة فإن كافة أنشطة التحريات عن المجرم الحقيقي تتوقف، وهل سمعنا أن الشرطة تابعت الاستجواب بعد إلقاء القبض على المجرم؟!

وهذا المرض الشيطاني يدخل الإنسان والمجتمع رحلة اللاعودة واللاتوبة واللعنة، وفلسفة القرآن تقوم على مراجعة النفس والاعتراف بالذنب ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ وقصة آدم المحورية تبحث في جغرافيا النفس الإنسانية وجيولوجيا التربة الاجتماعية لاكتشاف مصادر الطاقة، لأن الرجوع إلى الذات يرتبط بتحرير الطاقة، ونحن إن لم نكف عن اتهام الآخرين فلن نتخلص من مرض عبادة الذات. وهذا التحليل النفسي ضروري مع وضع الكارثة التي نعيشها.

وهناك مرض آخر لا يقل خطورة عن الأول ويتولد منه حين نؤشر بإصبع الاتهام إلى الزعامات، فالحاكم لا يزيد عن قميص مناسب لجسم طفل لم ينمُ بعد، وفي الوقت الذي يشب ويكبر حجمه يبدل الثوب أو يتمزق، والفوضى السياسية التي نعيشها هي تحصيل حاصل لجسم مريض ضامر، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، وإن أفظع ما يصيب المجتمع قتل التعبير فيه، ولا يمكن لآلة أن تعمر بدون الصيانة الدائمة لها، ولا فلاح للإنسان بدون ممارسة النقد الذاتي، لأن المراجعة تعني اكتشاف الأخطاء المختبئة، وهذا يعني وضع آلية التصحيح الذاتي التي تقود إلى نمو لا يتوقف، والسياسة في العالم العربي في حالة استعصاء فالتعبير مشلول، ولا نحسن صيانة أجهزتنا فضلاً عن تطويرها، ولا نعرف النقد الذاتي إلا لعناً خفياً للحكام، مثل المريض الذي يلعن جراثيم التيفوئيد للشفاء منه.

كان الملا الكردي يترجم نصاً فقهياً من العربية لتلامذته، كانت الفقرة تقول: «إذا وقعت الفأرة في السمن فخرجت حية يبقى السمن حلالاً». عندما وصل المُلا إلى كلمة (حية) ترجمها (ثعباناً)! استغرب أحد الطلبة وسأله: يا ملا، كيف خرجت ثعباناً وكانت فأراً؟ صاح به الأستاذ: اسكت أو ما تفهم.

إن وضع العالم العربي يدعو للضحك أكثر، وعندنا استعداد أن ندخل الفوضى والتناقض إلى النظام الكوني على أن نراجع أنفسنا.

جدلية العلم والإيمان والإلحاد

ليس أكثر من المسلمين ادعاء بأن الإسلام هو دين العلم والتفكير، وليس هناك أكثر من المسلمين خوفاً من العلم والتفكير، فإن تمكن العلم من استنساخ الإنسان قالوا: بأن هذا هو المروق بعينه وأنه تغيير في خلق الله، وإذا تجرأ كاتب فناقش بعض المُسَلَّمات قالوا عنه: أنه مرتد أثيم، وليست الأولى شركاً بالله، وليس في الإسلام من يُقتل من أجل آرائه كائنة ما كانت، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

ومع أن القرآن يمنح وكالة عامة للإنسان عن الله حينما ينصبه على عرش الاستخلاف في الأرض في حفل مهيب تحضره الملائكة شهوداً على هذه الترقية، فإن المسلمين يريدون أن يستلبوا هذا التاج من رأس الإنسان، ومع أن القرآن يقول: إن الكون مبني على القوانين فإن المسلمين يفضلون أن يعيشوا بعقلية خوارقية خارج السنن، وعندما نزهد في الممكن ونحلم بالمستحيل نمنح عقولنا إجازة مفتوحة، ومع أن القرآن يقول عن السنن: إنها متاحة للجميع فمن يفهم القانون يملك تسخيره في السموات والأرض سواء كان يابانياً أم ألمانياً؛ فإن المسلمين يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، قل فلم يعذبكم بذنوبكم في أفغانستان والجزائر؟ بل أنتم بشر ممن خلق!

يروى عن الفيلسوف محمد إقبال أنه كان يقول في مناجاته: يا رب إن هذا الكون الذي صنعته لم يعجبني، كان الجواب من الله: يا إقبال اهدمه وابن أفضل منه، إن عيوننا تزوغ في المحاجر من أفكار من هذا النوع، مع أن القرآن يعتبر أن الكون لم ينته خلقه بعد، وأنه أشبه بلوحة فنان ما زال

يعمل ريشته فيها ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾، وقديماً طرح (جيوردانو برونو) الإيطالي رأياً فلكياً أن الكون أكبر من نظامنا الشمسي وأنه لا حدود للمجرات فلماذا جاء المسيح تحديداً لأرض هي ذرة من غبار كوني من أجل أن يفدي نفسه لأخطاء البشر فيموت بدون أن يموت؟ فقالت الكنيسة: إنْ هذا إلا سحر يُؤثر، وأحرقته على النار ذات الوقود وهم على ما يفعلون (ببرونو) شهود.

وبقدر ما ردت الكنيسة الاعتبار إلى (جاليلو) بقدر مسك يدها أن تغفر للهرطيق (برونو) حتى اليوم، لأنه تجرأ فسمح لعقله أن يناقش عقيدة الكنيسة في الفداء، وما هو موجود في الكنيسة له نظيره عندنا فما زال رأس ابن رشد مطلوباً، وأما الدماغ الجبار ابن النظام فلم يبق من مدرسته أثر، إن مشكلة العلم أنه لا يعرف التابو ولا يسلم بالمستحيل ولا يعرف التقاعد أو الاستراحة والانكماش بل هو في تغيّر، فبأي آلاء ربكما تكذبان؟ إنه يسلط أشعته ليفهم لب الدين ولماذا جاء الأنبياء، كما يجوب جغرافيا الجنس، ويقتحم أدغال السياسة، إنه لا يعترف بالمستحيل، لأن المستحيل هي تصوراتنا، وهي لا تغني من الحق شيئاً.

نحن نطير بأفضل من الطيور على جناح الكونكورد وفي بطون صواريخ الفضاء باتجاه الكواكب، والمركبة (بايونير ١٠) الآن تطير خارج النظام الشمسي على بعد ١٢ مليار كيلومتر بسرعة ٤٤ ألف كلم في الساعة تبث أخبارها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾.. نحن نتحدث ونتراءى بسرعة الضوء مثل الذي كان عنده علم من الكتاب في مجلس سليمان فينزل على رؤوسنا كل لحظة بخبير السماء من آلاف (الساتلايت) على الملأ الأعلى، ويتعلم الطفل من حقائق العلم اليوم في وقت قصير ما عجز الدماغ الجبار (أرسطو) أن يتعلمه في كل حياته، ويضحك الإنسان اليوم من خرافات (بطليموس) عن الدوائر اللانهائية لحركة الشمس والكواكب حول مركز العالم الأرض،

ونعرف اليوم أن الأرض ليست مركز العالم، ونعرف أن الدائرة ليس لها وجود إلا في دماغ (بطليموس)، وأن كل الدوران سواء حول الشمس أو دوران الالكترون حول البروتون في الذرة يخضع لحركة إهليليجية، ويمكن لطالب ثانوي أن يعلم كل فلاسفة أثينا بأخبار البناء دون الذري والكود الوراثي والانفجار العظيم.

نحن نعرف اليوم بداية الحياة وعمر الكون وبناء الذرة، ومتى ظهر الإنسان، وطبقات الوعي مثل طبقات الأرض وصفائح القارات، ووجود كواكب تدور حول الشمس تبعد عنا خمسين سنة ضوئية، مثل معرفتنا عن ثلاثة مليارات حمض نووي في المادة الوراثية، وأن كل عنصر في الطبيعة من حديد ونحاس ويمكن أن يتغير بسحب إو إضافة بروتون لنواته، نحن نعرف ما هو أدق من الذرة مثل الكواركز واللبتونات ونبصر بتلسكوب هابل عمق الكون إلى ١٢ مليار سنة ضوئية، واستطاعت الجهود المكثفة في علم نواة الخلية أن تفك كامل الشيفرة السرية للإنسان، وعندنا من المعلومات عن حركة المجتمع وتفاصيل التاريخ مثل دوران المجرات، ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾.

ولكن بقدر الانفجار العظيم في الكون بقدر انفكاك المسلمين عن مركبة الحضارة العالمية معرضين للإشعاعات القاتلة في الفضاء الخالي الموحش، والسؤال: متى حدث هذا التشوه الخطير في الثقافة حتى أصبحنا نمشي على رؤوسنا بدون أن نشعر بالدوار؟

ما هو الجهاد؟

في ١١ أيلول (سبتمبر) من عام ٢٠٠١م ضرب البرجين التوأمين لمركز التجارة العالمي في نيويورك واعتبر البعض أن هذا جهاد في سبيل الله، وعندما كان رئيس حكومة عربية في زيارة دولة أفريقية جرت محاولة لاغتياله اعتبرها البعض أنها تصفية للطاغوت، وعندما اغتيل السادات هلل القوميون قبل الإسلاميون أنه أفضل ما عمل وأنه جهاد في سبيل الله، ولكن ما هو الجهاد في سبيل الله حقاً؟

يظن البعض أن الجهاد هو استخدام القوة المسلحة ضد الحكومات التي لا تحكم بالشريعة الإسلامية، وهذا خطأ في اختزال الجهاد إلى قتال مسلح، وهو توظيف آلة في غير وظيفتها، ومفهوم مغلوط لمعنى الدولة والمجتمع، وهو وضع آلة خطيرة في يد غير مخولة، فليس الجهاد بيد فرد أو حزب أو تنظيم سري مسلح تحت الأرض أو في جبال الجزائر أو كهوف تورا بورا، وهو ارتكاب خطأ منهجي في التغيير الاجتماعي عن طريق القوة المسلحة، واستبدال (الإقناع) بـ(الإكراه)، وهو من باب خفي (عبادة) للقوة وارتهان لها، والشباب الذين ركبوا ظهور الدبابات للإطاحة بالأنظمة قتلوا رفاقهم قبل أعدائهم، وعندما قنص المغامرون العسكريون السلطة ألغوا شريحة المفكرين، وعندما اختلف رفاق السلاح دفع المنتصر رفاقه إلى أقبية الاستخبارات حتى تعفنت عظامهم، أو خرجوا لأولادهم على نقالات مصابين بالسرطان، واستبدلت الأمة صداعاً بمغص والتهاب لوزات بمرض السل، ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾، وبذلك يخطئ من رأى الجهاد على هذه

الصورة ثلاث مرات: في (الوظيفة) و(البنية) و(من يستخدم هذه الأداة وضد من؟).

وقديماً قتل الخوارج الخليفة الراشدي الرابع وتقربوا بدمه إلى الله، ثم دخلوا في صراع مسلح مع الدولة الأموية لفترة قرن من الزمان واعتبروه سنام الجهاد ونزفت الدولة الأموية حتى الموت في الصراع معهم، ولكن الأمور لم تزدد إلا خبالاً، واستبدل يزيد والحجاج بالسفاح وأبي مسلم الخراساني، وإذا كانت الدولة الأموية قد أخرجت العادل عمر بن عبد العزيز فإن العباسيين أنتجوا من الخلفاء من اتصل بالطاغية جنكيزخان يستعديه على ملك خوارزم المسلم وكان مثله مثل من أدخل الدب إلى بستانه، أو الفأر الذي استأجر لنفسه مصيدة.

إن الجهاد يعني استفراغ الجهد في رحلة الاقتراب من الله، ولذا سمى القرآن العمل الفكري جهاداً أكبر ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ ـ أي بالقرآن ـ، وبهذا نفك الإشكالية الأولى أن الجهاد لا يعني القتال بل هو مفهوم أوسع، وأما القتال في سبيل الله فهو وظيفة دولة راشدة وصلت إلى الحكم برضى الناس. وآلة تستخدم ضد (الظلم) وليس (الكفر) ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾. وهذا تفريق جوهري فاستخدام القوة المسلحة لنشر الإسلام هو إسلام ضد الإسلام، وهذا يعني بكلمة أخرى أن آلة القتال المسلح هي ضد (الظلم) الإنساني أياً كان ولو كان من المسلمين، فتستخدم الآلة المسلحة لكبح الظلم وإزالته من الأرض بالتعاون مع أي قوة أخرى إسلامية وغير إسلامية على شكل دعوة إلى تحالف عالمي لتحرير الإنسان، ومنه نفهم استعداد الرسول ﷺ للدخول في حلف الفضول الذي كان سارياً في عهد الجاهلية فقال: لو دعيت إليه لأجبت.

وهذا الكلام يوصلنا إلى ثلاث حقائق جوهرية:

الأولى: أن تغيير الإنسان والمجتمع يتم بطرق سلمية وليس بالسيف أو الانقلاب المسلح كما جرى في التاريخ الإسلامي وما زال، والسبب أن الدماغ لا يعمل بالقوة، وقد يستطيع إنسان ضرب مسمار بالحائط بمطرقة ولكن المادة العصبية لا تتأثر إلا بعمل إلكتروني من السمع والبصر والفؤاد ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾.

الثانية: إن (القتال) أو استخدام القوة المسلحة محصور في (الدولة) وليس الأفراد أو التنظيمات السرية بسبب طبيعة الدولة، فهذه المؤسسة بناها البشر مع بزوغ الحضارة قبل ستة آلاف سنة بديلاً عن فوضى الغابة، وأهم مزاياها أنها تحتكر العنف من الأفراد مقابل توفير الأمن لهم داخلها، ونحن بواسطة الأمن الاجتماعي نأكل ونتزوج ونسافر ونبني الجامعات، ولكن وضع العنف في قناة عادلة بيد أناس لا تستهويهم القوة ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً هو الذي يميز الاستخدام الصحيح من السيء، فيسمى قتالاً في سبيل الله أو لحساب الطاغوت ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

والحقيقة **الثالثة**: أن القتال المسلح مسخر ليس لنشر الإسلام في الأرض بل لرفع الظلم عن الإنسان مهما دان، فيستخدم ضد المسلم الظالم ولو حج كل عام، وبالتعاون مع كافر عادل ولو لم يستقبل القبلة في حياته.

ومن خلال هذا التلخيص الموجز لفكرة الجهاد نقول: إن أكثر منطقة في العالم يضطهد فيها الإنسان ويجب تحريره فيها من الطواغيت هو العالم العربي، ولكن السؤال: من سيجاهد الآن ضد المسلمين الظالمين؟!

اختلاط الإلهي بالبشري

سألني أحدهم: هل فلان شيعي؟ قلت له: لست متأكداً ولم أسأله ولعله كذلك، تابع: أظنه شيعياً، قلت له: وكيف عرفت؟ قال: من عينيه، كانتا تشعان بالخبث! سكتُّ أنا ثم عقبت بسؤال: هل تعلم أين ولد فلان؟ قال: لا، قلت له: في مدينة الناصرية في جنوب العراق، تابعت بسؤال ثاني: لو ولدت أنت في مقاطعة بافاريا في جنوب ألمانيا بماذا كنت ستدين؟ شعرت أنه زلزل. قال: ماذا تقصد بسؤالك هذا؟ قلت: لا شيء فقط السؤال.

يتشكل الإنسان بشكل جوهري في مرحلة ما قبل المدرسة فيتبرمج في خرائط ذهنية لا فكاك منها، وفي سجن من أربعة أسوار من (البيولوجيا) و(التاريخ) و(الثقافة) و(الجغرافيا) يشكله المجتمع بأقوى من صهر الحديد في مصانع الصلب فيخرج منها طائرة أو حاوية قمامات.

وهذا يعني أن كثيراً مما نتصرف يحصل من خلال عالم (اللاوعي) الذي كشفه علم النفس التحليلي، فالإنسان مكون من ثلاث طبقات منضدة فوق بعضها البعض. في الأعلى (ما فوق الوعي) وهي جداً رقيقة وهي موضع التماع بريق الأفكار الإبداعية الفجائية، وطبقة (الوعي) وهي تمثل ٥٪ من كياننا النفسي وهي تشبه ضوء المنارة على ساحل المحيط عندها القدرة في تركيز الضوء في محرق محدد لوقت محدد، فإذا انقضت تحولت المنطقة إلى ظلام دامس.. وتحتها طبقة (اللاوعي) التي تمثل ٩٥٪ والذي يمثل المحيط الواسع الذي يضم شخصيتنا، وفيه مستودعات (الخبرات) و(العواطف) و(الأخلاق) و(العقد النفسية)، ومن ظلماته تتشكل الأحلام فنعيش حياتنا الثانية.

نحن نقود السيارة ونشرب فنجان القهوة و«نُزرر» قميصنا بل ونمارس الجنس برتابة آلية، وهناك من يصلي بأداء روتيني وطقوس خالية من الخشوع الذي هو لب العبادة، لأنه وجد آباءه يصلون فهم على آثارهم يهرعون، الروتين سيء ورائع بنفس الوقت، لأنه بقدر ما يقتل الإبداع بقدر ما يريحنا، لو كان إفراز الهرمونات وخفقان القلب مرتبط بالفكر لسقط العقل في شباك الطبيعة العمياء، وحتى الكلام يسيطر عليه (اللاوعي) مع أنه أكبر تجليات الوعي، فنحن حينما نتكلم لا نفكر كيف تمر الكلمات من الدماغ إلى جهاز التصويت، ولو فكرنا في كيف نفكر لانقطع كل تفكير.

ولو تأملنا جسدنا لرأينا فيه تداخل ثلاث مستويات بنفس اللحظة من (الإرادة) و(نصف الإرادة) و(اللاإرادة)، فالكلية تنظف على نحو أعمى بدون تفكير، ويمكن أن نحبس أنفاسنا لدقيقة، ولكننا نتميز عن النبات والحيوان، فالنبات ينمو ولكن لا يعرف لماذا ينمو أو كيف ينمو بل هو في قبضة قوانين آلية، وتعرف القطة كيف تبحث عن طعامها ولكنها لا تملك تعليل ملوحة ماء البحر، كما لا يقدم الكلب على الانتحار، ولم نر شجرة أضربت عن الطعام وأعلنت الصيام ولكن الإنسان يفعل ذلك.

وهكذا فهناك كيانان رئيسيان يتحكمان بنا ولكنهما متصلان على شكل طريق أحادي الاتجاه في الغالب، ف(الوعي) هو الذي يشحن أو لا فإذا تشبع نقل الفكر إلى اللاوعي، وهذا التيار مستمر على مدار الساعة كما يشحن الدينمو بطارية السيارة، ويتدفق تيار المعلومات باتجاه واحد كما في السيالة الكهربائية عندما تمر في محول كهربائي من قوة ١١٠ إلى ٢٢٠ فولت، وما يصل أرض (اللاوعي) ينحبس فيه ويتحول إلى قوة تشغيل خفية.

ونحن لا نعرف لماذا نميل إلى شخص؟ ولا لماذا نشعر بالسعادة تغمرنا في لحظات؟ كما أننا نتصرف على نحو عفوي في مواقف عصبية فإذا

واجهت مصيبة شخصان تماسك الأول وزلزل الثاني، والسبب هو تلك الخبرات القديمة المتراكمة والعواطف المشبعة تجاه الأشخاص والأحداث والأشياء.

نحن نظن أننا نتصرف بوعي كامل ولكن علم النفس التحليلي كشف حقيقة مزلزلة أننا نملك هامشاً ضئيلاً من الحرية، وبذلك نمتص ديانة المجتمع الذي نلد فيه ونحن نظن أن هذا حدث بكامل الوعي والاختيار، ونظن أن هذا هو الحق وكل العالمين ضلال، وهو شعور يمارسه جميع أصحاب الديانات والأيديولوجيات.

نحن جئنا إلى هذا العالم بدون إرادة منا وسنودعه بنفس الطريقة، نحن لا خيار لنا في (الجينات) التي مُنِحناها أو (لِلُّغة) التي تعلمناها أو (الأمراض الوراثية) التي انتقلت إلينا، لو وُلِد أحدنا في (التيبت) لكان على الأرجح من اتباع (دلاي لاما). ولو ولد من رحم امرأة كردية في العراق لكان سني المذهب غالباً، ولو ولد في أفغانستان لمشى بساق خشبية، ولو ولد في ألمانيا مع مطلع القرن لربما لاقى حتفه بطلقة من قناص في ستالينغراد، ولو ولد في بنغلادش لربما ولد ومات بدون سقف، أو لو ولد في مصر لكان يسكن المقابر دون موت، ولو ولد في دولة خليجية لكان جيبه عامراً بالمال ويعتلي صهوة سيارة جيمس.

وكما يقول (مالك بن نبي): إن حظوظ الإنسان في هذه الدنيا مرتبطة بالمجتمع الذي يعيش فيه الإنسان، بما فيها الدين الذي يعتقده. و(قد) يتحرر أحدنا من التحيز إذا أدرك قانون التحيز فيتعلم التسامح وأن يتعلم من الآخرين.

مشكلة الإنسان المريض والانتخابات

منذ القديم شكل المرض أزمة للإنسان، وكان ساحر القرية يحاول طرد الأرواح الشريرة أو استخراج الجن من إصبع القدم أو جلد الذات عندما يتعكر مزاج المريخ، واستمر الإنسان يعاني من المرض حتى تأسس علم الطب بثلاث أقدام من المنهجية وعدم السرية والتطبيق على الجميع، فيمكن تخدير أفعى الجلاجل والعصفور الدوري والإنسان وانتهاء بالفيل العظيم.

كنت في زيارة لعائلة عربية في بلد خليجي فهتفت بي ربة المنزل: عندي خبر سار لك؟ قلت: ما هو؟ قالت: بإمكانك الإدلاء بصوتك في الانتخابات الرئاسية بدون الذهاب إلى السفارة بإرسال فاكس. وكانت الانتخابات المزورة قائمة على «ساق وقدم». قلت: حسناً وهل فعلتم أنتم ذلك؟ أجابت مع ابتسامة عريضة: نعم.. جلست أنا وزوجي وكتبنا هذه الورقة، ثم دفعت إليّ بورقة كبيرة يعلوها خط جميل معتنى به، كان فيها: في مثل هذا اليوم الأغر وقد أشرقت الشمس واخضر الشجر وغردت الطيور وفاحت العطور إلى نهاية هذه الديباجة المقرفة من قرون التخلف.

التفتُّ إلى العائلة وسألتها: بالطبع وأنتم ترسلون هذه الورقة تعلمون أنكم تكذبون؟ أجابت بعفوية وبشيء من الاستحياء: نعم، تابعت بسؤال آخر: ولكنكم في قلوبكم تلعنون؟ ابتلعت المرأة ريقها وقالت بتردد: نعم. قلت لها: أليس بالإمكان أن لا تكذبوا ولا تلعنوا؟ صاح بها زوجها: ويلك إنها غلطتك يا حواء فلقد أغريتني أن آكل من الشجرة المحرمة، ولكن كلاً

منهما لم يفعل ما فعل آدم وحواء فيقولا بخشوع: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾.

ولي صديق ما جاءني مرة إلا تحدث عن الأوضاع السيئة، فلما قرأت عليه تحليلاً ينتقد الأوضاع أصيب بالرعب وأحس أنه يشارك في الإثم فقد يُسأل عما سمع ولم يُبلغ عنه! واجتمعت برجل ثقيل من أهل الفكر كان الشباب يصغون له بخشوع وهم يُسجِّلون فكان يوقفهم المرة بعد الأخرى وهو يقول: الآن سأتكلم كلاماً خطيراً فلا تسجِّلوا، وإذا بالكلام سجع الشعراء وزمع الكهان.

هذه القصص تروي مشكلة الإنسان المريض الذي يصوت بنسبة ٩٩٪ كما يجري في باكستان وتونس في ربيع ٢٠٠٢م لتغيير الدستور والتصويت الرئاسي، ويقف الإنسان حائراً يفكر في طبيعة المرض الثقافي الذي ينتج مثل هذا الإنسان المشوه كما يحدث في الأخطاء الجنينية، ففي الوقت الذي يتقدم العالم إلى وضع الملكية الدستورية وتحديدها ومحاسبتها أو التفكير الجدي بإلغائها، نمشي نحن إلى الخلف لتوليد ملكيات فات وقتها، في أوطان تمشي على رأسها بدون أن يشعر المواطن بالدوار.

كان الناس قديماً يحارون في الطاعون عندما يضرب فلا يعرف الناس كيف جاء ولا كيف ذهب؟ وكان أحدهم يبكي وَيُقَبِّل المريض فيأخذ العدوى ويلحقه إلى القبر بعد أيام، وفي عام ١٩١٨م انتشرت الأنفلونزا في أمريكا فقضت على ٥٥٠ ألف نسمة ومات في الكرة الأرضية من العدوى ثلاثين مليون إنسان، ولم تكن الفيروسات معروفة يومها بسبب عدم وجود المجهر الإلكتروني، كذلك الحال في الأوبئة الاجتماعية التي تفتك بالعالم العربي وتتحول إلى أمراض متوطنة، فهذا المرض يتواتر في حلقة جدلية معيبة بين وسط مهيأ وجراثيم فتاكة تهدم الجسم بتسارع لتدخله في اختلاطات جديدة، فالنزف الشديد يقود إلى صدمة الكلية فيكون المريض في ورطة فيصبح في اثنين.

وعندما يمرض الإنسان يصبح مؤهلاً لأمراض جديدة، و﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾. وهو مرض لا علاقة له بالسياسة وإن كان يفسد السياسة، فأن يتأخر الإنسان عن موعده، أو لا يتقن عمله، أو يرمي بالقاذورات على الأرض مع وجود الحاوية على بعد أمتار، أو يملأ صناديق الفاكهة «حشفاً وسوء كيلة» من الأسفل وعلى السطح يضع الجيد، يعني أن هناك مرض مستفحل يضرب في أرض عطنة تفوح برائحة كريهة.

وقبل خمسين سنة لم تكن ظاهرة الرشوة تطفو على السطح، واليوم ـ وفي مساحة لا يستهان بها من العالم العربي ـ لا يمكن إنجاز أي شيء بدون رشوة وبشكل مفضوح، فقد ضاع الحياء ومات المواطن وفقد حس الدفاع عن وطن يستباح من مفرق رأسه حتى أخمص قدميه. ولا يعني هذا أن كندا أو ألمانيا لا يوجد فيها رشوة بل هي أمراض وبائية تكافح بسرعة بلقاحات من الوعي ومن خلال صحافة حرة مثل مكافحة الحمى الشوكية، أما عندنا فهي أمراض فظيعة تعس في مفاصل جسد انهار فيه الجهاز المناعي.

وهذه رؤية تشاؤمية ولكن كما يقول الفيلسوف (نيتشه): إن التشاؤم نذير الانحطاط، كما أن التفاؤل علامة السطحية في التفكير وقصر النظر، أما التفاؤل الحزين أو التفاؤل في المأساة فهو صفة الرجل القوي الذي ينشد شدة التجربة واتساع مداها، وهو الذي دفعه لإنتاج كتابه (مولد المأساة من رحم الموسيقى).

هذا الإنسان المريض هو الذي شكل الاستعداد الخفي لوقوع مأساة حرب حزيران، والمرض لم يرتفع بعد بل زاد استفحالاً.

ديكتاتورية الأوهام

الوهم لا يعني الحقيقة، فهذه حقيقة أولى، ولكن هذه الحقيقة وهم، فليس هناك أكثر استبداداً من الأوهام بعقول الناس.

وأوحت إلينا الثقافة أن من يمشي في المقبرة ليلاً يرتعش خوفاً مع أنها أكثر الأماكن أمناً، ومن يرقد فيها ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

ويُعلَّم الطلاب في المدارس أن المخابرات مثل ملائكة العذاب منكر ونكير. ويعتقد كل مؤمن على ظهر البسيطة أن دينه أفضل الأديان، وأنه اعتنقه بعد طول تفكير واختيار لا مجال لذرة إكراه فيه، وأن الآخرين لهم سوء الدار.

وأتذكر من طفولتي عندما كانت تروي جدتي عن اليهود الموجودين في حارتها كيف كانوا يكفنون الميت فيلفونه بشاش طويل، ومع كل لفة كانت النادبة تصيح: اشهدوا إنه لم يخرق الشريعة الموسوية، اشهدوا أنه ما أطاع مسلماً، ونحن في ثقافتنا بالمقابل كنا ننطق جملاً لا نفكر فيها فمن يجرح إصبعه كنا نتندر عليه ونقول: أصيب بهذا يهودي فمات.

والقرآن يذكر هذا الصراع المرير بين أهل الكتاب أن الجميع يفترضون أنهم أبناء الله وأحباؤه، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾. والمسلمون اليوم يقولون: ليست اليهود ولا النصارى على شيء، ويرجع القرآن المرض إلى طبيعة المرض الواحدة ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

والمسلمون هم أهل كتاب وليس عندهم حصانة ضد أمراض أهل الكتاب ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾، فهذا اللون من التصور يقع فيه الجميع فيظن (الشيوعي) أن الجدلية المادية هي التفسير (العلمي) الوحيد للتاريخ.

ويرى (فوكوياما) في كتابه الجديد عن الثورة البيولوجية أنها (نهاية الإنسان) بعدما ختم على التاريخ في كتابه (نهاية التاريخ).

وفي الصين كان قدم الطفلة يربط بحيث تحافظ على طول عشرة سنتمترات فهي أشهى للرجل وأسرع في الزواج فلا تقدر على المشي بقية حياتها.

وفي الريف تقتل الفتاة الخاطئة دون الذكر بيد أخيها وأبيها بشريعة الفحولة أكثر من العدالة وبنص من الواقع يلغي نص القرآن بالمساواة في العقوبة للجنسين.

وفي العالم الثالث تُرفع أصنام كثيرة لبشر فانين اعتبروا آلهة يملكون الموت والحياة والوظيفة والرزق. ومن صفّق في المظاهرات ليس غبياً ولا ينقصه الذكاء والفهم بل هم بشر مثلنا استولى على عقولهم أن هؤلاء الزعماء مفاتيح التاريخ.

ولو سألت أحدهم عن عصمته لقال: إنه الزعيم الملهم الذي أتى بعد الإسكندر الأكبر وقورش العظيم ولن يأتي رابع بعده مثل رابع المستحيلات في أمثال العرب، عندما لا نفهم كيف يعمل المجتمع في صناعة الفرد تزيغ عنا الحقيقة فتغتالنا الأوهام، فالمجتمع يعطينا اللغة فيحجرنا فيها، ويعطينا الجينات فتصبغنا بصبغتها، ويخلقنا بشراً فنتعلم النطق وبدونه نتحول إلى أسوء من الذئاب، ومن المجتمع نمتص الدين فنتسربل به وتلبسنا العادات لبساً، وتتشكل التقاليد وفق آليات تدمدم في ظلمات اللاوعي، ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ

وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾، ومن يولد في طهران يجب أن يكون شيعياً أو شيوعياً، ومن يولد في نجد ربما كان سلفياً أو علمانياً، فحيث التطرف يولد التطرف المضاد، وعندما اشتدت الرهبنة في أوربا انفجرت الإباحية ومعها الإيدز، ومن يولد في التيبت يكون في الغالب من جماعة (الدلاي لاما) يلبس الأصفر ويقرع الصنج يحرق البخور لبوذا.

وربما هناك بعض الشذوذ عن هذه القاعدة في الغرب بسبب تحرر المجتمع من أصفاد التقليد فيغير الإنسان دينه كما يخلع ملابسه وربطة عنقه.

وعندما وقع (كات ستيفن) المغني البريطاني في الماء الباردة فاستيقظ ضميره واطلع على القرآن فغير دينه، فإن الناس في الشرق يقعون يومياً في المياه الحارة والباردة ويمرضون كل لحظة بأفظع الأمراض فلا يغير أحدهم دينه لسببين: تحنط الثقافة والخوف من القتل بتهمة الردة. ومع أن الإسلام نظام حيوي ويعتمد حرية الفكر اعتناقاً وتركاً، ولا إكراه في الدين دخولاً وخروجاً، إلا أن الثقافة عندها قدرة أن تمحو أي كتاب بدون طمس رسمه وتضع كتاباً جديداً من حيث لا يشعرون، ويطرح الوردي تساؤلاً خطيراً فيقول: لو كان أحدنا زمن النبي ﷺ وهو يتعرض للضرب بالحجارة في الطائف أين سيكون موقعنا هل مع الضاربين أم المضروبين؟ إنه سهل أن نقول اليوم: فداك نفسي يا رسول الله، ولكن رسول الله في ذلك الوقت لم يكن رسولاً في نظر غالبية المجتمع، بل صابئ وكاهن ومجنون وساحر وشاعر نتربص به ريب المنون.

المرض العضوي والمرض السياسي

المتأمل لأوضاع العالم العربي يجب أن يضحك وإلا مات غماً أو فكّر في شنق نفسه، فالضحك يهدئ الأعصاب ومفيد في الكارثة السياسية وإن كان يقترب من حافة الجنون حينما يواجه الإنسان أوضاعاً لا تدعو للضحك بل البكاء، ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾﴾؟

ففي بلد عربي يتم تغيير الدستور ويُفَصَّل، وينضغط مثل إدخال الترمومتر إلى طبقة جليد في بلاد الأسكيمو، أو أن يوضع في صحراء عربية تغلي ويمط الدستور مرة ثانية على مقياس يليق برجل عملاق من بقايا ذي يزن فيدفع عمر المرشح إلى ما فوق سن التقاعد حيث يضرب الهرم والشيخوخة ومرض باركنسون فيقفز إلى ما فوق ٧٥ فهرنهايت. ومرة أخرى يبدل الدستور وعلى المقياس وبمساعدة وعاظ السلاطين وتحت أعين أجهزة الأمن بحيث تخرج النسبة ٩٩ فهرنهايت كما يضبط مسار سفينة فضائية تشرف عليها وكالة ناسا لارتياد الفضاء.

وكل خياطو العالم العربي منهمكون هذه الأيام لتفصيل بدلات ملوكية تليق بأصحاب العظمة. وفي الوقت الذي يودع العالم الملوك والأنظمة الملكية يدلف العالم العربي تحت هذا المزراب، مما يؤكد أننا نعيش عصر ما قبل الثورة الفرنسية وانقلاب مارتن وما زلنا مجمدين في الزمن عند الرقم ١٤٢٣ ميلادي، وفي مثل هذا العام كان يحكم فرنسا (كارل السادس) الملقب بالمجنون وحكم بريطانيا (هنري السادس) وعمره تسعة أشهر! وفي

عام ١٤٢٩م أحرقت (جان دارك) مُمهدة الطريق لحرب الثلاثين عاماً فاحترقت كل أوربا في حريق عارم، وكل المؤشرات توحي بأن الجمهوريات في العالم العربي هذه الأيام حبلى بأجنة مشوهة كما حصل مع تعاطي عقار التالوميد فأخرج أطفالاً بدون أيدي وأذرع، في الوقت الذي تعمنا البهجة ونحتفل بلبس الحلة الملوكية وانتظار ولادة ملك جديد بدءاً من أرض بيبي الثاني وانتهاء بملكة ذات الهمة وحمزة البهلوان ودولة بني حمدان.

وخلال العقود القادمة سوف تلمع أسماء كوكبة من الملوك الجدد في سماء العالم العربي بأشد من الشعرى اليمانية بأسماء الأول والثاني والسادس عشر.

هل يضحك الإنسان أم يبكي؟ ولكن لو سالت دموع أحدنا بقدر نهر دجلة والنيل الأزرق فحقائق الكون ماضية في سنتها والأيام حبالى بأحداث جسام، والسؤال: لماذا يحدث ما يحدث في وطن يمشي إلى الخلف ويرجع إلى عهد السلاجقة والبويهيين؟

لا بد من الاستعانة بعلم الأمراض العضوية كي نفهم ما يحدث في عالم السياسة؟ فالصحة والمرض ليست أوضاعاً استاتيكية بل أوضاعاً ديناميكية، ويعرف الطب أن انحراف المزاج من الصحة إلى المرض هو بسبب خلل في توازن معقد بين الجهاز المناعي في البدن والهجوم الجرثومي من الخارج، ولكن انكسار التوازن يحدث تالياً لانهيار الجهاز المناعي، ويتصرف البدن حيال الأزمة المرضية إما بمكافحة جرثوم يعرف تقنيات المصارعة معه ولكنه يضعف فيقتحم الجرثوم الحدود إلى الداخل مثل يأجوج ومأجوج فهم ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾. وإما بهجوم غادر من فيروس غامض الطبيعة لم يتعرف عليه البدن من قبل فيسقط أمامه بعدم الاستعداد المسبق.

وكلا الآليتين تجتمعان في النهاية في آلية واحدة بضعف الاستعداد أو عدم الاستعداد، وبالتالي انهيار الجهاز المناعي، كما حصل مع اجتياح مصر القديمة بجنود الهكسوس في الألف الثانية قبل الميلاد عندما فاجؤوا الحضارة الفرعونية بآلة الحرب الجديدة المكونة من العربة والحصان، فلم يكن أهل النيل يعرفون العجلة الحربية وبنوا أشهر أهراماتهم بعبقرية هندسية وعضلات بشرية.

ومبدأ إعطاء اللقاحات ضد شلل الأطفال والجدري يقوم على نفس التكتيك بإدخال فيروس مضعف أو مقتول فيغالب الجسم ميتاً أو شبه ميت بكل الاستعداد فيتدرب كما يضرب الملاكم دمية القطن. وبالمقابل فإن الصحة هي مقاومة الجهاز المناعي بالتعرف على مواطن ضعف الخصم والقضاء عليه.

والمضادات الحيوية في الطب ليست هي التي تشفي بل هي أداة في هذه الحرب الطاحنة أي وسائل مساعدة للجهاز المناعي لإضعاف الجراثيم بلجمها فيبتلعها في مواجهة ساخنة يغلي منها البدن بالحرارة.

ويلحق بهذه الآلية شيء أخطر هو تداخل المرض مع الاختلاط، أي أن المرض يقود إلى مرض جديد، ويتعاون الاثنان في إرباك البدن والمزيد من إضعافه ودفعه إلى حلقة جديدة من استحكام حلقات المرض، مثل اجتماع السل مع السكري، والنزف وقصور الكلية.

وما يحدث في عالم السياسية يشبه ما يحدث في العالم العضوي، فالعالم العربي مصاب بنفس المرض مع اختلاف الدرجة. ففي بلد عربي يترافق الاستبداد مع المرض العشائري، وفي بلد ثاني تلتحم العسكرتارية مع الطائفية، وفي بلد ثالث يتعانق الجبت مع الطاغوت أي السياسي مع الديني في زيجة حرام، و﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

الاغتيال في الإسلام

في نقاش حامي الوطيس قال لي أحد المتشددين: لقد مارس الرسول ﷺ الاغتيال السياسي فماذا تقول؟ قلت له: الواقعة صحيحة وموجودة في صحيح البخاري فقد تم اغتيال كعب بن الأشرف، ولكن من يدخل قاعة العمليات ويرى الجراح وبيده المشرط وهو يشق بطن المريض قد يقع على الأرض مغشياً عليه، وهذا يعني أن أي واقعة يجب أن تفهم ضمن شروطها وإلا كان القتال في الإسلام مثل ممارسة الجراحة في سوق الخضار، وفي العصر الفرعوني كانت الجمجمة تُفتح بإزميل ومطرقة، كما أن القراصنة كانوا يقطعون ساق المصاب بالسيف بعد جرعة كبيرة من الخمرة وضربة على الرأس ثم يغمس الطرف بالزيت المغلي، وفي تشريعات حمورابي كان الطبيب الذي يُخطئ بحق المريض يُقتل، واليوم تُقطع الساق بدون ألم وتحت التخدير العام، ويفتح الجمجمة روبوت بدون جراح، ونشأت نظم قانونية لحماية المريض والطبيب من المضاعفات، وفي الأول من تموز (يوليو) ٢٠٠٢م نشأت محكمة عالمية وقَّعت عليها أكثر من ستين دولة في العالم سيتم بموجبها القبض على أي مجرم ولو كان رئيس دولة أو رئيس فرع مخابرات يستجوب الناس بتعذيبهم.

وكما أن الجراحة تجري ضمن أشد الشروط التعقيمية صرامة كذلك يجب معالجة مشكلة القتال في الإسلام ضمن شروط فكرية معقمة لأبعد الحدود، وإلّا تحولت الجراحة إلى قتل والجهاد إلى إرهاب، ومعنى هذا الكلام ثلاث أشياء: فهم ما هو الجهاد؟ وبكلمة أدق (القتال) في الإسلام،

وشروطه، ومن يمارسه وضد من؟ والأمر الثاني طبيعة الرحلة البشرية، والثالث: كيف نفهم تصرفات الرسول ﷺ مثل إعدام ٨٠٠ شخص من اليهود بعد معركة بني قريظة بتهمة الخيانة العظمى.

فأما (القتال) في الإسلام فهو غير (الجهاد)، والجهاد هو استنفار الجهد لفهم وتمثل الإسلام. أما القتال فهو لرفع الظلم وليس لنشر الإسلام، وقال الرسول ﷺ عن حلف الفضول للدفاع عن المظلومين: «**لو دعيت له في الإسلام لأجبت**»، والجهاد في الإسلام هو دعوة لإقامة حلف عالمي لرفع الظلم عن الإنسان أينما كان ومهما دان، ولو بالتعاون مع الكافرين (العادلين) ضد المسلمين (الظالمين).

والقتال في سبيل الله ليس (آلة) بيد جماعة أو تنظيم أو حزب يرتب لاغتيال رؤوساء الجمهوريات أو تدبير انقلابات عسكرية كما فعل الترابي في السودان بدعوى أننا إذا لم نتغدى بهم تعشوا بنا. وكان حظ الترابي عظيماً أنه ما زال يحافظ على رأسه بعد أن انقلب عليه من انقلب معه على آخرين.

وطريقة الأنبياء في صناعة السياسة والحكم والمجتمع تتم من خلال تغيير المجتمع سلمياً، ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وإذا فهمنا هذه النقطة اقتربنا من حل المشكلة وهي أن الإنسان لا يقتل من أجل رأيه بل من أجل ممارسته القتل.

وعندما تم اغتيال كعب بن الأشرف فيجب فهم ذلك أنها جاءت ضمن حرب مستعرة بين طرفين فيها قتل وقتال، مثل حرب الاستخبارات بين روسيا وأمريكا يسقط فيها ضحايا بين حين وآخر. وإسرائيل قامت باغتيال علماء ذرة عراقيين، ولم يكونوا بخطورة رجال فروع أمنية يخططون للقضاء عليها، مع هذا فإن الإشكالية لا تحل كلية بين التصور لعمل استخبارات وعمل نبيّ، وهذا ينقلنا إلى الشق الثاني من البحث وهو أن الرسول ﷺ في

ممارسة معينة كان يمارس نشاطاً إنسانياً مناسباً لظروف تخصه، وما يصلح في وقت لا يصلح في وقت آخر ومكان مختلف وأقوام جدد.

ولو بعث في عصرنا لتصرف أمام نفس الواقعة على نحو مختلف، وهذه النقطة لا يفهمها المتشددون فيخطئون ثلاث مرات:

١ ـ بمحاولة اغتيال رؤساء ومسؤولين وضرب الأبراج في نيويورك تحت هذا المسوغ.

٢ ـ والغفلة عن (علل) النصوص الذي يجعلنا نطبق في مكان ما نمتنع عن تطبيقه في مكان آخر.

٣ ـ وعدم الانتباه إلى تطور التشريع. واليوم تتراجع الجراحة كلية ولم نعد نشق بطن المريض بل نعالجه بثلاث ثقوب بسيطة. كما أن فهم علل الأمراض قد يجعلنا في المستقبل نستغني عن الجراحة، وهذا ليس انتقاصاً من قدر الجراحين أيام الفرعون بيبي الثاني أو زمن صلاح الدين الأيوبي الذين عالجوا السلطان المصاب باليرقان بالفصادة فقضوا عليه، كما أن الصحابة في جرح الصحابي سعد بن معاذ في الشريان الأبطي عالجوه بحرق حصيرة ثم وضعوها فوق الجرح وكان هذا أفضل شيء يومها، واليوم تقوم الجراحة بإعادة تصنيع الشريان بعملية بسيطة.

وإذا فهمنا هذه التطبيقات الطبية فإنها قد تنفعنا في فهم علاجات اجتماعية مثل حادثة الخندق واغتيال كعب بن الأشرف وأنها كانت وقائع عادية يومها، وتنقلب إلى ممارسة مختلقة لو جاءت في زماننا الحالي. وهو فهم قد ينفع فيمن يسمح لعقله بالحركة، ولكنه لا يفلح أبداً في إدخال القناعة إلى عقل إنسان متشدد يقرأ النصوص بعيون الموتى، ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾.

الاستعمار والقابلية للاستعمار

مدخل لفهم السيكولوجية الاستعمارية

جاء في كتاب (العبودية المختارة) الذي كتبه (إتيين دي لا بواسيه) عام ١٥٦٢م أن أثينا أرسلت اثنين من رسلها إلى فارس فلما دخلوا الحدود استقبلهم الوالي هناك فأطعمهم وأكرمهم ثم قال لهم: لماذا لا تتحولوا إلى عبيد سيدي الشاهنشاه. نظر الرجلين بتعجب لعرض الفارسي الذي قدمه بكل حرص وسخاء، وقالا له: إنك لم تذق طعم الحرية بعد، ولو ذقتها لقاتلت عنها بأظافرك وأسنانك.

وعندما كان (جوزيف ويلسون) القائم بأعمال السفارة الأمريكية في بغداد أثناء عملية درع الصحراء يسلم على طاغية دجلة قبل مغادرة بغداد تَقصَّد الثاني أن يمد يده على طريقة الجبارين فينحني ويلسون لكي تظهر الصحافة الإنسان الأمريكي منحنياً والطاغية منتصباً بما يعكس العلاقة النفسية بين الطرفين ولكن الأخير حرمه من هذه المتعة.

وهذه اللقطة تدخلنا إلى فهم سيكولوجية الاستعمار و(القابلية) للاستعمار، وعندما يستعمر طاغية بغداد أهل بغداد فلأن (الاستعداد) موجود عند أهل بغداد، وهو ليس مرض أهل بغداد لوحدهم، والاستبداد السياسي يحكي امتداد الاستبداد الديني، والحاكم السياسي اليوم تلفع بعباءة شيخ الطريقة الصوفية يلعب بالمسبحة والأمة معاً، والطغاة في العالم العربي كثيرون لا نفرق بين أحد منهم، وهم بعوض من مستنقع واحد، وفي صدر كل واحد منا فرعون يتربص فرصته كي يتحول إلى فرعون ما لم يحقن

بمصل التخلص من قابلية الاستعمار، وهذا المرض ثقافي وليس سياسياً، والسياسي هو ابن المثقف رضع وفطم على يديه، وصدام هو التوأم النحس الذي ولد من رحم واحدة على يد قابلة اسمها عفلق، وهذا المرض أنتج إنساناً سماه (مالك بن نبي) (إنسان ما بعد الموحدين) ويقصد بها فترة الانحطاط التي بدأت منذ مطلع القرن الخامس عشر للميلاد بعد حكم الموحدين في المغرب.

إذا اجتمع رجلان على تلة فأشار أحدهما بعصاه إلى القمر فلا يعني هذا أن عصاه أصبحت قمراً منيراً، وإذا اجتمع أهل قرية على مريض فإنهم يدركون أنه مريض ولكن هذا لا يعني أنهم شخصوا المرض فضلاً عن علاجه، وإذا كان شعب ما لا يرزح تحت العسكر الأجنبي فهذا لا يعني أنه مستقل، واختلاط العصا بالقمر والمرض بتشخيص المرض والاستقلال بالاحتلال يعكس تماماً مشكلة (الاستعمار) و(القابلية) للاستعمار، وهنا يجب النظر إلى المسألة في ضوء علم النفس والاجتماع.

وعندما انطلق (غاندي) في مسيرته لتحرير الهند أدرك طبيعة المرض ولذا لم يشأ أن يغير الاستعمار (البريطاني) بآخر (هندي) كما تريد المعارضة العراقية هذه الأيام أن تستبدل الاستعمار (البعثي) باستعمار (أمريكي).

ومن يريد أن يتخلص بقوة السلاح يقع رهينة السلاح، وأفغانستان استخدمت السلاح فنقلت ملكيتها من يد الروس إلى يد المجاهدين الأمريكيين ثم إلى يد دولة تافهة تابعة للبنتاغون، وكل قوة تزيل قوة تجلس محلها لا تزيد الأمور إلا سوءاً، وكل(لا شرعية) تزيل (لا شرعية) لا تولد معها أي (شرعية). وهناك من يريد احتكار اسم الله في حزبه والله غير حزبي ولا يعترف بالأحزاب والمتحزبين ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، فهذا قانون وجودي وصيرورة تمسك بجنبات الكون والتاريخ.

إن الشعب الذي يعاني من مرض (القابلية) للاستعمار يحمل (متلازمة Syndrom) ثلاثية كما في الأمراض:

فهو **أولاً**: قد يستعمر من الخارج وقد لا يستعمر حتى تتهيأ ظروف انطوائه تحت جناح الاستعمار، فمصر وقعت في قبضة بريطانيا ولكن اليمن بقت بمنأى عن ذلك المصير ولم يكن يعني أن اليمن كانت مستقلة، وكل بلد يحمل هذه العلة يخضع للقوة ويمكن مصادرته بيد الطواغيت الصغار المحليين كما يمكن احتلاله من الطواغيت الكبار الاستعماريين.

وهو **ثانياً**: مرض عام يتخلل كل المستويات الاجتماعية يظهر ذلك بين الموظف والمراجع والمرأة والرجل والطفل والأستاذ، ومنظر الشرطي وهو يصفر لقائد السيارة وكيفية اقترابه منه في مشية الغوريلا مباعداً بين رجليه رافعاً بطنه للأمام ورقبته للخلف وقائد السيارة المضطرب الممتقع الوجه الذي يتزلف بالكلمات والرشوة والحلف بأغلظ الأيمان يفتح عيوننا على الواقع الاستعماري اليومي.

وقصة (الأحكام العرفية) هي رواية بئيسة مترجمة عن قصة الاستعمار، ويمكن لتقرير من مخبر سري أن يقود لإلقاء القبض على مواطن استعمل الأنترنيت ليتبادل مقالة كتبها (روبرت فيسك) بعنوان العرب كالفئران، في جو حضانة من المخابرات تسهر على تدجين وعي المواطن أن يعيش على شكل حياة نباتية فعلى المواطن أن يفتح كتاب النبات فيقرأ وظائف النبات ويحفظها عن ظهر قلب مثل: هل يتغذى النبات ويتكاثر؟ الجواب: نعم إذ يقوم هو بتناول الغذاء ويتناسل ويفرخ مزيداً من العبيد، ومثل هل يتحرك النبات أو يفكر؟ والجواب. . . لا. . . وعلى المواطن (الصالح) أن يتخذ النبات قدوة فلا يسمح لعقله بالتحليل أو النقد، ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

لقد تحول العالم العربي في كثير منه إلى مزارع رائعة لأقليات من وحوش الغابة بحيث يمكن القول بدون مبالغة أنه لا يوجد أي ضمانة لأي إنسان أو شيء في أي مكان أو زمان مثل أبواب جهنم السبعة التي تفتح أبوابها فتستقبل مواطناً فقيراً ومسكيناً وأسيراً، ويحرسها رجل المخابرات العتل الزنيم.

وهو **ثالثاً**: تشظي وتراكب في الفرد في نفس الوقت، مثل الدكتور (جايكل وهايد)، أو مرضى الشيزوفرينيا، أو الأمراض الجنسية فهو سادي ـ مازوخي بنفس الوقت، ويعتبر (الوردي) أن المجتمع العراقي مصاب بثلاث أمراض: (ازدواجية الشخصية) وصراع (الحضارة ـ البداوة) وثالثاً (التناشز الاجتماعي) فهو مجتمع أنبت الحضارة وابتلي بروح البداوة، وهو يريد أن يجمع حيث لا يمكن الجمع بين (الوساطة) وروح (المساواة)، وهو يطالب بأقصى حقوقه ولا يقوم بأبسط واجباته.

إن الذهنية الاستعمارية حالة (مركب) يضم (الاستعمار) و(القابلية للاستعمار) كما في الأمراض النفسية، فالمستكبر هو مستضعف في أعماقه، ويمكن أن ينقلب المستضعف إلى مستكبر حال وضع يده على القوة، وأكبر طاغوت هو في أعماقه أحقر صعلوك. ونحن نعرف أن الفيلم (المحمض) الملون والزاهي هو نسخة عن (الأسود) القاتم غير الواضح. وحقيقة الفيلم واحدة، وبتعبير القرآن فإن ملة المستكبرين والمستضعفين واحدة. فمن ملك القوة تحول إلى إله ومن سحبت منه القوة تحول إلى عبد، فهذه العلاقة من (الألوهية ـ العبودية) مادتها القوة وهي بالتالي إعلان لنهاية وموت الإنسان، والأنبياء جاؤوا لتحرير الإنسان وإعادة الوعي من المنفى والإنسان من الموت إلى الحياة ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾.

واليوم فإن بوش وصدام يمثلان وجهي هذه العملة المزيفة، وحتى

يظهر موسى يجب أن يمارس السحرة دورهم فيسحروا أعين الناس ويسترهبوهم بالانتخابات المزيفة ومجالس القرود الشعبية ورعب الأجهزة الأمنية.

يروى عن حسني الزعيم أحد مغامري الانقلابات في الخمسينات في سوريا أن وفداً من أعيان دمشق أراد زيارته لمراجعته في بعض الأمور فدخلوا عليه فتظاهر بأنه يصيح عبر التلفون: إذا لم يمتثل للأمر قوموا بإعدامه فوراً. ثم التفت إليهم وقد ابيضت وجوههم فزعاً، وقال: أهلاً بكم جميعاً ماذا أستطيع أن أفعل لكم، قالوا: عفواً نحن جئنا فقط لنبارك لك العهد الميمون ونتشرف بلقاء شخصكم العظيم، قال لهم: (يعطيكم العافية) انصرفوا إلى قومكم راشدين مع السلامة، ثم التفت لمن حوله بعد انصرافهم وهو يضحك ملء شدقيه: شعب مثل هذا يناسبه حاكم مثلي. (هيك شعب بده هيك حاكم).

إن المثقفين يتصارعون ويصيحون في المحطات الفضائية ليختاروا أي زعيم يلبسوه ثوب الخيانة، ويبقى الداء خفياً، ويطلق سراح المجرم الأساسي (المثقف) ببراءة كاملة.

امبراطوريات الأجهزة الأمنية

يشكو العرب من ظلم الأمريكان واضطهاد الصهاينة ولكن المتأمل في الأوضاع يكتشف أنهم يظلمون أنفسهم أكثر من كل ظلم العالم لهم، وأن رؤيتهم للتاريخ مقلوبة، وهم مستعدون لاتهام كل الأنام على أن يكتشفوا أن من يُعتقل في جوانتانامو محظوظ مقابل من يسلم لاستخبارات بلده، فالمواطن قبل أن يأخذ الثانوية العامة يجب أن يحظى بزيارة فرع أمني فيتلقى من العذاب كفلين، وقد يموت المواطن وعمره تسعون عاماً يُحمل على النعش وبحقه قرار أمني بعدم مغادرة الوطن، وفي المطارات أدراج عملاقة غاصة بأسماء عشرات الآلاف من المطلوبين والممنوعين من السفر ولأكثر من جهاز أمني، وبين المهد واللحد ليس هناك من مواطن إلا وطُلب للتحقيق وأكثر من مرة ولحساب أكثر من فرع أمني ولو كانت عجوزاً محدودبة الظهر أو بنتاً ناهداً في عمر الورد وطهارة السحاب، أو اعتُقل فكُسرت عظامه وأسنانه فخرج يمشي على بطنه مثل الزواحف، أو من أُخذ شاباً لا أحد يعرف السبب بمن فيه المعتقل نفسه فلم ير أمه وأولاده إلّا بعد ضغط منظمات حقوق الإنسان من الخارج وبعد ربع قرن من الزمن ولزيارة واحدة ليفاجئوا برؤية شيخ وهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً.

الجهاز الأمني باختصار هو كل شيء، وهو عليم بكل شيء. وضابط أمن صغير في الجيش يرتج في حضرته جنرال، ورئيس الفرع هو الذي يبت في مصير من يدخل الجامعة ويحتل المنصب وفي أي وظيفة يُقبل ومن يشتري العقار ويفتح الدكان، وعنصر الأمن في الحارة احتل منصب ساحر القرية فهو يتكهن بمن يعتقل وعلى أي بيت ستنزل صاعقة.

إنها عبقرية نخاطب فيها أمريكا أن تُرسل من يتدرب عندنا على مكافحة الأرهاب، وأهم شيء هو استتباب الأمن، ولو تحول الوطن إلى مقبرة يمشي فيها حارس واحد وحفار قبور وجثث تتوافد وقبور تبلع.

قبل أربعين عاماً كانت فروع الأمن محدودة العدد قليلة المُجنّدين لا يزيد حجمها عن بناية صغيرة، واليوم نَمَت الفروع الأمنية بأفظع من سرطان المعدة، وأكبر من ديناصور لاحم، وأعلى من (ألامباير ستيت)، وفتحت أبوابها بأكثر من أبواب جهنم السبعة، لتستقبل مواطناً صغيراً فقيراً ذليلاً، في فروع الخارجي والداخلي والعسكري وأمن الدولة والأمن السياسي، منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نَقصُص عليك.

والمشكلة في هذه الأجهزة الأمنية أنها تشبه قبائل البدو بثلاث فوارق:

أولاً: أن شيخ القبيلة الأمنية يلبس نظارة إيطالية ويزين صدره بربطة عنق أمريكية وتحته سيارة مرسيدس ألمانية ويلوح بيده سلكاً كهربائياً صينياً للضرب والصعق.

وثانياً: أن من يدخل في جوار شيخ القبيلة لا أمان له، ولو كتب له الشيخ كتاب أمان؛ لأن مضارب القبيلة غير مرتبطة بالجغرافيا، وكل الوطن هو مضرب شيخ أي قبيلة.

وثالثاً: أن هذه القبائل الأمنية في حالة حرب دائمة بينها فلا تعرف الأشهر الحرم ولا حرمة بيت وشيخوخة بل الكل يتنافس في اعتلاء ظهر مواطن لم يعد فيه مكان للركوب.

إنها تركيبة عبقرية كما نرى تُدرَّس في الجامعات الكندية في قسم العلوم السياسية كنموذج فذ لعبقرية عربية في ضبط الشعوب.

والنتيجة التي تتولد من نمو هذه السرطانات في الأمة أنها تصبح أجهزة رعب يجب فكها كما ذكر ذلك (فرانسيس فوكوياما) في كتابه نهاية التاريخ،

فزوجة (مولوتوف) انتهت في معسكرات الاعتقال، ونظرة سيئة من (ستالين) لأحد أعضاء المكتب السياسي كانت كافية أن يرتجف رعباً بقية حياته، وعلى يد (بيريا) مات ٨٠٠ ألف من أفضل مواطني الاتحاد السوفيتي، فلم يبق مواطن يدافع عن الوطن بل (ستالين) والعصابة.

والمفارقة في تركيبة الأجهزة الأمنية ثلاث:

أولاً: يظن الحاكم أن خلاصه بالإغداق عليها. وهي كما يقول المثل العربي: سمّن كلبك يأكلك، ومقتل القياصرة جاء من ضباط الحرس الإمبراطوري.

والثانية: أنها تمسك الناس بالرعب، وهي مرعوبة أكثر من الناس.

والثالثة: أن حماية شخص يحتاج إلى فرق حراسة شخصية ولكن حماية الحاكم من كل الشعب تحتاج إلى جيش كامل.

وفك هذا السحر يحتاج إلى كيمياء خاصة من ثلاثة عناصر:

أولاً: تدريب الشباب على المقاومة المدنية فليس أسهل من إطلاق الأجهزة الأمنية بدعوى الأمن عندما تندلع أعمال العنف.

ثانياً: ممارسة العمل العلني وتوريط النظام في أكبر عدد ممكن من المعتقلين، وتفجير السجن من داخله، لأن النظام لا يمكن أن يعتقل عشر الأمة.

وثالثاً: أن تكون المحنة ضمن التحدي الملائم، وفي كثير من الأقطار العربية طحنت المعارضة بسبب أعمال العنف فلم تأت المحنة ضمن الوسط الذهبي، وحتى يعود الوعي من المنفى تسبح الأمة في بحر الظلمات بدون خريطة وبوصلة تسمع دمدمة جن الأجهزة الأمنية فترتعش فرقاً وتتصبب عرقاً.

الغذاء الفكري

من ملأ بيته بكتب السحرة تحول إلى ساحر، وعندما أدخل بيت أحدهم أعرف في أي فترة يعيش؟ فإن كانت الكتب مزينة الأعقاب بالذهب أعرف أنه يعيش أيام السلطان يعقوب أبو الصبر المستمسك بالله متجمداً في الزمن عام ١٤٩٨م.

ويخيل للبعض أنه إذا حفظ القرآن عن ظهر قلب لاحت له المقاصد الإلهية وهو زعم من يحفظ أسماء الأدوية في صيدلية عملاقة أنه أصبح محيطاً بعلم الطب والصيدلة معاً.

وكان محمد عبده حينما ينقل له خبر حفظ أحدهم للقرآن يعقب فيقول: زادت نُسَخ القرآن نسخة، ومع أن القرآن لم يشر بآية واحدة لحفظه فقد أشار في عشرات الآيات إلى تدبر معانيه، ولكن المسلمين حريصون على النقل أكثر من العقل محولين المجتمع إلى متحف شمع من طراز (مدام دي توسو).

وعندما ضرب الطاعون لندن عام ١٦٦٥م قضى على سبعين ألفاً من أصل ٤٠٠ ألف من السكان فلم يعرف الناس كيف جاء ولا كيف ذهب، وكان أهل المريض يبكون عليه ويقبلونه فيصابون بعده بأيام ويلحقونه إلى عالم أنوبيس السفلي، والذي كشف المرض كان (يرسن) وبيده ميكروسكوب، ويعالج اليوم ببضعة غرامات من المضادات الحيوية.

ليس العبرة أن يقرأ الإنسان مائة كتاب أو ألف كتاب بل ماذا يقرأ؟ فمن يقرأ في الفكر القومي يخرج متعصباً مغلق الاتجاهات، ومن يقرأ في

فقه الحصفكي والإسفراييني يخرج من فقهاء عصر السلطان قلاوون من المماليك البرجية، ومن يعتاد التصفيق في المظاهرات في عبادة الأصنام أحياء وأمواتاً يشبه من يواظب على (حضرة) الصوفية والقفز فيها. وشيخ الطريقة الصوفية يُبايع إلى الأبد مثل حكام العالم العربي، فهذه من تلك.

ونوعية الغذاء الفكري هامة جداً في إنتاج نموذج الشخص فمن يواظب على قراءة الكتاب الأحمر يعبد (ماوتسي تونغ)، ومن يقرأ في (الكتاب الأخضر) يعتقد جازماً أنه وصل إلى الحل النهائي لكل مشاكل الجنس البشري، ومن يقرأ (أعمال الكنيسة) يتعصب لفكرة مركب الأقانيم فيظن أن الله انشطر إلى ثلاثة بدون أن ينشطر فيما تعجز الكنيسة عن شرحه، ومن يواظب على قراءة كتاب (المراجعات) يعتقد أن الشيعة هم أهل الحقيقة الواحدة بدون ريب، وأن الصحابة قاموا بانقلاب عسكري لحرمان أناس من سدة الحكم.

وإذا اعتاد الجسم على جرعات كبيرة من مادة النحاس يتعرض لتشمع الكبد، كما أن نقص الحديد ولو كان بكميات زهيدة تعرض صاحبها لفقر الدم، سنة الله في خلقه، لذا كان مهمّاً أن يكون الغذاء الفكري منوعاً وبكميات كافية، وهكذا يتم التعامل مع النبات والأرض والحيوان والإنسان والمجتمع فكثرة السماد تحرق التربة، ونقص الماء يميت كل الكائنات، وتجرع الكحول بكميات عالية يصيب المعدة بالقرحة والكبد بالتشمع، ومن أخذ جرعة هيروئين أصيب بالإدمان، ويرى (برتراند راسل) الفيلسوف البريطاني في كتابه (السلطان) أن أفضل طريقة لتربية الأطفال هي عرض الأفكار المتناقضة لأبعد الحدود أمامهم، والسماع من أشد المتطرفين ومن الجانبين، وتدريب عقولهم على استيعاب مسافات الفروق.

وصلاة الجمعة هذه الأيام تم اغتصابها من ثلاث مجموعات: وعاظ السلاطين وجماعات المتشددين وفرق التقليد. فأما (الوعاظ) فمهمتهم أن

يقولوا أن السلطان هو الرازق الوهاب بيده الوظيفة والحبس.

وأما (المتشددون) فهو يوقدون حروباً لا تنطفئ نيرانها ضد أكثرية أهل الأرض أن يزلزل أقدامهم ويقضي على عائلاتهم ويجعلهم غنيمة للمسلمين، في خطاب يتبرأ منه الله والملائكة والناس أجمعين.

وأما (جماعة التقليد) فهم ينصحون الناس بالصدق في الوقت الذي تدرس كتب التاريخ في المدارس الابتدائية بكل أنواع الكذب. وأن الزعيم انشق القمر حين ولدته أمه. والأفضل حرصاً على قواعد السلامة أن يدمدم بحديث السحرة فيتكلم كلاماً لا يوقظ نائماً ولا يزعج مستيقظاً، والأفضل للخطيب الحديث عن فواكه الجنة في الوقت الذي يركض المواطن كالحصان طول النهار كي يؤمن قوت عياله فوق حافة المجاعة.

ويبقى بين هذا وذاك من نجا من دوائر القتل الثلاثة فتكلم بالحق ووعى العصر ودعا بالمغفرة وتفاهم الناس ولكن مثله يعزل بسرعة بأشد من مرضى الإيدز.

كيف يمكن أن نغذي الفكر إذن؟ المشكلة ذات ثلاث عقد، كل عقدة أعلى من أعلى سور في استخبارات العالم العربي، فالعروبة وقفت أمام الانفتاح على اللغات العالمية، والتشدد المجنون أغلق العقول أمام الانفتاح على الثقافات الكافرة بزعمهم، وفي أتون الاستبداد السياسي تبقى قائمة الكتب المحرومة والممنوعة لا نهاية لها.

وبذلك يكبل عقل المواطن بثلاث سلاسل كل واحدة منها ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه.

راجَع مريض مرعوب طبيبه وهو يسأله بحرقة: يا دكتور هل مرضي خطير؟ هل تتوقع لي أن أعيش؟ أجابه الطبيب بهدوء: نعم ولكن لا أنصحك بذلك.

والمواطن العربي اليوم يعيش من أجل أن لا يعيش.

الأصول العشرة للتخلف

في الطب يعرف الأطباء شيء اسمه التناذر (Syndrom)، وهو مجموعة من الأعراض والعلامات إذا تزامنت عند مريض في وقت واحد قيل عنه أنه مصاب بالمرض، وينطبق هذا على المرض الاجتماعي فإذا اصطبغ بحزمة من الأعراض أخذ لقب التخلف، وهي عشر صفات:

١ ـ الأصل في (**الإنسان**) الإدانة.

٢ ـ والأصل في (**الوقت**) الإضاعة.

٣ ـ والأصل في (**الأشياء**) الحرمة.

٤ ـ والأصل في (**الأصوات**) القباحة.

٥ ـ والأصل في (**اللباس**) القذارة.

٦ ـ والأصل في (**العمل**) عدم الإتقان.

٧ ـ والأصل في (**العقل**) الجهل.

٨ ـ والأصل في (**المكان**) عدم البيان.

٩ ـ والأصل في (**المعاملة**) المقاتلة.

١٠ ـ والأصل في (**المرأة**) العزل والإهانة، فهذه سيمفونية رائعة تذكر بحفلة تعذيب في أقبية الاستخبارات.

١ ـ فأما (**الإنسان**) فهو متهم حتى تثبت براءته موسوم بالخوف يوم ولدته أمه ويوم يموت ويوم يبعث حياً. وحتى القبر حولته الثقافة إلى غرفة تعذيب

على يد منكر ونكير بدل الإيحاء للإنسان أنه قادم إلى رب رحيم كتب على نفسه الرحمة.

٢ ـ وأما (**الوقت**) فمواعيدنا بعد صلاة العشاء بما يمط الزمن حتى مطلع الفجر، وأما موعد الإنجاز فمعلق بكلمة سحرية: إن شاء الله، وهي مقلوبة من أصلها القرآني ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ بل يجب إنجازه اليوم.

٣ ـ ومع أن (**الأصل في الأشياء الإباحة**) إلا أننا حولنا الحياة إلى سلسلة من المحرمات، فأصبح أصل الأشياء الحرمة وتحتاج إلى رخصة مرور تحت القانون الميمي الثلاثي: ما في، ممنوع، ما يصير، في منظومة محرمات في أعلاها السياسة ولكن أليس كل الحياة سياسة، وأيهما أهم موضوع إطلاق اللحية أم آلية نقل السلطة السلمي؟

٤ ـ ومع أن الرسول ﷺ تأثر من جمال صوت أبي موسى الأشعري حين تلا القرآن، ولكن هناك من يرى أن هذا فتنة، ويجب إيقاظ الناس لصلاة الصبح بما يُرعبهم.

٥ ـ ومع دخول الحدود في بعض بلدان العالم العربي يواجه المواطن أربعاً: القلة والذلة والوسخ ويتنفس جزئيات الهواء عابقة برجال المباحث، وأمام مدرسة ثانوية تم قطع ست عشرة شجرة خضراء بدعوى الحساسية. ويلقي الشباب بالقاذورات ولو كان حاوي القمامة على بعد خطوات، وهناك حرص على نظافة البيوت داخلياً في الوقت الذي يبقى الشارع العام قذراً، فيما يشبه الانتقام من مجتمع لا ينتمي إليه الفرد. وكما يقول مالك بن نبي: الحضارة ليست بالغنى بل بالنظافة، ويمكن للفقير أن يلبس أسمالاً ولكنها نظيفة، فلا تفوح القذارة من الثياب ومن البدن رائحة التعرق. وهي لا تتطلب أكثر من الماء، وثيابك فطهِّر.

٦ ـ وعندما تسلم سيارتك للتصليح يجب أن تغش مرتين بعدم الإتقان وبهدلة الفرش بالشحم، فالنظافة لا دخل لها في العمل، ينطبق هذا على كل شيء، فإذا دخل العمال إلى البيت لإصلاح السقف تحول إلى مزبلة، وهل يعقل أن سداً كلف ملياراً وعمره لا يزيد عن ست سنوات أن يصاب بالشيخوخة وينهار كما انهار سد مأرب، ما يذكر بمرض البروجيريا فترى من عمره ثماني سنوات مقوس الظهر وكأنه ابن الثمانين يموت بانفجار الوتين، ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾، ولكن أي كفر هذا الذي حصل؟

٧ ـ وأما **(العقل)** فهو محاصر بأسوار من النقل، وأما الاجتهاد فكان حجراً محجوراً، وهو يفسِّر: لماذا كانت رياح الإنتاج المعرفي شمالية غربية، وليس من الشرق إلا رياح السموم، تدمر كل شيء بأمر ربها.

٨ ـ وأما **(المكان)** فحيثما سار الإنسان يجب أن يسأل؟ فالشوارع بدون أسماء والبيوت بدون أرقام، وإذا وضعت أسماء الشوارع زينها الموظفون بأسماء شخصيات متشابهة مما يجعل الناس تتفق على تسمية مِن عندها.

٩ ـ ومع كل نزول إلى الشارع يجب أن يكتب الإنسان وصيته، فقد تحولت الشوارع إلى ساحات حرب، وهي مؤشر عن أخلاق الإنسان الفعلية خلف مقود السيارة حينما يستوي على ظهره وبدل أن يقول سبحان الذي سخر لنا هذا من يد الأمريكيين والألمان، لا يُحسن استخدام ما تعب الآخرون في صناعته.

١٠ ـ وأما المرأة فقد وُئِدت على نحو جديد، ويجب أن توضع في علبة كبريت، وأهم قضية في الدين هي اللباس، ويغلق عليها لأنها رأس الفتنة، وليس هناك من فتنة على الرجال أكثر منها، وأكثر أهل النار

النساء، وهي قاصرة عقل ودين تحتاج الوصاية، وفي بطاقات الزفاف تزف (كريمة) فلان على فلان فليس لها اسم ويتم تبادلها مثل البضائع، ولكن هل يمكن للإنسان أن يرى بعين واحدة ما لم يكن أعوراً، أم هل يستطيع أن يقفز بساق واحدة إلا في أسطورة شق وسطيح؟

مشكلة التخلف أنها مثل القصر علة وراثية لا توجع صاحبها ولكن هناك من يعالجها بلبس بدلة طويلة.

ما الفرق بين الآلة والحشرة والإنسان؟

إذا نفخنا بالبوق صوّت فكان له رجيع، وإذا ضغطنا زناد البندقية المعمرة أطلقت النار فكان لها صوت مدوي، وإذا أمسكنا بالقلم فسطرنا تدفق المداد بالكلمات، ليس أمام البوق أو البندقية أو القلم خيار فهو مُستلب الإرادة مُغيّب الوعي يستجيب لما نطلب منه فيصوت البوق ويطلق المسدس الرصاصة بأي اتجاه ويكتب القلم ما نوحي به، وإلى هنا كان الكلام عادياً، ويصبح محرماً عندما نتساءل عن الإنسان العربي الذي تحول إلى ميكروفون ومسدس وقلم حبر فاخر، يُكرِّر ما يُطلَب منه فيقتل على الأوامر، وينشد القصائد العصماء في مدح ولي النعمة القائد الملهم، وإذا كتب كذب بلا مبرر ودون أن يطلب منه وبشكل مقزز، وفي ملتقى المثقفين في جامعة عربية كان أول شيء فعل مثقف مرموق أن أطلق البخور لإبعاد أرواح الجان فمدح رئيساً أو رئيسين من طغاة العالم العربي. جاء في الإنجيل: إذا كان النور الذي فيك ظلاماً فكم يكون الظلام؟ وإذا كان المثقف المدجن سيقود المواطن الأعمى فهما مثل الأعمى الذي يقود الأعمى ليسقط الاثنان في الحفرة.

إذا طلب من الإنسان العربي أن يفعل شيئاً ضاراً وحراماً ومخالفاً لضميره نفذه بدون تردد قائلاً: إنها الأوامر من سيدي ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، وإذا طلب منه أن يصفق ويهتف سابق بحركاته القرود، وإذا أمر الجندي أن يهدم المقدسات ويرجم المدن بالصواريخ والأسلحة الكيماوية فعل، وقد يفعلها وهو دامع العين ولكنها الأوامر فالجندي عليه أن ينفذ أولاً ثم يعترض في وصفة مقلوبة جداً، ولكننا اعتدنا

منذ أمد بعيد أن نمشي على رؤوسنا بدون أن نشعر بالدوار، إذا كانت السيارة والسكين لا تملك الإرادة فتفعل ما نشاء ولا تفعل ما تشاء؛ ويمكن لأي إنسان يعرف القيادة أن يسوق سيارة أي إنسان بدون ملكية، فإن الأمة عندما تفقد قدرة تقرير المصير تنتقل ملكيتها من يد مغامر لآخر، كما تمسك أي يد بأي نصل فتقطع به؛ فلم نسمع في يوم أن السكينة ناقشت صاحبها أن ما يفعله حرام أو ضار أو لا يجوز؟ كما لم تناقش أي سيارة من يُشغلها هل هو ذكر أو أنثى يملكها أو لا؟ وإذا كان هذا يصدق على الآلة فهو يسري في عالم الحيوان المحكوم بسلاسل الغريزة؛ فالنحلة تتفاهم مع الأخريات بإيقاع الرقص في غريزة مطبقة وإذا خطر في بالها أن تطالب بحرية النحل برقصة جديدة فإن جمهورها قد يستمتع بالرقصة كثيراً ولكنه لا يستطيع فهمها لأنه جمهور محصن غريزياً ضد فكرة الحرية بالذات.

ما الفرق إذا بين الآلة والحشرة والإنسان؟

النباتات تحرك نفسها ولكنها لا تدري إلى أين تمضي؟ والحيوانات تدرك إلى أين تمضي؟ ولكنها لا تعرف السبب؟ ولإكمال مراتب الأحياء لا بد من مخلوقات لا تعرف فقط إلى أين تمضي؟ ولكن لماذا تمضي أيضاً؟ ونحن البشر نشكل هذه المخلوقات، والملكة التي تمكننا من فهم علل الأشياء تسمى العقل، الآلة فيها القصور الذاتي، والحشرة محصنة بآلية الغريزة، والإنسان يملك الإرادة؛ فإذا فقدها مات فوجب إحياؤه من جديد بتوليد الإرادة عنده، وهو ما جاء به الأنبياء بعتق الإرادة من سلطان الملوك ورجال الدين وطواغيت الحزب. واعتبر القرآن أن الإيمان هو ولادة جديدة وخروج من رحم الموت ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ وعندما ذكر المسيح لنيقوديموس أنه لا بد للإنسان من الولادة مجدداً، سأله متعجباً: ولكن هل يمكن أن نرجع إلى الرحم ثانية بعد أن خرجنا منها؟ إن هذا مستحيل يا معلم؟

ولم يكن للمؤمن أن يقترب من الله قبل أن يرفض الطاعة قبل السجود ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾. إن بلالاً كان عبداً ولكن الحرية هي رصيد في النفوس قبل أن يكون مرسوماً على الجلد أو مكتوباً في الهوية الشخصية، وما كان يذوقه بلال وهو يعذب ويقول أحد أحد لا نعرفه نحن الذين نشأنا في بيئات نسمي أنفسنا فيها أحراراً.

اجتمعت برجلين قد أخلصا الودَّ بأكثر من كليلة ودمنة فقمت بتجربة عليهما فقلت للأول: أكنت فاعلاً شراً بأخيك لو طلب منك ذلك؟ رد بانفعال: معاذ الله، قلت له: لو وضعنا في يدك مسدساً وصوبنا إلى صدغك مسدساً ثم طلبنا منك قتل أخيك فإن لم تقتله قتلناك أكنت قاتله؟ تردد وفكر وقدر ثم تلعثم ثم اعترف: نعم... ولكن؟! ثم ذرب لسانه بعشرات الحجج في قفص اتهام يبرر فعلته. كان الرجل صادقاً فنحن في العالم العربي نفعل كلنا هذا يومياً... إنها الأوامر لا راد لقضائها ولا معقب لحكمها ولا مناقشة لحيثياتها؟؟

حفظ القرآن أم فهم القرآن؟

في مدينة (فولفسبورغ) الألمانية اجتمعت بمجموعة من العمال التونسيين الذين يعملون في مصنع سيارات فولكسفاجن، وكان المشرف عليهم حريصاً أن يجعل أحدهم يقرأ (أكبر) كمية من الآيات، فلما اعترضت تيار القراءة بتحويل مساره إلى شيء من الفهم فسألت أحدهم عن معنى كلمة احمرت عينا الموجِّه، واعتبرني من مقلقي النوم العام وخطراً على الديانة، ومن الأفضل المحافظة على عقولهم في حالة سبات شتوي.

وفي مدينة على الحدود (الهولندية) اجتمعت بطائفة من الأطباء من اختصاصات مرموقة فلاحظت أن المشرف على (الحلقة) كان حريصاً على إدخالهم نفق الحفظ، وابتدأ بأول وأكبر سورة من القرآن البقرة متعمداً قلب السياق القرآني، عكس السياق التربوي للصحابة بالقرآن المكي، وزيادة في الأستاذية كان يحفظهم عشر آيات في كل جلسة مثل كتاتيب العصر العثماني ويتسمع الأطباء فرداً فرداً، فينقضي الوقت وهو يصلح مخارج حروفهم بدل تحرير مسالك عقولهم، وكان يدخل في روعهم أن من (يحفظ) كل القرآن (يفهم) كل العالم، كما يحصل للصيدلي الذي يحفظ أسماء الأدوية ويظن في نفسه أنه أصبح مختصاً في كل فروع الطب، ومثل من يقول أن من خزن القرآن في ديسك كمبيوتري يعني أن الكمبيوتير أصبح سيد الفقهاء!.

لا توجد آية واحدة في القرآن تقول احفظوا القرآن مقابل عشرات الآيات في فهمه وتدبره وإدراك معانيه ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾، ولم يكن الصحابي (يتجاوز) العشر آيات قبل أن يعيها ويعمل بها، ومع أن القرآن

يقول عن نفسه أنه محفوظ وفي اللوح المحفوظ وتعهد الرب بحفظه بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ فإن العالم الإسلامي منهمك بإنشاء مدارس ومعاهد لتحفيظ القرآن أكثر من إنشاء مؤسسات لفهمه وفك أسراره في علم النفس والاجتماع.

وكان الإمام محمد عبده حينما يخبره البعض فرحين بأن فلاناً حفظ كتاب الله لم يكن من الفرحين وكان تعليقه أن نسخ القرآن زادت نسخة، وعلى طول التاريخ كان عدد من يحفظ القرآن يزداد ووضع العالم الإسلامي يزداد انحداراً وتخبطاً، بسبب سيطرة العقل (النقلي) وغياب العقل (النقدي)، والفرق بين الاثنين يشبه الفرق بين الحي والميت، مثل تشابه البيضة للبيضة بين أن تكون بيضة مسلوقة وبين أن يخرج من الثانية ديك يصيح على السياج.

وفي بلد عربي قتل النظام السياسي في ليلة واحدة ألف معتقل إسلامي أعزل، وفي اليوم التالي كان ينشئ معاهد تحفيظ القرآن بقدر عدد ضحاياه السياسيين، يدشنها ويشرف عليها بحرص مفتي بعمامة كبيرة، في بلد انقلب إلى مقبرة يمشي فيها حفار بمعول وقبور تبلع وجثث تتوافد وصمت يسود ومعاهد لتحفيظ القرآن يزداد عددها وواقع سياسي يزداد بؤساً.

ما معنى هذا الكلام؟ القرآن يقول ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾ ولا بأس بحفظ آيات تعين في الصلاة مبنية على أساس من الفهم، ومن تبحر في الفهم واستغرقه جمال القرآن ـ كما حصل معي أنا شخصياً ـ وأراد التوسع في فهمه وإضافة المزيد من كميات الحفظ إلى حين اكتمال حفظه ثم المحافظة عليه يومياً وهو أشق بما لا يقارن فهو مؤشر صحي. ولكن الحفظ مع عدم الفهم لن يزيد أوضاعنا إلا خبالاً، وعوام الأتراك يحفظون القرآن بدون فهم فقرة واحدة. وهو قلب لوظيفة اللغة كوسيلة تفاهم تتحول إلى أمواج تصويت

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾. ومثل من يتكلم الصربية إلى رجل من الأسكيمو.

والقرآن مبني على الفقه والفهم ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾، كما فعل الجن حينما استمعوا القرآن فارتعشت قلوبهم لذكره ورجعوا إلى قومهم منذرين ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾، فالذي غيرهم وخشعت قلوبهم لذكره هو المعنى المتدفق من تضاعيف ورحم الكلمات وليس القوالب اللفظية، فسحر القرآن هو من ذلك العمق المعرفي وليس بالكلمات الميتة، والذي غيّر العرب لم يكن شعراً بل قرآناً عربياً لقوم يعقلون، قرآناً يقلب أوضاعهم السياسية رأساً على عقب، ولذا حاربه الطغاة لأنه قتل مصالحهم واعتنقه الفقراء والمستضعفون لأنه انتصر لقضيتهم، ومن الغريب أن معاهد تحفيظ القرآن ينشط في بنائها الأغنياء والطغاة، لأنهم يعلمون أن الحفظ سيحافظ على أوضاعهم.

إن الحفظ بدون الفهم لا يزيد عن آلة حديد تسجل مثل أي مسجلة تباع في السوق، والعقل الإنساني يقوم على الفهم الذي يغير السلوك. سُنَّة الله في خلقه وخسر هنالك المبطلون، ولكننا من خلال الكارثة الثقافية التي حلت بالعالم الإسلامي ظننا أن الحفظ يعني الفهم مثل من يتسلق ظل الجبال وهو يظن أنه يتسلق الجبل، وهي تذكر بقصة (شو لم شو لم) من كليلة ودمنة حينما تسلق اللص شعاع القمر لينزل بيتاً فيسرقه فوقع ودقت عنقه.

التفسير الخوارقي للأحداث

في الساعة التاسعة وأربعين دقيقة من صباح أول تشرين ٢ (نوفمبر) من عام ١٧٥٥م احتشد الناس في الكنائس في لشبونة بكامل زينتهم في عيد (كل القديسين) فاهتزت الأرض وفي ست دقائق تهدمت ثلاثون كنيسة وألف منزل ومات خمس عشرة ألف إنسان وأصيب مثلهم بإصابات خطيرة في واحدة من أجمل عواصم العالم يومها.

ويبدأ الناس يحاولون تفسير ما حدث فأوضح (مالا جريدا) وهو أحد اليسوعيين أن الزلزال وما أعقبه من أمواج عاتية مدمرة كان عقاباً من الله على الرذيلة التي استشرت في لشبونة، ولكن الزلزال الذي قضى على القساوسة المتبتلين والراهبات المتفانيات في الخدمة وفر ألد أعداء اليسوعيين وهو (دارسيا ستيو دي كارفالو) فلم يمت وأخذ يشمت بالكاثوليك حيث لا يجوز الشماتة بالميت، كما أن أهل المغرب هللوا للحدث واعتبروه انتقاماً إلهياً من محاكم التفتيش في البرتغال ولكن الزلزال لم يعف عن المغرب فهدم أعظم مسجد في الرباط، أما (البروتستانت) فقالوا: إن هذه الكارثة هي استنكار السماء لجرائم الكاثوليك ضد الإنسانية.

وأعلن (وليم روبرتون) أن مذبحة لشبونة «أبرزت عظمة الله في أبهى صورها» ولكن الجواب عن هذا التفسير جاء بعد ١٨ يوماً من زلزال لشبونة حيث ارتجت الأرض بأشد في الطرف الآخر من الأطلنطي في أمريكا في ١٩ تشرين ٢ (نوفمبر) فدمر الزلزال خمس عشرة ألف بيت ويزيد في مدينة (بوسطن) حيث موطن الحجاج والبيورتانيين (المتطهرين).

وحتى (فولتير) وقف مذهولاً أمام فظاعة الحدث ولكنه استشاط غضباً من سخف التفسيرات وكتب يقول في ذروة الحزن: «أيها الحكماء الحمقى الذي ينادون بأعلى صوت: كل شيء حسن، تعالوا وتأملوا هذه الخرائب والأطلال الرهيبة وهذا الحطام وأشلاء ورماد وجثث بني جنسكم» لينتهي إلى القول: «ولكن أي جريمة ارتكب هؤلاء الأطفال الذين اغتالهم الزلزال وسالت دماءهم وهم في أحضان أمهاتهم؟ وهل كانت رذائل لندن أو باريس أقل من رذائل لشبونة؟ ومع ذلك دمرت لشبونة وباريس ترقص. ألم يكن في مقدور الله أن يصنع عالماً ليس فيه هذا الشقاء الذي لا معنى له؟ إني أجل الله ولكني أحب الجنس البشري».

أما (جان جاك روسو) فاعتبر أن ما تعاني الإنسانية من علل وشرور هو نتيجة لأخطاء البشر، وإن زلزال لشبونة هو عقاب عادل للإنسان لتخليه عن الحياة الطبيعية وإقامته في المدن، ولو أن الناس التزموا الحياة البسيطة في مساكن متواضعة لما حصل كل هذا الدمار.

بقي (فولتير) لفترة طويلة مصدوماً من الحدث ثم خرج على الناس بأجمل إنتاج أدبي على شكل قصة أخذت اسم الشاب (كانديد)، وبمجرد صدور النشرة أمرت الرقابة في ألمانيا بحرق الكتاب باعتباره هرطقة، وأنكر بالطبع (فولتير) أن يكون مؤلفه وقال: لا بد أن الناس فقدوا عقولهم لينسبوا لي هذه المجموعة من الهراء إن خطورة العقل الخوارقي أنه يعطل كل جهد بشري. وفي العصور الوسطى كان البابا (الكسندر السادس) يعاني من التهاب مفاصل الزهري ولكنه كان يوحي لمن حوله أن سبب مرضه ليس الفاحشة بل تعكر مزاج المريخ، وكانت الكنيسة تبيع تذاكر لدخول الجنة وتعالج السعال الديكي بلبن الحمير ويضحك البابا من سخف عقول الناس بتصورهم الكرة الأرضية وهي تدور بدون أن تسقط الأشياء من الأسفل.

والعقل العربي اليوم مغتال عشر مرات بعشر سموم منها التصور الخوارقي للأشياء والفهم المقلوب للتاريخ وتعطيل الجهد الإنساني وانتظار الزعيم الملهم، وعندما انفجر شالينجر مكوك الفضاء اعتبره البعض عقوبة إلهية ونظر إليه الأمريكيون أنه خطأ فني وأرسلوا بعده العشرات، فمن يبني عقله على العلم ينمو ومن يبنيه على الخرافة ينحبس في خانة المجهول، وعندما مات ابن النبي إبراهيم كسفت الشمس فظن الصحابة أن هذا من تلك، ولكن الرسول ﷺ وظفها لتلقين الناس مفهوم السنن وأنها تجري وفق جدليتها الخاصة ولا علاقة لها بموت أحد أو ولادته.

ونحن اليوم نعتقد في زعمائنا أنهم خارقون ونبني مجالس شورى ونيابية لا تنفع ولا تضر لأنها نقلت بغير شروطها النفسية والفنية كمن يضع في بيته كمبيوتر وهو لا يحسن القراءة والكتابة، وفي بلاد التركمان غَيَّر (تركمان باشي) التاريخ فوضع اسمه واسم أمه بدل إبريل ويونيو وصفق مجلس القرود له خُشّعاً على ركبهم نصف ساعة يستعطفونه أن يبقى على رقابهم إلى يوم القيامة، في الوقت الذي يبني أعظم مسجد في آسيا الوسطى يسحبه من آخر قرش من جيب مواطن مفلس، مذكراً بمسجد الضرار، كما خرجت الملايين في استقالة عبد الناصر تطلب منه أن يتابع القيادة بعد أن رسب في الامتحان.

إن العقل الخوارقي مرض عجيب مثل القراد الذي يضرب قبائل النحل فلا يبقى قفيراً ولا عسلاً، ومن يمشي على رأسه يخسر رأسه ورجليه معاً.

الأفكار الصادقة والأفكار الفعالة
[وكيف نفهم على ضوئها أحداث أيلول (سبتمبر)]

فعالية الأفكار لا يعني صدقها والتحمس في الكلام لا يعني الحقيقة، كما أن صدق الأفكار لا يعني فعاليتها، والقرآن يُعتبر أعظم مصدر للطاقة ولكن المسلمين يكررون قصة الحمار اليهودي التي جاءت في القرآن فيحملون أسفاراً، ولا يوجد أنشط من جماعة (شهود يهوه)، ولكن المسيح لم يأت للعالم حتى اليوم مع أنهم تنبأوا بقدومه على نحو حتمي عام ١٩٧٨م، واجتاحت الشيوعية المشارق والمغارب وكلفت مائة مليون ضحية ثم هوت غير مأسوف عليها مثل بيت كرتون، مع أن مؤسسها اعتبرها نهاية التاريخ والجدل الإنساني، وأمريكا اليوم تتهم الإسلام والقرآن بأنه دين عنف وقتل، وفي جامعة (نورث كارولينا) ترجم أستاذ القرآن المكي فسلطوا عليه حرباً شعواء بأنه ينشر الإسلام والرجل مسيحي.

وأحداث ١١ أيلول (سبتمبر) لغز تاريخي، وسواء كان وارءه صراع داخلي أو سيطرة فريق عسكري كما ظهر في فيلم (الحصار) أو قام به بن لادن أو تم استخدام شباب إسلامي كأدوات سهلت لهم مهمتهم بيد الموساد من حيث لا يشعرون، فكل هذا سيبقى سراً مثل مقتل (كينيدي) أو حريق روما زمن (نيرون) أو مصرع الأميرة (ديانا)، وهو يذكر بفيلم (شارع آرلنغتون) الذي مُثِّل قبل أحداث سبتمبر حيث انفجرت القنبلة في سيارة الأستاذ الذي كان يدرس مادة الإرهاب ولا علاقة له بالإرهاب، ولكن الإرهابيين بلغ بهم الحذق أنهم استخدموه من حيث لا يعلم فدخل بناء

الاستخبارات الاتحادية الأمريكية (FBI) ليحذر من القنبلة وهو يحمل في سيارته قنبلة، وعندما أدرك السر في اللحظة الأخيرة انفجر ومعه سره الدفين في أشلاء طارت في كل اتجاه، ولكن المهم هو (توظيف) الحدث فهذا لا يدخل في باب (صدق) الأفكار بل (فعاليتها) وكيف توظف.

والآن يكرر الإعلام هذا الموضوع فلا يختلف اثنان أن ابن لادن كان خلف الحدث وأن شبابه قادوا الطائرات وكانوا تسعة عشر. وللحكم في موضوع نحتاج إلى معلومات ولا أحد يحيط بالمعلومات إلا الله والراسخون في المخابرات، وهكذا فأحداث أيلول (سبتمبر) يجب أن تُفهم أنها (وُظِّفت) ضد المسلمين، وتضرر منها الأمريكيون، فأبدل الله أمنهم خوفاً، وزادت شراسة إسرائيل، واشتدت قبضة الأنظمة الدكتاتورية في العالم فزجت بالمزيد في السجون تحت تغيير الدستور بالقوة المسلحة وإثارة الفتنة، وتعرضت الحريات العامة والشخصية لنكسة لحساب (الأمن)، وتحول السفر والتنقل في المطارات ليس إلى سياحة للمتعة بل حفلة تعذيب وخلع أحذية مثل المجرمين.

و(الأمن) و(الحرية) هما كفتا ميزان، مساحتان في دائرة واحدة يتقلص هامش أحدهما بتمدد مساحة الآخر، وهنا تظهر علاقة (العنف) بالحريات، فكلما تكثف العنف واشتدت فوعته ازدادت المظاهر الأمنية خاصة في جمهوريات البطالة من الحراسة والتجسس والتفتيش والنفقات الخرافية على التسلح ورجال المخابرات في ميزانيات دول تشكو من نقص الخبز وهي محنة متوطنة في جمهوريات الخوف مثل البراغيث في فروة الثعلب، وما حصل في أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١م نجح فيه الإرهاب أياً كان مصدره ومن خلفه في توجيه ضربة للحريات في أرض الحريات أمريكا، بحيث تحاول الاستفادة من خبرة استخبارات العالم العربي في قتل حرية المواطن، وإحداث شرخ كوني في نكسة حضارية كاملة، وزرع بذور العداوات بين الأديان.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه عن علاقة (الإرهاب) بـ(القابلية) لإلصاق التهمة بمن؟

ولشرح هذا السؤال على نحو فاضح نقول: لو أن بريطانيا تعرضت لعملية إرهابية أيام احتلالها للهند وأرادت إلصاق التهمة بغاندي هل ستنجح في ذلك؟ والجواب: لا بسبب أن (غاندي) (عُقِّم وطُهِّر) وسط المقاومة المدنية التي كان يخوضها ضد بريطانيا، وفي أحد الأيام نجح حزب المؤتمر الهندي في شحن كل المدن بمظاهرات عملاقة، ولكن غاندي أعلن الصيام ودعا لإيقاف المظاهرات بسبب حوادث العنف التي تخللتها مع أنها كانت بالمنظور السياسي قلة حنكة، قال غاندي يومها: القائد هو الذي يمشي لوحده إن تطلَّب الأمر بدون جماهير.

وهناك مجموعة من الأحداث التاريخية تنير هذا (القانون) الاجتماعي. مثل حريق روما ومحاولة اغتيال عبد الناصر وحريق الرايخستاغ أيام هتلر، فأما الأول فيقال أن (نيرون) أوعز لمن يشعل الحريق ثم يتهم به المسيحيين فيضطهدهم. وينطبق هذا على هتلر حينما أراد تصفية الشيوعيين، أما الإخوان المسلمون فما زالوا ينكرون حتى اليوم ضلوعهم في المحاولة، وفي سوريا حصل نفس الشيء في المذبحة الجماعية في مدرسة المدفعية في حلب التي راح ضحيتها أكثر من مائتي شاب فقد تبرأ الإخوان المسلمون منها وقالوا: هذا إفك مفترى.

ولكن السؤال الملح: ما هي المستقبلات أو الأرضية أو القابلية التي تنجح فيها تهمة دون تهمة في الالتصاق؟ والجواب: هو الاستعداد الخاص؛ فإذا عُرِّض الحليب والشمع والبارود للنار فار الأول وذاب الثاني وانفجر الثالث، بمعنى أن الطاعون ينفجر في الهند وليس في فنلندا بسبب عبادة الجرذان، والبلهارسيا ما زالت تقتل ألوف المصريين سنوياً بالنزف بسبب

توطن عادة التبول في الترع مع أن الحديث الشريف يلعن فاعله، وقتل الصرب مئات الآلاف من كل الأمم المحيطة بهم لأنهم ما زالوا مشحونين بالذاكرة الجماعية المدمرة التي ترجع إلى الخلف أكثر من ٦٠٠ عاماً ـ لمعركة أمسلفيلد عام ١٣٨٩ عندما هُزموا أمام الأتراك وقُتل ملكهم (لا زار) ـ في حاجز نفسي غير قابل للقفز فوقه.

إن ما حدث في أمريكا سواء حدث بيد أناس من داخل أمريكا أو أعداء لها فإنه يسهل على أمريكا أن تلصق التهمة بابن لادن وليس (نيلسون منـــدلا)؛ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾.

والذي يحكم على وسيلة دون غيرها بالرشاد هي النتيجة، فهذا هو مؤشر الصحة من الخطأ.

واليوم يلعن التاريخ (نيرون) و(هتلر)، ويرفع مقام (غاندي) و(روزا باركس) السوداء (وجيوردانو برونو) الذين ساروا على طريق الأنبياء بعدم الإيمان بالقتل سبيلاً لحل المشاكل، و﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾؟.

عندما يصبح التدين ضد الدين

على مسيرة ساعة من مدينة فيلادلفيا في أمريكا توجد طائفة اسمها (الآميش) شكلها إنساني ولكنها متوقفة في الزمن في القرن السادس عشر للميلاد في متحف حي يركب فيه الناس الحمير والبغال ولا يستخدمون الكهرباء والتلفون ويعتبرون أن التعليم الحديث قرن الشيطان.

وعندما يمر (الحنطور) المتثاقل من العصور الوسطى يتوقف طابور السيارات للتأمل كما يفعل الناس في السفاري فيدهشون لرؤية النمر والزرافة، وأهم ما فيها أنهم مسالمون ويتحملون سخرية الناس بصبر ويعيشون على هامش المجتمع فينتجون ويبيعون ويحميهم المجتمع الأمريكي كتحفة أثرية يزورها الناس مثل زيارة المتاحف، وهذا النموذج له ما يشبهه في بلد عربي بفارق أنهم عدوانيون يقاطعون المجتمع كلية ويكفرونه ولا يسمحون بزيارة ومقابلة ولا يتعاملون بالنقد بل المقايضة، في انقذاف إلى الخلف مقداره ألف سنة مما تعدون.

ومن الغريب أن الذي شكل مجتمع الآميش وغير الآميش هي المفاهيم الدينية المتشددة.

التدين يشبه الملح من جانب، فبدون الملح يفقد الطعام كل نكهة، وبدون التدين تنقلب الحياة إلى عبثية لا معنى لها وإلحاد يقود إلى الانتحار. وبقدر حاجة البدن الضرورية لقوامه إلى الملح بقدر تسممه إذا زادت الجرعة عن حد معين، وإذا أخطأت الأم في مطبخها فوضعت كمية كبيرة من الملح في الطعام عافته نفوس أطفالها مع كل حبهم لطعامها، فهذه هي جدلية التدين والتعصب.

إذا أخذ التدين بجرعته المناسبة أنعش الكيان ومنح الإنسان زاد التقوى ومعين الصبر وألغى عبادة الأشخاص، وإذا زادت الجرعة انقلب الوعي إلى تعصب، والعلاقات إلى عداوات، والحياة إلى جحيم لا يطاق من المحرمات، وبرمجت الحرب وانقسم الناس إلى شيعتين: من يؤمن بالقتل وسيلة لحل المشاكل ويدخل فيه (بوش) و(شارون) وفرعون ذو الأوتاد، ومن لا يبسط يده بالقتل ولو هدده أحدهم بالقتل ويدخل فيه الأنبياء و(غاندي) و(مالكولم أكس) و(سقراط) و(روزا باركس).

إن كلاً من (الفيزياء) و(الكيمياء) و(الطب) و(علم النفس) و(قوانين المجتمع) ترفدنا بشواهد على هذه السنة النفسية الاجتماعية، فزيادة البوتاسيوم أو نقصه في الدم يقود إلى توقف القلب بالاسترخاء أو الانقباض، ونقص الكالسيوم يفضي إلى تكزز العضلات، وزيادة النحاس في الجسم يقود إلى تشمع الكبد بمرض ويلسون. وجرعة من الخوف ضرورية للحفاظ على الحياة ولكن زيادتها تدفع إلى الجنون، والتشدد في الدين تطرُّف وجنون بدون مصححات عقلية، فهذه القيمة الحدية للأشياء ضمن وسطها المناسب الذهبي تعطي الحياة نكهة ومعنى وجرعة توازن، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.

يقوم الكون على التوازن، وأفضل شيء يتحقق في المجتمع هو العدل، وخير حالة تعيشها النفس هي الصحة النفسية بتوازن الغرائز والعواطف في حالة وسطية، والشجاعة هي حد الوسط بين الخوف والتهور، وأفضل حالة للطاقة هي أن لا تجمد ولا تتفجر؛ فالكهرباء جيدة عندما ترفع الناس في المصاعد، ولكنها قاتلة إذا نزلت من السماء على شكل صاعقة، والماء جيد إذا حُبس خلف السد فاستفاد منه الناس في سقاية الأرض، وهو مدمر إذا جاء على شكل الطوفان.

ويصدق هذا القانون على التديّن ولذا جاء تعبير القرآن ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ

أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ﴾. فالاستقامة هي الحالة الوسطية بين الطغيان واللامبالاة، وعندما يذكر القرآن الإنفاق يقول و﴿إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾.

فالقوام هو وضعية الوسط بدون ترنح وسقوط في أي اتجاه، ومن هذه المعاني وصل الفلاسفة إلى شيء سموه الوسط الذهبي، وعندما أرادوا تحليل الأخلاق وصلوا في النهاية إلى أن حاصل الأخلاق ينتهي إلى ثلاثة هي: العفة والشجاعة والحكمة، وكل خُلُق من هذا هو وسط بين حدّين وبتعبير (أرسطو) فإن كل فضيلة هي وسط بين رذيلتين، وأكبر نكبة للفكر هي التشدّد وما يتولد عنه من ظاهرة التكفير لأنه يعمل ضد قوانين الطبيعة التي تقوم على توازن الفعل ورد الفعل، وعضلات الجسم ليست في حالة توتر بل هي بين الانقباض والانبساط، والفلسفة الصينية تقوم على مبدأ تبادل السلبية والإيجابية ويسمونها الين واليانغ، والكهرباء هي في حالة تردد وتدفق للسيالة الإلكترونية بين السالب والموجب، وقيام توازن الذرة بين الإلكترونات والبروتونات في شحنتين متعادلتين، ولا يولد الطفل من رحم أمه بدون التقلص والارتخاء.

ولن يخرج الدين عن هذا القانون الذي هو أسمى شيء في الوجود ويعطي للحياة معنى، ولذا فإن التشدّد هو ضد قوانين الحياة وهو يدمر نفسه ومن حوله، والفكر الإسلامي المعاصر ابتلي بهذه الآفة كما يصيب مرض القراد خلايا النحل فيقطع الأجنحة ويقصم الظهر وإذا لم يبق للنحلة جناح فلن تجمع الرحيق بحال.

قانون التحيز

كل منا متحيز ومتعصب وعنصري بقدر، وقد يكون أقلنا تحيزاً من ينتبه إلى هذا القانون، هذا إذا سلّم به واعترف، وقليل من يعترف أو يتصف بالنزاهة، والله وصف الخلطاء أنه ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾، وعندما تحدث (توينبي) عن المؤرخين في مطلع كتابه مختصر دراسة التاريخ قال: إن المؤرخين في معظمهم ينزعون إلى توضيح آراء الجماعات التي يكدحون في محيطها منهم إلى تصحيح تلك الآراء.

وأعظم شيء اتصف به رعيل الصحابة الانتصاف من أنفسهم، وأثقل الوصايا القرآنية هي إقامة القسط ولو على أنفسكم أو الوالدين، وعندما أرسل الرسول ﷺ أحد الصحابة إلى يهود بني قريظة أرادوا رشوته فقال لهم: يا معشر يهود تعلمون أنكم أبغض إلى نفسي من القردة والخنازير ولكن هذا لا يمنعني أن أقيم العدل فيكم، فشهق اليهود وقالوا: بهذا قامت السموات والأرض، وفي يوم قام أنصاري من المدينة بسرقة درع من جار له كما لو سرق أحدنا في هذه الأيام سيارة جاره، فلما فاح الخبر أنه السارق هرع إلى بيت يهودي فألقى الدرع فيه، ولعله قال: إن يهود متهمين ويمكن بهذه الطريقة توريطهم مرتين، ثم جاء الرجل إلى الرسول ﷺ فقال: برئني أمام القوم ويبدو أنه حصل ما أراد فنزلت عشر آيات من سورة النساء تدافع عن البريء اليهودي وكيف يمكن أن يتم هذا في مجتمع يريد تحقيق العدل، وعاتب القرآن النبي ﷺ كيف أنه كان للخائنين خصيماً أي محامياً للدفاع عنهم وطلب منه الاستغفار لذلك وأن لا يجادل عن الذين يختانون أنفسهم

إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً، وهي قصة مؤثرة جداً يمكن أن تُقرأ في أي تفسير.

ونحن نريد أن نقول: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾، ولكن ليس أي مصلين بل نوع خاص وصفته الآيات أنه حقق مستوًى نفسياً متميزاً. وهنا تصبح الصلاة ثقيلة إلا على الخاشعين، ومن يدّعي أنه يريد الحق المطلق والعدل المتناهي يجب أن نشك في قوله كثيراً ليس لأنه يفتقد النية لذلك بل الوعي والموضوعية، وأنا عشت بين الألمان ما ينوف عن ثماني سنوات ورأيت فيهم من روح العنصرية ما أشعرني ببرودة في عظامي حتى القبر وأنني سأبقى غريباً بينهم ولو لسن التقاعد، ولكن بنفس الوقت فالتعامل المالي معهم مريح ولا يجدون حرجاً في ذلك، وهم منصفون في دفع الرواتب والضمانات لكل من دخل بلدهم، وبالقانون يمكن مقاضاة المستشار الألماني (شرودر) نفسه، كما أن التلفون له معنى ويمكن حل معظم القضايا بالتلفون والرسالة ولا يمكن أن ترسل إلى أي كان ولا يأتيك جواب ولو كان المُرسَل إليه يغرق يومياً بأطنان الرسائل، وفي نهاية كل عام تضيع مني بعض أعداد مجلة (در شبيجل) الألمانية المشترك فيها فأرسل إليهم أنه لم يصل العدد كذا وكذا فيصل بدون سؤال، فهم يُعمِّرون ونحن نُصادر ونُخرب، ورؤية الناس بهذا المنظار مريح، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾.

لعبة الكذب

كلنا يكذب بقدر وأكثر من مرة في اليوم الواحد ولأكثر من إنسان، وكثير منها بسبب اللغة فنبالغ ونجامل ونكذب ونحن نظن أننا لا نكذب، هذا ما كشفته الدراسات النفسية الحديثة، وهو أمر معروف ومكرر وخاصة على لسان القياديين والسياسيين، وقامت عالمة النفس (بيلا ديبولا) بتجربة مثيرة في عرض لوحتين الأولى سريالية والثانية بيضاء، ولكن أرضيتها من نقوش نجمات، ثم عرضت اللوحتين على العديد من الناس لترى التعليقات فكانت مشبعة بالمرارة والتهكم، ثم فاجأت الحضور بأن دخلت سيدة على ظهرها حقيبة وادعت أنها من رَسمت اللوحة السريالية، كما دخل شاب يدعى (جاك) فأخبر أن اللوحة البيضاء هي من صنع يديه وهو يريد بحرص أن يسمع تعليقاتهم على ما أنجزته يداه في أسابيع طويلة من العمل، فانقلب القوم على رؤوسهم وقالوا: ما أجملها ولقد أبدعت فيها وللمرأة قالوا: إنها لوحة تأخذ بالألباب وأنها ساحرة ومسيطرة ومؤثرة.

وهكذا فنحن في موجة المجاملة ننافق ونكذب ولا نقول الحقيقة في وجه صاحبها، والحقيقة مؤلمة في العادة. والأعور لا يقال له أيها الأعور بل يشار له أن عينه كريمة، وقام بول أكمن بدراسة أقنعة الوجه وتفاعل العضلات مع التعبيرات فوجد أن أجرأ الناس على الكذب من يتمالك تعبيرات وجهه عن الظهور.

وكثير من حكام العالم القساة مثل (ستالين) وصفت وجوههم أنه قناع جامد مثل التمثال، وقامت مدرسة في حضانة الأطفال باكتشاف عالم

الأطفال ومتى يتعلمون الكذب فعرفت أن الطفل في سن الثالثة لا يفرق كثيراً بين نفسه والآخرين وفي السن الرابعة يبدأ في التمييز بأن فلان أخذ من فلان ولكنه لتمييز الخداع والكذب يجب أن يكون في سن السادسة والسابعة.

وفي تجارب عالم النفس السويسري (جان بياجييه) اكتشف أن الطفل قبل سنة السابعة لا يربط بين كمية الماء ومستواه فكمية الماء في أنبوب طولاني مثل كمية الماء في حوجل كبير طالما كان مستوى الماء واحداً.

ويبدو أن الكذب مفيد أحياناً لأنه يقوم على الخدعة لإنقاذ الحياة، وفي قصة (فيكتور هوجو) عن البؤساء كذبت الراهبة التي لم تكذب في حياتها قط لأنها عرفت أن صدقها للبوليس سيخدم قضية غير صادقة، ومن أعجب ما كشفت عنه قناة الديسكفري كيف أن كلينتون كرر مرتين أنه لم يمارس الجنس مع لونسكي وأنه لا يكذب فكذب مرتين، ونقلوا عن نيكسون وهو يقول إنها الحقيقة ولم تكن الحقيقة بل كان يكذب، وقالت القناة: بكل أسف يبدو أن المخادعين الكذابين هم الذين يتسنمون مناصب قيادية ويؤثرون في الناس ويقررون مصائر العباد.

واجتمعت أنا شخصياً برجل عجيب يعتبر مدرسة في الكذب وما زلت أتعجب كيف لم يلق عليه القبض حتى الآن؛ ولكن (سبينوزا) الفيلسوف الهولندي قرر في كتاب كامل أن الأخلاق هي حصيلة خبرة الجنس البشري وأن الصدق ينبع من مصدر نفعي بحت أنه الأفضل للبشر، وأنه يمكن البرهنة على الأخلاق كما نبرهن على السطوح والخطوط في الرياضيات، فكتب كتابه الأخلاق مؤيداً بالدليل الهندسي.

و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

أَصْلِ نفسك حرباً لا هوادة فيها

هذه العبارة من أقوال الفيلسوف الألماني (فردريك نيتشه) وهو من أدمغة التنوير ولكن أنهى حياته بدون تنوير فدخل في ظلمات الجنون، ولكن العبارة سليمة وأجمل منها ما جاء في القرآن ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾، ولا شيء أعظم من هذه الحكمة حين يحارب الإنسان نفسه التي بين جنبيه، وقد يقول قائل: وكيف يمكن أن تقع هذه الحرب الأهلية والمثال على ذلك سهل مثل البدانة أو أكل لحم الناس أو اللغو، فأنا أعرف الكثيرين الذين يأكلون ويأكلون وينتفخون وتتشوه أشكالهم ومنهم من أعرف لم يعد أي حزام يلف على بطنه ومن يلبس الجلابيات الواسعة لا ينتبه إلى أن وزنه أصبح في حيطان القنطارين، وأعرف شاباً كان قد انتفخ حتى قارب مائة كيلو غرام ثم رأيته بعد ذلك فإذا بمنظره قد اعتدل ووجهه طال ونقص عمره عشر سنين، وتأملت بطنه فظهر كأنه المرأة الحامل التي أفرغت محصول الحمل، فقلت له: يجب أن أعترف لك بقوة الإرادة، وأنا أعرف معنى تنزيل الوزن لأنه يحكي التحكم في شهوة الطعام.

وهناك حديث بما معناه أن **«من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»**[1] وهو صحيح من ثلاث جوانب: الطعام واللسان والشهوة الجنسية، فليس هناك أشهى من الطعام والتلذذ بالشهي من المطبوخات والمشويات والمقبلات والحلويات والمكسرات يلحق بها السوائل الدافئة

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٩).

المحلاة وتنتهي بنفث أو نفثين من (أرجيلا) أو لفافة تبغ فهذه قمة السعادة عند بعض الناس.

وما بين لحييه أي الشارب واللحية، فإن الفم مكان النطق وبقدر لذائذ الطعام بقدر لذة أكل لحم الغير ولقد عقد الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين فصلاً عن آفات اللسان أظهر ما لا يقل عن عشرين عيباً من اللغو والنميمة والكذب وشهادة الزور والمراء.. إلخ، والصوم في هذه الحالة هو صومان عن الطعام والشراب والصوم فلا يكلم إنسياً كما جاء على لسان مريم حينما خرجت على قومها تحمله قالوا: يا مريم أنّى لك هذا ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ فنطق عيسى ﷺ بدون أن تنطق مريم حرفاً واحداً.

والحديث يشير إلى مرض لا يقل عن المرضين الأساسيين من الفم هو الفرج أي الرغبة الجنسية، فمن يستطيع تملك غرائزه وشهوته يصبح أقوى الأقوياء، ومن يستطيع ضبط غضبه وانفعالاته يصبح من عباد الله الصالحين، وليس معنى هذا أن الإنسان لا ينفعل فهذا ضد الطبيعة بل أن يضبط انفعالاته؛ ولذلك جاء في القرآن ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ وليس التخلص من الغيظ، فالقرآن يعرف أن الغيظ قوة انفجارية ولكن من يكبحها يصبح مزوداً بفرامل نفسية ممتازة، وهكذا فقول (نيتشه) في محله أن أصِّل نفسك حرباً لا هوادة فيها باستمرار، ومحِّص الأفكار والمشاعر التي تداعب مخيلتك دوماً وانتقدها، ولكن من يفعل هذا؟

جنون الجماهير

في عام ١٨٩٥م صدر كتاب باللغة الفرنسية للفيلسوف وعالم الاجتماع (جوستاف لوبون GUSTAVE LE BON) بعنوان: (سيكولوجية الجماهير) أو (القطيع PSYCHOLOGIE DES FOULES) أحدث ضجة كبرى في الفكر الأوربي وأعيد طباعته مرات وبأكثر من لغة ويعتبر الكتاب الأول الذي شق الطريق لفهم سيكولوجية الجماهير، يصف الكاتب القوانين النفسية التي تحكم الجماهير، وأن الفرد حين يكون بين الكتلة يتحول إلى كائن جديد أشبه بالوحش بلا رأس تضيع فيها معايير العقلانية وينكمش النقد ويخضع الأفراد في هذا الوسط إلى الانقياد الطوعي بما يشبه التنويم المغناطيسي ويتحول الفرد من كائن مستقل إلى نكرة في كتلة تتحرك بفعل قوانينها الخاصة، وهي كتلة تعمل بشكل آلي مثل أي جهاز فقد السيطرة عليه أحد إلا قائد يبرز في هذه اللحظة أو مفاهيم مغرقة في التعصب تشد القطيع إلى بعضه، بكلمة ثانية إن الفرد المستقل هو غيره حينما يكون في الكتلة البشرية ومعادلته بالتالي مختلفة كلية، والعاقل الذي يرى فيه الإنسان أنه عاقل يصبح فجأة أشبه بالمصاب بالدوار المجنون الذي يترنح، وتراهم سكارى وما هم بسكارى.

ومن الغريب أن هذا الوباء لا ينجو منه أي عاقل بل يغرق فيه نخبة المثقفين والمنظرين فينسون عقولهم في غمرة الفوضى ويتحولون إلى متعصبين قساة غلاة، وهو ما لاحظناه في كل الأفكار المتطرفة من النازية والفاشية والآن موجة التعصب التي تغمر العالم الإسلامي، يقول جوستاف لوبون

مؤلف الكتاب: من أفظع المناظر المدللة على هذا القانون النفسي كيف تدفقت الجماهير وفق قانونها الخاص في الثورة الفرنسية وما سفكت من دماء، وأنا أذكر أيضاً من تجربتي الخاصة الخلخالي في الثورة الإيرانية وكيف تسلط على الرقاب فلا يشرق يوم إلا ويُعلِّق على المشانق أو أمام بنادق جنود الثورة ضحايا جُدد تحت عنوان «الثورة تسقى بالدم»، ونحن نعلم من رسول الله ﷺ كيف دخل مكة وأطلق جميع الناس، ولكن خلخالي لم يترب في حضن محمد بن عبد الله بل في حضن ثورة.

يقول لوبون: إن هذا الوضع يشجع اندلاع وباء من العنف على نحو منظم، ويتم نقل المشاعر والأفكار والإنجازات والنظرية العقدية بقوة عدوى شديدة مثل الميكروبات تماماً، ويقول عنها: إنها ملاحظة موجودة في عالم الحيوانات حينما تتراص على شكل قطيع، فيعاني الدماغ من اضطرابات مثل حالات الجنون، وهذا التحول الإنتاني النفسي يشبه الاندفاع المرضي مثل الطاعون فعندما يشتد يكون قد بلغ الذورة لينحسر بعدها.

ويقول الطبيب النفسي الروسي (فلاديمير ميشالوفيتس) في دراسته عن أثر الإيحاء في الحياة الاجتماعية الذي صدر عام ١٩٠٥ أنه جرثومة نفسية مسؤول عن التحريك الجماهيري كما كانت الجراثيم العضوية السبب في اندلاع الأوبئة، ويتم زراعتها من شخص لآخر، بحيث يصبح التكتل الجماهيري كائناً مصاباً بالدوار بلا رأس يفكر.

وهو يشبه في هذا من جانب قطع رأس الإنسان وبقاء ارتكاساته تخضع للنخاع الشوكي فيرتكس لأقل إثارة، وهو يعني أن الجماهير أصبحت كرة في ملعب الارتكاسات والإثارة وما أمتعها من لعبة. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾.

معادلة الحقوق والواجبات

لعل أكبر خرافة تعلمناها في تربيتنا السياسية شعار (الحقوق تؤخذ ولا تعطى) وفي الحقيقة فالحقوق لا تؤخذ ولا تعطى، وإنما هي ثمرة طبيعية للقيام بالواجب، ومن يقوم بواجبه ينال حقوقه إن لم يكن في الأرض فسينزل من السماء عطاء غير مجذوذ.

لنحاول تفكيك هذه الفكرة، هناك (قانون اجتماعي) يربط بين العلاقات الشخصية، وشبكة العلاقات الاجتماعية، وفكرة المركزية واللامركزية التي طورتها المجتمعات الغربية هي ثمرة نضج تلك المجتمعات. وكل تضخم في جانب الفرد يعني تورماً غير صحي على حساب شبكة العلاقات الاجتماعية، وبقدر نمو الفردية بقدر اضمحلال الروح الاجتماعية، ونحن نعرف في علم الأورام أن السرطان حينما يكبر يقضي في النهاية على نفسه والبدن معاً، وحينما تُرفع صور الأفراد شاهقات في بلد فهو يعني من طرف آخر إلغاء بقية الأمة، ونقطة خلاف الإسلام مع المسيحية هي في نفي صفة الألوهية عن شخصية المسيح ليجلس على كرسي بين البشر، ومن الغريب أن فكرة الأقانيم اعتنقتها السياسة العربية وفي أكثر من بلد.

إن حرص الإسلام على تحريم الصور لم يكن من أجل صورة الهوية الشخصية أو صور الديجتال في الأنترنت، بل من أجل نزع القداسة عن الصور، ولكن عندما يستلب الفهم من عقولنا نحافظ على الطقوس وننسى روح الإسلام، تماماً كما واجه الصدوقيون والكتبة والفريسيون عيسى ابن

مريم؛ فكانوا يسألون عن الشبث والنعنع وينسون الناموس الأكبر، ويسألون عن البعوضة وينسون الجمل.

هناك علاقة صارمة بين فكرتي (الحقوق) و(الواجبات)؛ فالواجب هو (حق) من جانب، وهو (واجب) من الوجه الآخر، تماماً مثل وجهي العملة، إن أية (معاملة) هي واجب للموظف يؤديه، في الوقت التي هي حق لمن يستفيد منها.

الموظف يرى من حقه أن يُعالَج بشكل جيد أثناء مراجعة المستشفى، في الوقت الذي يعتبر هذا واجباً للطبيب يؤديه، وهكذا تصبح (العملة الاجتماعية) تدور بين (حق ـ واجب) في كافة شرايين الخدمة الاجتماعية.

هذه العملة يجب أن لا تُزَوَّر، وحسب قواعد الاقتصاد يعتبر المجتمع معه (فائض) في العملة عندما يملك فائض من عملة (الواجبات).

نحن إذاً أمام ثلاث معادلات اجتماعية:

١ ـ واجبات > حقوق (الواجبات أكبر من الحقوق).

٢ ـ واجبات = حقوق.

٣ ـ واجبات < حقوق (الواجبات أقل من الحقوق).

الأولى: عند تحقق فائض الواجبات عن الحقوق، وهي ترمز إلى مجتمع متفوق حضارياً.

الثانية: تساوي الحقوق والواجبات، وهي تعطي فكرة عن مجتمع متوازن، أما عندما تتفوق حركة المطالبة بالحقوق في المجتمع عن تأدية الواجبات اليومية، فإن المجتمع يبدأ في الانهيار.

ويترتب على القانون الذي ذكرناه قانون اجتماعي آخر هو: عدم

المطالبة بالحقوق أو بكلمة أدق تعميق اتجاه القيام بالواجب، لأن المجتمع الذي تَعلَّم أن يقوم بواجباته سوف تنشق السماء وتنزل عليه حقوقه، ومعظم أبناءنا الذين يذهبون إلى الغرب لا يفهمون (سر الفعالية) فيه. ويحصل ما سماه (مالك بن نبي) الارتماء في (مزابل الحضارة) أو الانزواء في (مقابر الحضارة)، ويعني بكلامه رؤية الحضارة الغربية من ثقبين: الفساد الأخلاقي، والأجواء المهنية، والحضارة ليست هذا ولا ذاك، كما أنها لم تُخلَق في هذه الأمكنة.

كان مالك يريد فهم الحضارة ككائن عضوي مترابط و«الشروط النفسية والاجتماعية» الّتي تولد هذه الفعالية.

هذه الفكرة حلّت عندي إشكالية مهمة: لماذا يتصرف من اختص في الغرب بعد عودته، بصورة غير التي كان يتصرف بها هناك؟ فلا يحافظ على الموعد ولا يتقيد بإشارات المرور أو يعتقد بالخرافة إلى أخمص قدميه ولو كان مهنياً بارعاً.

المجتمع الألماني يُعتبر من قمم مجتمعات العالم، فألمانيا هي صيدلية العالم، وأرض الفلاسفة، ومكان الموسيقيين المبدعين، وأرض حَمَلة جوائز نوبل، بنفس الوقت محرقة (آوشفيتز)، وأرض (الهولوكوست)، ومستنقع العنصرية، ومزبلة كبيرة لكل الإباحيات الجنسية، وما لفت نظري عندهم (أخلاقيات العمل) فالإنسان الألماني قد يخمر في الليل ويعربد، ولكنه في صباح اليوم التالي لا يتأخر في حضوره للعمل؛ فالعمل عنده مقدس.

إن عندهم من الفائض في العملة الاجتماعية (الواجب) ما يجعل أمراضهم مُسيطَر عليها، وقوتهم من معرفتهم بطبيعة هذه الأمراض، والانتباه الدائم لها ومراقبتها، ونشر فضائح الشخصيات السياسية، فيما لو تورط

باختلاس ولو القليل أو قصَّر عن دفع ضريبته من خلال أداة نقد اجتماعية حادة.

ومن الغريب أن مفاهيم الحقوق والواجبات متناثرة في تراثنا، ولكننا نقرأ النصوص بعيون الموتى.

ذكر ﷺ في يوم أنه سيكون أثرة، فقال الصحابة: ماذا نفعل يا رسول الله؟ قال ﷺ: **«أدوا الذي عليكم وسلوا الله الذي لكم»**. يقول الراوي: لقد بلغ بنا أن أحدنا لو وقع من يده سوط فرسه ما طلبه من أحد ونزل فالتقطه.

ألف ليلة وليلة
كيف تعالج المرأة المريض النفسي بالقصة

يعتمد أصل القصص الألفية على حادثة معبرة عن مشكلة المرأة المركزية في المجتمع، فالملك شهريار جاءه أخوه ليشكو له خيانة زوجته، ولكن أخاه بدوره اكتشف خيانة زوجة الملك شهريار، ومن هنا تبدأ حبكة الروايات الألفية فالرجلان انطلقا في الأرض ليريا مصيبة أحد أكبر من مصيبتهما، حتى كان اليوم الذي رأيا عملاقاً يخرج برأسه من لجة الماء ثم يستلقي على الشاطئ بعد أن يُنزل من فوق رأسه صندوقاً احتفظ داخله بزوجته، وتخرج الزوجة من الصندوق لتقول: إنه لا شيء يحجز المرأة عن الفاحشة إلا ضميرها.

ويرجع شهريار إلى قصره وقد امتلأ حقداً على كل أنثى ليبدأ بالزواج كل ليلة من واحدة ليقوم بإعدامها في الصباح، وتتوالى الأيام وتتعاقب الإعدامات، حتى قامت (شهرزاد) الذكية بحل المشكلة كما يفعل علماء النفس فتقدمت لتكون زوج الجبار، وفي الليلة الأولى تقفز إلى الواجهة أختها (دنيازاد) التي تطلب من أختها أن تروي حكاية، وتبدأ الحكاية الأولى برجل الأحلام الفقير، والحياة حلم وتحت أقدام كل واحد منا ثروة عليه اكتشافها.

تقول القصة: إن رجلاً غنياً في بغداد نكب في ثروته فأصبح من البائسين حتى كانت الليلة التي رأى فيها في المنام أن يذهب إلى مسجد في القاهرة فيعثر على ثروة، ولكن مصيره كان السجن بعد أن رابهم أمره

وبحثه، وعندما جاءه رئيس الشرطة حدثه بمنامه فضحك منه وقال: لقد رأيت، في المنام هذه الليلة ما رأيت، ثم بدأ يقص عليه مكان بيت الغني البغدادي وهو يتعجب من دقة وصف بيته البئيس، ثم أطلقه رئيس الشرطة فلم يكن أكثر من غبي، وعاد الرجل بسرعة على ظهر حماره ليفتش بيته وليعثر على كنز هائل.

ولكن شهرزاد قطعت القصة من منتصفها، ولم يكن بد للملك أن يؤجل حكم الإعدام حتى يعرف نهاية الحبكة، وهكذا توالت القصص قصة خلف قصة وقصة في قصة في منعرجات ذهنية ما لها من قرار، وعندما وصلت إلى قصة عاطف رقم ٢٤٢ حكت قصة هارون الرشيد وهو يتصفح كتاباً ثم يطلق ضحكة مجلجلة ويتعجب الوزير إلى درجة القلق والخوف من شدة ضحك أمير المؤمنين ثم لينطلق في سلسلة مغامرات لا نهاية لها، وبعد عودة طويلة سارع إلى نفس الكتاب ليعرف سر ضحك مولاه ليعرف أنها كانت قصص مغامراته، وعند هذه القصة عفا الملك عن شهرزاد وتابعت قصصها حتى القصة الواحدة بعد الألف ليكتشف الملك أنه أصبح عنده ذرية منها.

والقصة ـ كما يقول علماء النفس ـ تدخل إلى اللاوعي ويعشقها الأطفال وتقوم بترميم النفس المهدمة المحطمة المنشطرة والإجرامية كما حصل مع شهريار فقامت بعلاجه على نحو غير مباشر، ولا أصح من التلميح بدون تصريح، ولا أقوى من الكناية ولا أفضل من الترميز، بدون مهاجمة هذا للمرضى لمن لا يتحمل، فلا شيء أبغض على النفس من الانتقاد ولا تسكر النفس بخمر كالثناء.

التشدد

لن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه - إن هذا الدين متين فاوغلوا فيه برفق

يقوم الكون على التوازن، وأفضل شيء يتحقق في المجتمع هو العدل، وخير حالة تعيشها النفس هي الصحة النفسية، بتوازن الغرائز والعواطف في حالة وسطية (بين بين)، والشجاعة هي حد الوسط بين الخوف والتهور، وأفضل حالة للطاقة هي أن لا تجمد ولا تتفجر؛ فالكهرباء جيدة عندما ترفع الناس في المصاعد، ولكنها قاتلة إذا نزلت من السماء على شكل صاعقة، والماء جيد إذا حبس خلف السد فاستفاد منه الناس في سقاية الأرض، وهو مدمر إذا جاء على شكل الطوفان.

ويصدق هذا القانون على التدين؛ ولذا جاء تعبير القرآن ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾، فالاستقامة هي الحالة الوسطية بين الطغيان واللامبالاة، وعندما يذكر القرآن عباده الصالحين في الإنفاق يقول عنهم و﴿إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾، فالقوام أي وضعية الوقوف بدون ترنح وسقوط في أي اتجاه هو الاعتدال في الإنفاق بين الإسراف والتقتير، وهو أفضل بسبب نتيجته؛ و«إن مسك اليد يقود صاحبها إلى حكي الناس عنه أنه بخيل»، كما أن بسط اليد بدون تدبير تقود إلى تبخر كل المال فيقع صاحبها في الحسرات وقد يضطر إلى الاستدانة، وأوجزها القرآن الكريم بكلمتين: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾.

ومن هذه المعاني وصل الفلاسفة إلى شيء سموه الوسط الذهبي، وعندما أرادوا تحليل الأخلاق وصلوا في النهاية إلى أن حاصل الأخلاق ينتهي إلى ثلاثة هي: العفة والشجاعة والحكمة، وكل خلق من هذا هو وسط بين حدين، وبتعبير (أرسطو) أن كل فضيلة هي وسط بين رذيلتين، وما أريد أن أقوله في هذا التحليل أننا نُواجَه بين حين وآخر بتشدد لا عقلاني قد واجهه الكثيرون، والمشكلة فيه أن المرء إما أن لا يستطيع أن يُناقش فيه أو يشعر بِعدم جدوى النقاش فيه.

وذكر لي طبيب جراح قصة حدثت معه عندما كانوا في قاعة العمليات، وعلى جانب من الحديث ذكر أحدهم أن الرجل (أفضل) من المرأة بدليل من سورة آل عمران ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ يقول صديقي: إنه شعر أن عليه واجب التدخل في الحديث لإنقاذ الموقف كما يفعل الجراح لإنقاذ المريض من النزف القاتل، فقال له: هذه الفقرة هي من خمس فقرات وردت على لسان امرأة عمران وهي لا تفيد (الأفضلية) بل (الغيرية) مثل لو قلت إن التفاح غير البرتقال أو أن الأرض غير السماء، والقسم من الآية يقول: إن الذكر ليس مثل الأنثى ولم يقل إن الذكر خير من الأنثى؛ فهناك فرق بين الأمرين وفرق خطير لأن الحكم سيختلف، والقرآن دقيق في تعبيراته، والمشكلة هي في تفاوت الأفهام في تحصيل عميق معانيه.

المهم نحن نواجه اليوم مسألتين خطيرتين: الأولى التشدد كما نسمع عن مذابح الجزائر وتشددات الطالبان في أفغانستان، والثانية أن هذه المشاكل لا نقترب من فهمها على الوجه الصحيح إلا بفتح باب الحوار، وهؤلاء المتشددون لا يتحملون الحوار وبمجرد الاختلاف معهم يبدؤون في صب التهم ومن النوع الخطير ضد الآخر لحرق أوراقه عند الرأي العام لأن تأثيرهم كبير وصلاتهم الاجتماعية واسعة، إنها محنة يخوضها الفكر العربي هذه الأيام.

حقيقة القوة أم قوة الحقيقة؟

(تفكيك سيكولوجي لميكانيزم استخدام القوة في المجتمع ونتائجها)

عندما سقطت (سنغافورة) في يد اليابانيين في الحرب العالمية الثانية، وقع في شباك الأسر مجموعة من النساء الغربيات، كان أول شيء فرض عليهن في معسكر الاعتقال، الاعتياد على الطاعة، في صورة الانحناء إلى درجة الركوع، وعندما تحدث (غاندي) إلى العمال في جنوب أفريقيا، قال لهم: يجب أن نحرر الإرادة من الطاعة للنظام العنصري؛ فقد يهشموا عظامي، ولكن لن يُروِّضوا إرادتي، ولن يستلبوا النور الداخلي للروح.

واعتبر القرآن أن الاقتراب من الله لا يتم بدون السجود، بعد ممارسة العصيان ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾، ومن نظم المعارضة النسائية في المعتقل الياباني كانت كاتبة صحفية، و(غاندي) طور مع زميله المسلم (عبد الغفار خان)، أسلوب العصيان المدني في القارة الهندية، ضد آلة العنف البريطانية بدون أي عنف، السيدة (سذرلاند) في معسكر الاعتقال الياباني، قضت نحبها في المعتقل بعد سنوات مريرة من العذاب والكفاح، و(غاندي) تم قتله بيد متعصب، كأي فيروس خطير، ينهي حياة إنسان هام.

لا يتم العنف بدون استخدام آلته؛ من التهديد بالتصفية الجسدية بالمسدس، أو الحرمان من الحرية بالسجن، أو العزل الاجتماعي بالاتهام بالجنون، أو فك المتمرد عن مجتمعه بالنفي.

الحاكم الذي يمارس البغي بآلة العنف؛ قد يأخذ رضوخاً من الأمة،

ولكنها تمارس المقاومة بطريقتها الخاصة، بالانفجار اللاحق، أو إعلان حالة الإضراب العام الخفي والانسحاب من الحياة.

العالم العربي اليوم يمارس كله الإضراب الخفي في ثلاثة أشكال: بتدني الإنتاجية، وتعطل الخدمات الأساسية، فنرى نظافة البيوت من الداخل، وقذارة الشوارع العامة في الخارج، وأخيراً بتخريب المرافق العامة من ضوء وشجرة وعامود كهرباء، في شهادة صاعقة عن تمزق الشبكة الاجتماعية، وتحول المجتمع إلى شبح، بانتقام مبطن من فرد مُهان أمام دولة تغولت.

المواطن العربي يُعلن عن حضوره بما هو أشد من الغياب، مواطن بلا وطن، يفقد القاعدة الفيزيولوجية لمعاشه من طعام ومسكن وجنس، مع تبخر الأمن الاجتماعي، بدون أية ضمانات، فلا أمان لأي شيء أو إنسان، في أي مكان أو زمان، في مجتمع تقع إحداثياته خارج التاريخ والجغرافيا، يعيد ضخ الحياة في أصنام قريش الميتة، اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، في قسمة ضيزى.

القوة مغرية تثير الشهية لامتلاكها، ولكنها مصيدة مشؤومة للحاكم والمحكوم، القوة أداة ممتازة لممارسة الإكراه، ولكنها تولد الخوف، والخوف نسيج خبيث مدمر يفرز هورمونات الكذب.

المواطن العربي اليوم أتقن دور التمثيل تماماً، مثل حيوانات السيرك، فأجاد التمجيد والرقص والتصفيق، يكذب علناً، ويعلن سراً، تحت مقولة شعبية راسخة (اليد التي ما تقدر تعضها... بوسها وادعي عليها بالكسر)، أو بتعبير الفرزدق عندما ودع الحسين باتجاه المذبحة: قلوبنا معك وسيوفنا عليك، في تنزيل جديد لسورة المنافقين، وانشقاق في الضمير العربي بين الإرادة والقدرة إلى يوم يبعثون.

قد يغتصب رجل امرأة، تحت التهديد بالسلاح؛ ولكنه لن يقطف الحب مطلقاً؛ بل يزرع الكراهية، ويحصد الانتقام. وقد يغتصب الفرد إرادة أمة بالجيش والأمن، ولكنه يحصد إضراباً خفياً عاماً، وتحويل المجتمع إلى فريق من الصيادين يصطادون الفرص، فلم تعد الخدمات العامة حقاً دستورياً.

الإكراه يُقابَل بأحد شعورين، حسب حجمه، بالمقاومة، أو الخوف، ويتظاهر الأخير بالهرب أو الاستسلام الذليل؛ فكلها آليات تدعم الخوف، وكما يقول عالم النفس السلوكي (سكينر) متسائلاً عن علاقة المشاعر بالأفعال: هل نهرب لأننا نخاف؟ أم نخاف لأننا نهرب؟ نحن نرى العقرب فنخاف من لدغه؛ فنسرع إلى سحقه لشعورنا بالتمكن منه، ولكن رجل السلطة نخاف منه؛ فتبيض وجوهنا ذعراً منه.

الخوف يُعالَج بالكذب أو التملق حسب معدن الإنسان وجرعته، إذا زادت جرعة الخوف تحول إلى هلع يدشن بطقوس الوثنية، والتقديس الكاذب.

المواطن العربي ولد في مجتمع الخوف، مذنباً بدون ذنب، مداناً على بصمة الحبل السري، مكتوب عليه الخوف يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً.

تنقل لنا النظريات المعاصرة للطب النفسي ثلاث ملاحظات عن بحر النفس الداخلي وتموجاته (INTRAPSYCHIC) أن كل شعور يولد شعوراً لاحقاً، وكل شعور يتفاعل مع الآخر، وأن المشاعر السلبية التي يجهد الذهن لطردها إلى الخارج؛ تكافح لتعود مرة أخرى إلى حقل الروح، الشعور بالإحباط يولد العدوانية، والشعور بالخوف من شخص يرتبط بالكراهية، كذاكرة سلبية، والحقد كما يقول (أبو حامد الغزالي) هو جرعة الكراهية بتركيز قاتل.

إذا زرعت بذور الكراهية نمت شجرة العنف بكل قوة، لتعطي ثمراتها من الخوف، الشجرة الجيدة تعطي ثماراً يانعة، والشجرة الخبيثة تعطي ثمرات رديئة، ومن ثمراتهم تعرفونهم، فهل تنبت شجرة التين حسكاً، أم تنبت الجنان من أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل؟ شجرة العنف جذورها الكراهية وثمرتها الخوف، وشجرة السلام جذورها الحب وثمرتها الأمن.

أربع أشياء في الحياة تستحق السؤال: مم صُنعت الروح؟ ما هو المقدس؟ ما هو الشيء الذي يستحق أن نعيش لأجله؟ أو نموت في سبيله؟ والجواب يُختصر في كلمة واحدة: الحب.

هناك خمس محطات متماسكة لبرمجة العنف في المجتمع، ولكنها تبدأ من صنم يجب تحطيمه بأشد من أصنام إبراهيم: «القوة»... فمن رَحِمْ القوة يتولد «الإكراه»، ومن آلة الإكراه ينشأ «الخوف»، ومن تربة الخوف ينمو «الكذب»، ومن مستنقع الكذب تولد مشاعر «الكراهية»، والكراهية تبرمج «للعنف» في المجتمع، في دورة ملعونة، تزداد اتساعاً باضطراد، من العنف والعنف المضاد، المعلن منه لا يزيد عن رأس جبل جليد التيتانيك، المخفي الشارد في ظلمات الأوقيانوس البارد، يتربص بالمجتمع ريب المنون، في ارتطام يقوده إلى قاع التاريخ على غير موعد، اعتبر القرآن أن أعظم مرضين تبتلى بهما النفس الإنسانية الخوف والحزن، وأن الحقنة الروحية التي تنزل بها الملائكة على عباده الصالحين، هي التحرر من هذين المرضين ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾. الخوف والحزن مربعات التجمد في الزمن، في الماضي أو المستقبل، الإنسان يحزن لما حدث، ويخاف مما سيأتي من الشر، أو هكذا يتوهمه.

ولكن كيف يتحرر الإنسان من الخوف ويلغي العنف من المجتمع؟

إذا كفرنا بصنم القوة، سطعت شمس الفكرة؛ فينكسر مسلسل العنف، ويستبدل بمسلسل الرحمة، طالما لم تعد (القوة) المؤسسة المركزية في بناء المجتمع.

مسيرة الإنسان في التاريخ اعتمدت (القوة) كآلة تفاهم، ومسيرة الأنبياء اعتمدت (الفكرة) كأسلوب تخاطب؛ فأجمل ما في الإنسان جهازه العصبي، وليس العضلي، وأفضل ما يستخرج من الإنسان بالإقناع، وليس الإكراه، وأعظم ما في الوجود قوة الحقيقة، وليس حقيقة القوة. ينقسم العالم اليوم إلى شريحتين، شريحة شمالية تملك كل تقنيات القوة، ولا تحل مشاكلها بالقوة، وشريحة لا تملك التقنية، وهي لا ترى حل مشاكلها إلا بالقوة، وينزف اقتصادها في شراء سلاح لن تستخدمه إلا ضد شعوبها أو الجيران، في أشد من حماقة هبنقة وأشعب معاً.

يروي الجاحظ عن الأصمعي أنه سأل يوماً غلاماً: يا بني هل تريد أن تكون أحمقاً، ويكون لك مائة ألف دينار؟ فكر الغلام ثم أجاب: لا يا عماه!... يكرر الأصمعي: ولكنها يا غلام فرصة مثالية للغنى؟ يجيب الفتى: يا عماه أخشَ أن أضيع المائة ألف وأبقى أحمقاً.

نوادر جحا ومغزاها الاجتماعي

شخصية أسطورية من الماضي يضحك المرء عند تذكرها بما تحمل من ظلال الدعابة والفكاهة، لترتسم على الوجه الابتسامة أحياناً، ولا يكتم المرء نفسه أحياناً، فينطلق مقهقهاً بالضحك العالي، متعجباً من تناقضات التصرفات التي تواجه كل منا في موقف من المواقف، ولكنها شخصية تمثل العقل الجماعي وخبرة الزمن، الجريدة المتنقلة وهمس الإشاعات، كما تروي التراث وإفرازات الوسط الاجتماعي، بل والنكتة السياسية أحياناً، والتعبير عن مكنونات السر الجماعي بطريقة لاذعة معبرة تفرغ الهم في ضحكة ساخرة، وشر البلية ما يضحك!!

يطل علينا من بعيد رجل عليه ملامح الوداعة والذكاء، على ظهر حمار، قد علت رأسه عمة كبيرة وتلفع بجبة واسعة، ربما كان معاصراً لِ (تيمورلنك)، لا ندري على وجه الدقة، لكن الشيء الأكيد أنه يعيش في داخل كل واحد منا، لأنه أصبح قطعة من التراث الشعبي الذي يشكل المخيلة الجماعية.

هذا الرجل نصف المعتوه، نصف الحكيم، الذي لا يعني ما يقول، ولكنه أحياناً يعني ما لا يقول، ويلقي أحياناً في الجهر وبشكل نكتة ما لا يتجرأ على سماعه الآخرين في السر، لأنه يعبر عن مكنون الضمير الاجتماعي، في شكل قصص ونكت وملح، تروح عن القلب، وتحدث توازن القول والصمت، وتعوض عن محنة السكوت الطويلة، وتصل هدفها بسهولة، وتسجل الاعتراض على الأخطاء الاجتماعية، من رجل أعزل

مسالم وديع، يستخدم النكتة كسلاح في معركة الترميم الحضارية.

إنه يعترض على الصمت الاجتماعي والسكوت المطبق، فإذا تكلم تحدث بلغة لا توقظ نائماً ولا تزعج مستيقظاً. إنه يسجل اللامعقولية في مجتمعنا، الذي يمكن فيه لـ(الطناجر) أن تولد وتموت؟!!.

إنه يؤرخ لثقافتنا لغة الفخامة الفارغة، ومحنة العقل بين كلام لم يعد يرتبط بالواقع، ويتكلم بلغة السحرة. إنه يستعرض التمرد الأحمق في وجه تربية جوفاء، ولكنه التمرد الذي ينبض في غير وقته ويتحرك في غير زمانه، ليقود إلى كوارث جديدة، إنه يسجل لحظات الشعور بالانهيار الاجتماعي الذي لا يملك اتجاهه شيئاً، وفوضى المكان والزمان.

إنه يسجل للعصا دورها في إمكانية تحويل الإنسان إلى كائن يمشي على أربع. كلها صور بديعة من النكتة اللاذعة، والتعليق الساخن، والضحكة العريضة الساخرة، فهذه هي أسلحة الرجل الأعزل. والمشكلة تبقى في عمومها مشكلة (مرض الثقافة) ولذا فهو ينزل إلى بطن المجتمع ليرى علاقات التعامل المالي في (الدين والاستدانة) والتعامل المريض للناس، فيكتشف بُعد الكارثة في أرض الواقع اليومي.

إن معظم نكات جحا هي تسجيل اعتراضات وملاحظات على المرض الاجتماعي. إنه لا يعنى بالفكاهة والتندر التي تتناول مسائل اجتماعية مسطحة، في قضية (الحَمَوات والتندر على أهل الصعيد أو (الحماصنة) أو الفلاحين وأهل الريف عموماً، بل يدخل في نكات واضحة الهدف، قد اتخذت موقعها في مواجهة الكارثة الاجتماعية، التي تغوص في الزمن إلى حقبة بعيدة جداً، منذ أن أعلن العالم الإسلامي أن وقت الرشد قد انتهى.

نموذج الصمت الاجتماعي:

يخرج على الناس فيقول: هل تعلمون بما في صدري يقولون: لا. يقول: إذاً من الأفضل أن لا تعرفوه. وفي الأسبوع الثاني يكرر: هل تعرفون ما أريد قوله لكم؟؟ فيحتارون في الإجابة ثم يقولون: نعم نعرف ما يدور في صدرك!! فيقول: ما فائدة أن أخبركم بشيء تعرفونه وأن تسمعوا ما قد سمعتموه!! وفي الأسبوع الثالث يخرج على الناس فيقول: هل تعرفون ما أريد قوله؟؟ فيحارون أكثر في الإجابة، ثم يروا أن أفضل حل أن ينقسموا إلى فريقين، فريق يقول أعلم، وفريق ينكر المعرفة، وبهذه الطريقة يكونوا قد أمسكوا بطرفي الحل؛ لكن جحا يخرج تماماً من هذا الشق الميت الذي صنعوه ولم ينتبهوا له عند حافة العلم من عدمه؛ ويجيبهم: إذاً فليخبر الذي يعلم من لا يعلم؟!!

جدلية هذه النكتة هي في الصمت الاجتماعي العام، فالخطأ الاجتماعي يقف أمام حصار ومتناقضة واجبي السكوت والقول، وفضّل مجتمعنا منذ القديم وحتى الآن أن يسكت، فلا يقول بما في صدره، ونظراً لأن هذا الوضع غير طبيعي؛ فإن أفضل مسرى له للتنفيس هو في استخدام النكتة، أو ـ وهو أخطر ـ انفجار العنف، فالأفكار طاقة لا بد من تصريفها، إن لم يكن في جدلية الحوار العام، فبالصدام كآلية توازن بديلة.

اللامعقولية في المجتمع:

استعار من جاره طنجرة للطبخ وأعادها إليه في اليوم التالي ومعها صحن!! فتعجب الجار، فلما سأله عن الصحن؟ أجاب: لقد ولدت الطنجرة!! ففرح الجار بذلك وبدأ يعيره أكثر. حتى كان يوماً فتأخر، فلم يعيد ما استعار من الأواني وكانت هذه المرة أواني ثمينة، فسأله عن أوانيه قال: قد ماتت! قال: ويلك كيف تموت الطناجر؟؟ أجاب: من صدق يوماً أنها تلد، فعليه أن يصدق في اليوم التالي أنها تموت!!!

ثقافة المبالغة وفخامة الألفاظ:

اعتدنا في أحاديثنا أن نفخم الألفاظ، ونكثر من التعابير إلى درجة الإسهال، واستولى علينا مركب (الكثرة) إلى درجة الورم المؤذي، وعند اللقاء تبلغ ألفاظ الترحيب طول عدة كيلومترات، وعند أقل الخلافات نتحول إلى أطفال نتراشق بالألفاظ السامة، وكلها علامات على طفولة مجتمع.

كان جحا إذا أراد أن يذكر شيئاً بالغ فيه كثيراً، فإذا أكل فقد شرب البارحة برميل كامل من اللبن، وإذا مشى عَبَر عشرات الكيلومترات، وإذا أنفق كانت عشرات الآلاف من الدنانير قد فرشت الأرض. فنصحه صديقه أن يكف عن هذه العادة القبيحة، فقال: وماذا أفعل؟ قال: إن كنت بجانبك سعلت أو تنحنحت بقدر المبالغة، فإذا انتابتني نوبة سعال رهيبة، فاعلم أنك بالغت بقدر موج البحر!! حتى كان يوماً ضم المجلس علية القوم فتكلم جحا فقال: يا جماعة بنيت مسجداً، قال القوم: خيراً ما فعلت. قال: هل تعلمون ما طوله؟؟ قالوا: لا... مبارك إن شاء الله. قال: خمس وعشرون ألف ذراع!! قالوا بصوت واحد: قد كبرته جداً يا جحا، فسعل صديق جحا حتى أمسكت به موجة لئيمة من السعال كاد أن يختنق بها، فأسرع القوم يضربون ظهره ويقدمون له الماء!! قال جحا سائلاً: ولكن هل تعلمون ما عرضه؟ قالوا: لا شك أنه سيناسب هذا الطول الخيالي!! قال جحا بقنوط: لقد جعلت عرضه ذراعاً واحداً فقط!! فهتف القوم بلسان واحد: قد ضيقته كثيراً يا جحا!! فنظر جحا بعين حولاء إلى صديقه، الذي يرمقه وهو مجهد من سعاله السابق، وتنهد فقال: الله يضيق على الذي ضيق علي!!

عندما ينتفي التفاهم لا يبقى سوى التمرد ولكن متى وأين؟؟

في بعض الظروف يتحول التظاهر بالطاعة إلى ما هو أقبح من التمرد بما لا يقارن.... لنسمع هذه القصة؟؟

كان جحا يعيش في رعاية عمه بعد وفاة والده، وكان يعاكسه في كل شيء ـ لا نعرف لماذا ـ فإذا قال له اذهب إلى اليمين ذهب شمالاً، وإذا قال له انزل صعد، وإذا قال له اخرج دخل وهكذا؟!! حتى كان ذلك اليوم الذي كلف العم جحا وعمال له؛ بحمل أكياس من الطحين على ظهورهم، والعبور بها في مجرى نهر صغير، إلا أن جحا عندما وصل منتصف النهر اشتد دفع الماء وقوي تياره، وبدأ يترنح بين ضغط الماء وثقل كيس الدقيق على ظهره، فارتعب العم وحار ماذا يوصيه؟ ولم يبق أمامه إلا التقيد بتعاليم التعامل اليومي، في جو عدم التفاهم القائم فصاح به: يا جحا.. يا جحا.. ألق الكيس في النهر، فالتفت جحا إلى عمه متهلل الوجه: يا عماه قد كنت مخالفاً لتعاليمك طوال الوقت، إلا أنني قررت هذه المرة أن لا أعصيك.. وفي لحظات كان كيس الطحين يرقد في الوحل والطين!!.

عند الشعور بالانهيار الاجتماعي يبقى السقف أفضل تعبير:

سكن داراً قديمة كان سقفها يحدث فرقعة، وعندما اشتكى إلى صاحبها، قال له: ويلك هذا لا يضر شيئاً، ولعلك نسيت أن السقوف تسبح الله، فإذا سبّحت قرقعت، فأجاب جحا: إن كل خوفي أن تدركها رحمة أكثر فتسجد فوقنا؟!!.

المشي على أربع بالعصا؟!:

حمل جحا أوزة مشوية إلى عمه، الذي يسكن في حلب، وغلبه الجوع وهو في الطريق؛ فأكل إحدى رجليها، وعندما سأله عمه عنها زعم أن الأوز كله خلقه الله برجل واحدة في حلب، ثم أشار إلى سرب الأوز في حديقة عمه، وكان الأوز قائماً على قدم واحدة كعادته وقت الراحة. قام عمه حينها مغضباً: أتسخر بي.. وأمسك بعصا غليظة وهجم على سرب الأوز ملوحاً بها، فطار السرب كله ولم يعقب، التفت إلى جحا وصاح: هل رأيت الآن

أن الأوز في حلب يعدو على قدمين وليس واحدة؛ فأخبرني الآن عن حقيقة الأمر أين ضاعت فخذة الوزة المحمرة؟؟ قال جحا مضطرباً قليلاً: على مهلك يا عماه.. فوالله ما رفعت على أحد مثل هذه الهراوة إلا مشى على أربع وليس ساقين اثنتين!!

إن جحا يؤرخ لنفسه جائعاً بين مواكب الجائعين، الذين قد تنقلب طبيعتهم الآدمية في بعض الظروف تحت التهديد بالقوة.

خبر الحمار الذي ضاع:

عندما ضاع حماره وجاء الشامتون لكي ينقلوا له الخبر الأليم ليروا كيف يستقبله!! قام فحمد الله وبدأ يكرر المزايا التي حظي بها عندما فقد الحمار؛ من هذه المزايا أنه لم يكن على ظهر الحمار عندما ضاع؟!!.

إن جحا بهذه القصة يسجل وضع الاضطراب الاجتماعي عندما يحصل، فعندما لا يبقى أمان للحيوانات يكون الطريق قد فتح لضياع البشر أيضاً، على طريقة قصة الجمل الهارب.

قصة الجمل الهارب:

أبصر جمل صديقاً له من الجمال شارداً على وجهه لا يلوي على شيء، وقد بدا الذعر في عينيه وانتفخت أوداجه واحمرت عيناه، صاح به الجمل الأول: ويلك مالك ولم كل هذا الرعب؟؟ أجاب وهو منطلق بكل جموح: لا تسألني ففي المدينة يعدون الآذان؛ فإذا عثروا على أحد منا معشر الجمال، أو أحد الحيوانات يملك أربعة من الآذان قطعوا الأذنين الزائدتين!! صاح به صديقه: وأي ضير في هذا فالحمد لله لا نملك نحن معشر الجمال سوى أذنتين جميلتين!! قال الجمل الشارد وهو يشد ركضه باتجاه الصحراء أكثر فأكثر: هذا صحيح ولكنهم يا عزيزي يقطعون الآذان أولاً ثم يعدون فانفد بجلدك قبل الأوان!!

إن أمان الحيوان مرتبط بأمان الإنسان في المجتمع وبالعكس، وينقل لنا التاريخ أن القاهرة في أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي قامت بحملة رعب مكثفة ضد الكلاب، فقتل منهم في وقت قصير قرابة الثلاثين ألفاً، حتى كادوا أن ينقرضوا، ولا نعرف على وجه التحديد: لماذا حقد الفاطمي على هذه المخلوقات المسكينة كل هذا الحقد، فالأمر جد كما نرى، فعندما يضيع حمار جحا، لا يسأل جحا عن حماره أين صار، بل يحمد الله على نجاته بالسلامة.

أتصدق الحمار وتكذبني؟!!

طلب منه جاره أن يعيره حماره ولكنه اعتذر عن الطلب قائلاً: إنني آسف جداً. الجار: خيراً إن شاء الله.. ما المانع؟ وإنني أعدك بحسن معاملته!! فأجاب جحا جاره وهو يتلفت حوله حذراً: الحقيقة يا جاري إن الحمار ـ أجلَّك الله ـ أعطاك عمره البارحة؟!!

في هذه الأثناء اندفع الحمار المختبئ في الزريبة بنهيق شديد!! فرجع الجار إلى جحا: أهكذا يا جاري تعاملني فتزعم أن الحمار ميت وهو حي يُرزق بدليل نهيقه!! يصرخ جحا مستشيطاً من الغيظ: أهذا قدري عندك أيها الجار العزيز؟ أتكذبني وتصدق الحمار؟!!

هذه الواقعة يريد منها جحا بطريقة معكوسة فضح النفاق الاجتماعي، فالمنطق يقول: إن جار جحا على خطأ، لكن الواقع يقول إنه على صواب، وهدف جحا من وراء تقرير هذا التناقض، هو أن يظهر قدرة المنطق على تبرير كذب الناس من دون وعي الناس، فعلينا أن نصدق أن الذي يغرق في كل الموبقات والمخالفات، هو من معدن رائع بمجرد انتسابه بالكلمة للشرف، رغم أن أعمال المذكور تشهد ضده بصوت أعلى من نهيق حمار جحا؟!!

قَبِّل يدي قبل كل شيء؟!!

وعندما جاءه أحدهم ليستدين مبلغاً من المال قال: هل لك في إقراضي مبالغاً من المال؟ جحا: على شرط واحد!! السائل: وما هو؟ جحا: أن تُقَبِّل يدي!! السائل: ولكني يا شيخي أُقَبِّل يدك كل يوم!! جحا: نعم ولكن قَبِّل يدي هذه المرة على نية الدَّين!! السائل: أستحلفك بالله ما وراء هذا الطلب؟ قال جحا: لأنني عندما ـ سأسترد ديني ـ هذا إذا استرددته ـ عليّ أن أُقَبِّل قدميك؟!!

هذه القصة قد تدعو إلى الضحك حقاً ولكن ما يضحك فيها أنها تُمثِّل الواقع بشكل مخفف! هل نروي للقارئ بعض الحقائق (الجحوية) التي يجب أن يعلقها أمامه كل من يبدأ رحلة الدَّين!!

إذا عليك اتباع القواعد الذهبية الخمسة عشر التالية:

القاعدة الأولى: لا تدين ولا تستدين. وإن كنت ولا بد دائناً فأعط مبلغاً بقيمة أو نية الصدقة والهبة..

القاعدة الثانية: إذا ديَّنت فاعتبر المال بحكم المفقود..

القاعدة الثالثة: في حال عودة الدين اعتبر أن الأمر غير طبيعي وضد قانون الطبيعة.

القاعدة الرابعة: يجب أن لا تغضب ولا تحزن ويجب أن تُوطِّن نفسك على هذه الأمور عندما تبدأ رحلة الدين.

القاعدة الخامسة: في الدين أنت تحل مشكلة للآخر أما هو فسوف يخلق لك مشكلة، ما لم ترجع إلى القاعدة الأولى فتعتبر الدين هبة أو صدقة.

القاعدة السادسة: الفرق كبير بين القواعد النظرية المذكورة أعلاه وبين

تصور المعاناة، وطول الانتظار، وعشرات الاتصالات، والشعور بالمرارة في هذه الورطة، وتوغر الصدر، وجيشان النفس، وتنشؤ الحقد، وبزوغ الكراهية، وتشنج العلاقات، وتفكك الروابط العائلية، وشحن النفس بالتجارب السلبية عن غدر الإنسان وخبثه وقلة وجدانه.

القاعدة السابعة: قواعد الدين السابقة تشبه قانون نيوتن في الجاذبية، أي تزداد كثافة القواعد مع القرابة والصداقة، فكلما اقترب الدين في علاقته ازداد إرباك الدين بعلاقات طردية.

القاعدة الثامنة: المعاملة تكشف الدِّين والتقوى، وليس التدين الظاهري، الذي يقود إلى الثقة فيخدع الإنسان، وينقل عن عمر ﷺ أنه كان لا يعتمد على ثقته في الإنسان لأنه (رآه يهمهم ويدمدم في المسجد) بل على قاعدة (هل سافرت معه؟ هل عاملته بالدرهم والدينار؟؟) فهذه هي المحكات الرئيسية لمعرفة معدن الإنسان ودينه الحقيقي، لأن النفس مولعة بالمال مُحبة لرؤيته هاشة باشة لمداعبته وجمعه والتمتع به. ويتولد من هذه القاعدة الرئيسية بعض القواعد الفرعية، فأخذ الدين مثل أكل الحلاوة وإرجاعه مثل نزع الروح، والذي لا يدرب نفسه ذلك التدريب الشاق على إرجاع حقوق الناس يكون أحمقاً من مستوى كبير، بخسارة ثقة الناس وهي أكبر رأسمال يعيش عليه الإنسان. وكما قال عالم الاجتماع (ماكس فيبر): عندما ترى العامل مرقع الثوب وهو يعمل بجد فتأكد أنه يوفِّي ديونه.

القاعدة التاسعة: القاعدة القديمة التي كنا نسمعها عندما كنا صغاراً (الدَّين هَمٌّ بالليل ذُلٌّ في النهار) طواها الزمن وأصبحت من ملفات التاريخ العتيقة، وأصبحت الآن معكوسة، فالدائن قد تحول ليس فقط إلى مدين بل إلى متسول يستجدي دينه ويركبه الهم إذا كان المبلغ كبيراً، وصعدت إلى السطح مجموعة من القيم الجديدة، لا تخطر على قلب إبليس بذاته، حيث

يعمد أحدهم إلى الاقتراض من كل شخص محضه الثقة وعطف عليه، حتى لو كان من أقرب الناس إليه، فكل هذا لا قيمة له في سبيل بناء ثروة كاذبة من عرق الآخرين، حتى إذا اجتمع رأس المال المطلوب تمت المتاجرة والمضاربة به، فإذا ربح ألقى إلى الدائنين بين الحين والآخر من المال الذي فاض من الرأسمال المكدس من جيوبهم بعض الكسرات والنثارات والحطام، أما هو فأكل الدسم والعسل من الربح، ما يعيش به في بحبوحة، وإذا كان العكس فالظروف هي المسؤولة عن هذه الكارثة؟!!

القاعدة العاشرة: من رحلة الدَّين يتم التعرف على (طبائع البشر) وكيف ركبت؟ وهي جديرة بالدراسة بالكشف عن الصفات الإنسانية من الجشع والطمع والمخاتلة والكذب، فليس هناك أكثر كذباً من المديون، وعدم قدرة ضبط النفس وحملها على الواجب الكريه في رد المال بعد أن دخل الجيب، فأخذه كان أشهى من العسل ورده أمرّ من العلقم.

القاعدة الحادية عشر: يتم التورط في الدين عادة بسبب (الطمع) في الربح الموهوم، تحت زعم أرباح فلكية، وفي هذا الباب من القصص الشيء الكثير.

القاعدة الثانية عشر: تقول أن كل دَين رُدَّ بعد عشر سنوات كان قريباً من الصفر بفعل التضخم النقدي، وما بينهما بنسبته من التأخير، والقاعدة تظهر أن من يأخذ الدين جملة يعيده بالمفرق، فصاحب الدين يسترد الدين مثل قطع الصحن الذي رمي به إلى الأرض فأصبح حطاماً مهشماً، وهيهات أن يلتئم صحن بعد هذا الكسر الكبير!!

القاعدة الثالثة عشر: هناك حالة نفسية في علاقة الدائن والمدين بالدين، فالنفس تميل بآليات خفية عجيبة إلى نسيان الدين، وهي أمر غير متعمد، بل هي آلية خاصة خفية تعمل عليها النفس حتى بدون تدخل

صاحبها، ولذا فالدائن لا ينسى دينه، في حين أن المستدين ينسى ما عليه، يتعلق هذا خاصة بالأرقام، ما لم يروض الإنسان نفسه على قواعد أخلاقية صارمة.

القاعدة الرابعة عشر: إذا تدينت مالاً فاعتبره ثعباناً في جيبك يجب أن تتخلص منه قبل أن يلدغك، وإذا أعطيته للآخرين فانساه فهو أريح للبال وأفضل للنفس، وإلا وطّن نفسك على طريق طويل ممض، مليء بالمعاناة، وتنغيص النفس وتعكير المزاج ووجع الرأس المزمن.

القاعدة الخامسة عشر: أصعب مراحل الدين عندما يحتاج الدائن ويدخل حالة عسر، ويتمنى ماله فلا يصل إليه، فهو يتألم من عدم تحصيله، وهو يخاف من أن يستدين، فهو في حالة حرجة لا يُحسد عليها، فإذا نجى من الحقد المزمن، كان من الصالحين بدون نزاع، والأيام تظهر أن معاملة الناس شيء مرعب بحق، ولكن أخلاق الناس لا تنكشف على حقيقتها، إلا في المنعطفات الشديدة من الحزن الشديد والغضب المتأجج والفزع الأكبر.. أو عند الشهوة والمال!!

شخصية جحا الأسطورية التي برزت فجأة في التاريخ تروي الخبرات اليومية الموجعة، وتقص تناقض الكلام والواقع، ولا تعني ما تقول، أو تعني ما لا تقول، تنزع القناع عن الثقافة المريضة المتشكلة عبر العصور، تحولت إلى التراث الشعبي، مخزن الحكمة الجماهيرية، تحاول عن طريق النكتة أن تدخل الوعي لتصحيحه بعملية جراحية من دون نزف أو رض، وتلهم الضمير بكثير من الأفكار الإيجابية عبر ضحكة تصدر من الأعماق.

القرآن والتاريخ
(قصة الطوفان ـ أحدث كشف أركيولوجي)

لا يوجد كتاب اعتنى بالتاريخ وسننه واعتبره مصدر للمعرفة مثل القرآن، ولا يوجد كتاب في تاريخ الجنس البشري أكّد على مفهوم القانون وسنة الله في خلقه كما فعل القرآن، ولا يوجد كتاب وقف عند حوادث تاريخية بعينها، يتكئ عليها ويستفيد، مثلما جاء في القرآن، ولا يوجد أمة لم تستفد من كل هذه الثروة العقلية كما فعل المسلمون، في استعصاء عقليّ عنيد غير مفهوم وغير مبرر ولا عقلاني جداً، حركها من خانة دول المقدمة والعظمى والمركزية، إلى خانة دول التخلف والقاع والاتباع والمحيط والأطراف، في لغز يحتاج فك طلاسمه إلى بحث تاريخي عقلاني موسع لاكتشاف بدايات الخلل.

ثلاث مفاهيم تأسيسية:

فهذه ثلاثة مفاهيم تأسيسية في جدلية القرآن والتاريخ، اعتبر القرآن أولاً التاريخ ليس مجرد حوادث تائهة طائشة عشوائية، لا يضمها خيط، ولا ينتظمها قانون، بل نظر إلى التاريخ أنه تدفق وصيرورة، تمسك حركته مفاصل سننية، وتنير طريقه واتجاهه نواظم كونية غائية عظمى.

واعتبر القرآن ثانياً التاريخ مصدراً للمعرفة، تماماً مثل الطبيعة والنفس، فهذه الحقول الأولية هي كلمات الله الأساسية، والنسخة الأصلية من كلمات الله، التي لا تقبل التزوير، والتحريف، والتبديل، والتأويل المضطرب، والتفسير اللاعقلاني، فصخرة أو جبل، شجرة أم نهر، هرم

فرعوني أم سور الصين، نقش مسماري أم هيكل عظمي، أدل على نفسه بنفسه من أي نص كتب عنه، مهما كان مصدره.

وثالثاً وقف القرآن أمام أحداث تاريخية بعينها، يعتمدها كمقارنة؛ بين ما يولد من بطون الأيام الحبالى، وما بين الحق الذي جاء به. هذا العرض المقارن، يفتح الطريق، أمام علوم قرآنية قد قصر العالم الإسلامي حتى اليوم في تأسيسها، لأنه شخر عبر القرون، وانفك عن الواقع، فكما رسخت ورست واستوت علوم، من أمثال القراءات والتجويد والأحكام والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول، فإن الطريق لم يعبد بعد أمام دراسات من طراز الدراسات التاريخية القرآنية المقارنة، التي سنشرح طرفاً من طبيعتها في نماذج قادمة، وهكذا فإن ينابيع القرآن المعرفية لن تنضب في شق الطريق إلى فضاءات معرفية متجددة.

التاريخ يتحرك وفق قوانين نوعية:

التاريخ إذاً يتحرك وفق قوانين نوعية، والتاريخ مصدر للمعرفة، والتاريخ دراسة مقارنة، فهذه محطات عقلية تأسيسية للمعرفة ومفاتيح كبرى لحركة تجديد العقل الإسلامي، وإضاءة القرآن على نحو غير متوقع. هذا التوجه في القرآن: كمفتاح لبناء العقل السنني، وتوليد العقل الاستدلالي، وتهميش وتحييد الأسطوري والخارق والخلاب، ودخول الباب لفهم أحداث التاريخ وفق قوانين تحمل إمكانية وكمونية التكرار في سياق كوني منتظم، والإشارات القرآنية للأحداث تُشكِّل مفاتيح لفهم حركة التاريخ الإنساني بانعطافاتها المصيرية، في مثل قصة يوسف في القرآن، والعصر الذي عاش فيه، ولماذا استخدم القرآن لفظ (الملك) ولم يستخدم لفظ (فرعون)(١)، ومن مثل الهزيمة العسكرية

(١) يراجع في هذا سورة يوسف حيث تكرر استخدام كلمة الملك على لسان يوسف، في حين استخدمت لفظة فرعون على لسان موسى، مما يوحي بعصرين مختلفين لنظامي =

الساحقة التي مني بها الفرس، في مطلع الربع الأول من القرن السابع الميلادي، في سلسلة تطاحن عسكري، من نوع الحروب العالمية في العصر القديم، يجعلنا نفهم لماذا، وفي هذا الوقت بالذات وفي هذا المكان بالتحديد، في فك أسرار التساؤلات العقلية الخمسة لماذا؟ كيف؟ متى؟ أين؟ ومن؟.

الدقة في التقدير الميتافيزيقي التاريخي:

لماذا يبزغ عصر الإسلام في هذا الوقت والمكان على وجه الدقة؟؟ في تقدير ميتافيزيقي؛ يجلي التاريخ بعضاً من أسراره بعد حين، فلو انبثق الإسلام قبل قرن من ولادته لعاصر قوى مختلفة وإمبراطوريات متماسكة نسبياً.

لا نستطيع أن نفهم شروق شمس الإسلام بدون فهم تاريخي (راداري) معمق، يعرف أن خروج الإسلام في هذه اللحظات التاريخية، سوف يواجه إمبراطوريات محطمة واهنة، استنزفتها حروب مدمرة، فقام الإسلام يكنس بقايا حطام الإمبراطوريتين في الشرق الأوسط، أكثر منه مواجهة هذه القوى. لا يمكن فهم مثل هذه الأمور بدون التشبع بالوعي التاريخي، وإن العرض الذي

= حكم متباينين، ونحن نعرف أن مصر تعرضت لاجتياح عسكري من الشرق الأوسط على يد الهكسوس، الذين جاؤوا من سوريا الحالية بتقنية حربية متطورة، باستخدام الحصان والعربة الحربية، ولم يكن الدولاب معروفاً عند المصريين بناة الإهرام، فكل حملة بناء الإهرامات تمت بدون عربات أو عجلات أو حصان، كما لم يكن الحديد وتصنيعه أو الإسمنت قد أصبحت في متناول اليد، وإنما اعتمدت عضلات الإنسان وذكاءه، واستمر حكم الهكسوس ١٥٠ سنة صعد يوسف فيها إلى منصب حكومي رفيع يعادل رئيس الوزراء الحالي، وتم طرد الهكسوس لاحقاً على يد المصريين من الجنوب، بعد التمكن من تقنية الهكسوس على يد بسماتيك، وانصب غضب الفراعنة على الطابور الخامس العبراني الذي انتشر وتكاثر في زمن حكم الهكسوس عدداً وثراءً ونفوذاً، يكفي أن نعرف لاحقاً أن أحد أغنى أغنياء العالم كان عبرانياً هو قارون، ولكن متعاون مع السلطة الفرعونية على حساب معاناة الشعب العبري كما جاء في التعبير القرآني: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

قام به المؤرخ البريطاني (توينبي) في كتابه تاريخ البشرية[1] يعطي تصوراً عن الوضع، بحيث يمكن فهم دلالة الآية القرآنية ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فهذه التساؤلات تفتح الطريق لإدراك انعطافات التاريخ المصيرية.

في مواجهة أعظم حضارة في العصر القديم:

وتشكل قصة موسى ﷺ نموذجاً مختلفاً وهو يواجه أعظم حضارة في عصره: أمريكا العصر القديم، وهو واضح التصور ودقيق العبارات مع فرعون، أنه لا يريد تغيير المجتمع المصري أو التبشير فيه، وكان يمكنه أن يفعل ذلك، فهو صاحب رسالة. كانت كلماته واضحة وعباراته مقتضبة: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ ليس لأن سدس الشعب المصري، الذي هو كتلة الشعب العبراني، في أسفل قاع المجتمع يؤدي دور الآلة العضلية للإنجاز الحضاري بتنظيم عقلاني فرعوني. أقول ليس لأن موسى ﷺ يتوقع منه إذا خرج به من أرض مصر، سيكون ذلك الشعب وتلك الأمة التي يبني عليها الآمال. إن موسى أوعى من أن يقع في مثل هذا الفخ، مع جيل اعتاد ضرب السياط على ظهره، وأخلاق العبودية.

إن هدف موسى لن يظهر واضحاً في مصر، بل سيكشف عنه النقاب بعد العبور، ومشاكله من صناعة عِجْل الذهب، والتعدي على هارون أخيه، وارتكاب الفواحش، والحنين الدائم لرائحة البصل والثوم المصري، فجهازهم الهضمي لم يتعود الطعام المريء الممتليء بالبروتين والعسل ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ بل ما زالت الأمعاء معتادة على الخضراوات المصرية مثل أخلاق الأرانب تماماً، كما لم ينفعهم، لا سيل المعجزات التسع في مصر، ولا تشقق الصخر في الصحراء فيخرج منه الماء، أو تحريك السحب والغمام تظللهم من حر شمس صحراوية لاهبة.

(١) كتاب تاريخ البشرية ـ تأليف المؤرخ البريطاني جون أرنولد توينبي ـ ترجمة الدكتور نقولا زيادة ـ الأهلية للنشر والتوزيع ـ الجزء الثاني، فصل الحرب الرومية الفارسية.

كان موسى ينتظر أن يدفن هذا الجيل في الصحراء، كي يخرج من ذراريهم خلال أربعين سنة جيل صحراوي جديد خشن، لا يعرف إلا لفح الشمس، والهواء الطلق، واليد العاملة، والحرية والكرامة، في نموذج جديد مختلف جداً عن جيل العبودية في مصر. كان جيل العبور إذاً ليس الأمة التي أرادها موسى، بل كانت المادة الخام، التي سوف تفرز الجيل الجديد، الذي لن يعاصره موسى، بل يشهد تهيئته فقط، ليتحرك به (يشوع) باتجاه الأرض المقدسة.

وتبقى في النهاية قصة الطوفان الذي يدشن لأحداث كونية مفزعة من حجم جراحات مناخية لطوفان لا يُبقي ولا يَذَر، وموت جماعي بالغرق لأمم كاملة، كي يحمل قبطان العالم الجديد النبي نوح عليه السلام، البذور الصالحة من بقايا العالم القديم المهدم، كي يبني عالماً جديداً مختلفاً.

هل الدُسُر هي المسامير؟

استوقفتني في سورة القمر منذ فترة طويلة لفظة (دُسُر) فعندما كنت أشتغل بحفظ القرآن، أفادتني بعض كتب التفسير أنها المسامير المعدنية، فنوح عليه السلام نجار فهو يهيىء السفينة لينجو من الغرق الأعظم، بألواح من خشب ومسامير وقار، ولكن المسامير تعني اكتشاف الحديد وتصنيعه، وهذه لم تعرفها الحضارة الفرعونية مثلاً إلا في القرن الثامن قبل الميلاد، والتاريخ لا يمدنا بأحداث كونية من هذا الحجم في الألف الأولى قبل الميلاد، فالحضارات التي تم إماطة اللثام عن بقايا جثثها، أظهرت الحضارة الفرعونية والسومرية وهي تُسحب في عمق الزمن إلى حوالي ستة آلاف سنة، أي الألف الرابعة قبل الميلاد، وبقايا الفراعنة لم تقدم لنا مادة في طوفان من حجم كوني ضرب الحضارة المصرية، ولكن ملاحم وأساطير بلاد الرافدين نقلت بشكل واضح ومكرر، عن ظاهرة طوفان كوني مريع من حجم فلكي حدث في المنطقة، فهل

كان الطوفان يا ترى فقط في منطقة محددة يجب التنقيب عن حدودها؟

ظهر هذا واضحاً في ملحمة (جلجميش) التي كشف النقاب عنها البحث الأركيولوجي من مكتبة (نبوخذ نصر) الآشوري، في بقايا مدينة نينوى، مدينة الموصل العراقية الحالية، حيث ظهرت مكتبة عملاقة صفحاتها ألواح من الطين قد حفر عليها ما يشبه عمل المسامير، مما جعلها تأخذ لقب الكتابة المسمارية، المكتبة الآشورية هذه أشارت بشكل واضح إلى طوفان أهلك الحرث والزرع والنسل، ولم يبق على شيء في منطقة بلاد الرافدين.

كان عويل الرياح كأنه صراخ المرأة الحبلى وهي تضع:

منذ الألف الثالثة قبل الميلاد استقر في الوعي الجماعي الإنساني قصة طوفان مهول عمَّ المعمورة. تم الكشف عن هذا في حفريات نينوى في منتصف القرن التاسع عشر، على يد شاب إنجليزي اسمه (أوستن هنري لايارد) (AUSTIN HENRY LAYARD) كان في طريقه، في رحلة سياحية باتجاه سيلان عام١٨٣٩م، فأثارت انتباهه حفائر نينوى (الموصل في شمال العراق الحالي) مما جعله يصل لاحقاً إلى الكشف عن تراث أدبي حافل من مكتبة الملك (نبوخذ نصر) باللغة الآشورية، فيها إشارة إلى قصة الطوفان، وكان (هنري رولنسون) الذي كان يعمل ملحقاً عسكرياً في السفارة البريطانية في إيران، ثم «المقيمية البريطانية» في بغداد لاحقاً، قد فك أسرار اللغة الفارسية القديمة من النقوشات التي حفرها الملك الفارسي (دارا الأول) على حجر (بهستون) في كرمان شاه، ويشبه كشف حجر رشيد في إثارته وأهميته، الذي فك ألغازه (شامبليون) الفرنسي في جهد استغرق عشرين عاماً، واخترق الحضارة الفرعونية فأنطقها وبعثها إلى الحياة تروي سحر القرون.

رولنسون فعل نفس الشيء مع حجر (دارا) بجهد استغرق اثني عشر عاماً، اضطره أحياناً أن يشد نفسه بالحبال ويتدلى مثل القرود على ارتفاع ٣٠٠ قدم مُعرِّضاً نفسه لأشد الأخطار في نَهَم علمي لا يعرف الإشباع، دفعه

لمتابعة عمله في العراق، ليميط اللثام عن القصة الكاملة للطوفان، من خلال مكتبة مكونة من خمسة وعشرين ألف لوح من الطين المحروق قد نقشت فيه حروف غريبة بما يشبه وخزات المسمار مما جعلهم يسمونها اللغة المسمارية.

ومما جاء في اللوح الحادي عشر من المكتبة الآشورية وصف رهيب للطوفان: (هبّت الرياح ستة أيام وست ليال طغى السيل والعاصفة والطوفان على العالم. ثار السيل والطوفان معاً كالحشود المتحاربة. وعندما أشرق اليوم السابع انحسرت عاصفة الجنوب، هدأ البحر وسكن الطوفان، نظرت إلى سطح العالم وقد ران عليه الصمت، أصبح البشر كلهم طيناً. كان سطح البحر يمتد مسطحاً كسقف البيت، فتحت كوة فسقط النور على وجهي، عندئذ انحنيت طويلاً، جلست وبكيت، جرت الدموع على وجهي، إذ كان الماء طاغياً في جميع الأنحاء. عبثاً تطلعت بحثاً عن الأرض، ولكن على مبعدة عشرة فرسخاً ظهر جبل، وهناك رست السفينة، ثبتت السفينة على جبل نيصير، ثبتت ولم تتزحزح[(١)].

ولعل اليهود من سبي بابل حملوا معهم هذه الأساطير فجاء ذكرها بشكل واضح في العهد القديم، باختلاف أن المياه التي تدفقت لم تكن أسبوعاً، على الرواية الكلدانية للطوفان، بل دام تدفق المياه أربعين يوماً، وهكذا تم تسجيل طوفان مرعب في الذاكرة الجماعية للجنس البشري.

رواية العهد القديم:

وإذا كان الطوفان في ملحمة (جلجميش) قد استغرق أسبوعاً من تدفق المياه بدون توقف، فهي في العهد القديم أربعين يوماً، وبالطبع لا يمكن

(١) ملحمة جلجميش (THE EPIC OF GILGAMESH) حققها ونقلها إلى الإنجليزية ن. ك. ساندرز (N.K.SANDARS) ترجمة محمد نبيل نوفل وفاروق حافظ قاضي ـ دار المعارف بمصر ـ ص٩٠.

مقارنة الدقة والبلاغة الموجودة في القرآن مع النص الذي سنورده: وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض. وتكاثرت المياه ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض. وتعاظمت المياه وتكاثرت جداً على الأرض. فكان الفلك يسير على وجه المياه. وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الأرض. فتغطت جميع البلاد الشامخة التي تحت كل السماء. خمس عشر ذراعاً في الارتفاع تعاظمت المياه. فتغطت الجبال. فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التي كانت تزحف على الأرض وجميع الناس. كل ما في أنفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة مات. فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء فانمحت من الأرض. وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط. وتعاظمت المياه على الأرض مائة وخمسين يوماً[(١)].

عرض القرآن لقصة الطوفان:

وجاء عرض القرآن يؤكد الخراب المرعب الذي ترتجف له المفاصل، من طوفان تتحرك أمواجه كالجبال، وتحولت السماء إلى مصبات مائية كونية تصب دفعة واحدة، في الوقت الذي تنسطم كل تصريفات الأرض الصحية، ليس لتشفط الماء إلى أعماقها، بل لتتدفق المياه منها بشكل مقلوب جداً، في إشارة عجيبة لبدء تنفيذ العملية من تنور هو بالأصل للخبز، لتتدفق منه المياه في مشهد صارخ على انقلاب الحياة العادية بالكامل. في حالة إشباع مائي للأرض لم تعرفه من قبل ولا من بعد.

حدث كوني من هذا الحجم وسفينة معالجة في الغالب بألواح الخشب وألياف (الدسر)[(٢)] تربطها والقار تطلى به لمنع تسرب الماء، كله يشير إلى

(١) العهد القديم ـ سفر التكوين ـ الإصحاح السابق ص١٣.

(٢) جاء في كتاب لسان العرب لابن منظور الأفريقي، الجزء ٤ ص٢٨٤ و٢٨٥ عن لفظ =

حدث (ما قبل تاريخي) (PREHISTORIC) والمعلومات الجديدة التي تدفقت اليوم من خلال تعاون مجموعة كبيرة من العلماء من خبراء المحيطات والجيولوجيين، التي تنقب كل شبر في الأرض، وصلت قبل أسابيع قليلة في نهاية ديسمبر من عام ١٩٩٦م إلى اختراق معرفي جديد في قصة الطوفان. ولا يعني هذا معلومات يقينية نهائية، بحيث تركب الآية القرآنية عليها، فهذا فضلاً عن أنه ابتسار للعملية التاريخية، وتهالك على تصديقات لم تقل الأرض فيها كل الحقيقة، ولكنها تنفع في تقريب قصة الطوفان، الذي تحدثت عنه كل الكتب القديمة والأساطير وانتهاء بالقرآن في عملية إجماع غير معهودة لحدث من حجم فلكي، وشهادة لذاكرة جماعية إنسانية، تعرضت لحدث كوني غير قابل للمحي من الذاكرة الجمعية.

أخبار الأرض هي النصوص الجديدة التي تتكلم:

كانت النصوص المكتوبة هي التي تتكلم، ولكن النص الجديد الذي تكلم الآن تحدث بلهجة ولسان جديدين: من باطن الأرض، والحفريات وبقايا الرسوبيات، ونحت الطبيعة، وتآكل الشواطئ، وحديث الأوقيانوس، وبقايا الحيوانات المحفوظة في براد الطبيعة. تروي قصة عجيبة حدثت قبل ٧٥٠٠ سنة في نهاية العصر الحجري، مع العصر الحجري الحديث، بعد الثورة الزراعية وقبل انطلاق الحضارات، عن تحول جغرافي، وانقلاب كوني، وقصة بداية اشتعال زناد انبعاث الحضارات من رقدة المجتمعات البدائية، ففي هذه الحقبة كان الجنس البشري قد شق الطريق إلى الثورة الزراعية وبدأ في اختراع الأدوات البدائية الأولية، وتكاثر حول بحيرة عظمى

= دسر: والدسار خيط من ليف يشد به ألواح السفينة وقال الزجاج: كل شيء يكون فيه نحو السمر وإدخال شيء في شيء بقوة... وفي تصوري أنه إذا تم استخدام مسامير فكانت من نوع الأسافين الخشبية بسبب عدم معرفة الحديد في ذلك الوقت الغارق في القدم.

في منطقة خضراء غناء هي البحر الأسود، الذي لم يكن يومها بحراً بل بحيرة حلوة المياه، أقل حجماً بقليل من البحر الأسود الحالي، وإذا نظرنا إلى الخريطة فسوف نرى أن البحر الأسود ينفتح بمضيق البوسفور، حيث تجلس على حافته الغربية مدينة القسطنطينية التي سيصبح اسمها استانبول، ليفتح بعدها على بحر صغير هو بحر مرمرة، ثم ليضيق مرة أخرى ليشكل المضيق التاريخي، الذي عبره الملك الفارسي (كزركسيس) للهجوم على اليونان المعروف (بالهلسبونت): الدردنيل حالياً، أو الذي سيهجم منه الحلفاء على تركيا في الحرب العالمية الأولى، في هجوم خائب على جزيرة غاليبولي، كلف الحلفاء مئات الآلاف من القتلى. التشكل الجغرافي إذاً: بحر مرمرة ومضيقان للأعلى والأسفل الأول البوسفور الذي يشكل عنقاً يتصل بالبحر الأسود، والثاني قناة ضيقة تصل الأسود بالمتوسط. ولكن قبل ثمانية آلاف سنة لم يكن الوضع الجغرافي هكذا، حيث لم يكن هناك وجود للبحر الأسود، بل كانت بحيرة مفصولة عن المتوسط بعتبة صخرية ضيقة بدون فتحة، تمتد خلفه البحيرة العظمى الحلوة بشعوب تتكاثر على شطآنها، تتمتع بحياة راقية في مستوى شعوب تلك الأيام، بعد أن قفز الإنسان من حياة الغابة والجوع، إلى إنتاج الطعام والتحول من حياة الصيد وجمع الثمار إلى الثورة الزراعية، وتشكيل المدينة، وتنظيم العمل وتخصصاته، وبداية شق الطريق إلى الحضارة.

تحول كوني مفاجئ:

وفجأة يحدث تحول كوني بارتفاع مستوى مياه المحيطات غالباً من ذوبان جليدي كوني قبل ٧٥٠٠ سنة بشكل صدمة، مما يحرك مستوى المياه وحركتها، بفعل تغير درجات الحرارة، لتتحرك أمواج عملاقة عاتية قادمة من البحر المتوسط إلى مضيق الهلسبونت (الدردنيل) فبحر مرمرة لِتَضْرِب بكُلِ عنف العتبة الصخرية حذاء البوسفور، ثم تحدث الكارثة ويتم خرق البوسفور، ليصبح مضيقاً سوف تجلس عليه لاحقاً بعد آلاف السنوات من

طوفان نوح أجمل عواصم الدنيا. ومن هنا تبدأ قصة الطوفان الذي طُرح للنقاش في نهاية العام الفائت كسيناريو محتمل. الذي وصفه العالمان الأمريكيان اللذان وصلا إلى تأكيده عن طريق عمل قامت به سفينة بحث روسية في البحر الأسود عام ١٩٩٣م، كل ما فيه أنه يشبه طوفان نوح الموصوف بفارق واحد، أنه أسوأ بكثير مما جاء في الكتب المقدسة، فالماء حسب العهد القديم يرتفع ١٥ ذراعاً ولكنه في السيناريو الجديد ما يزيد عن ١٥٠ متراً.

سيناريو الطوفان حسب الكشوفات الجديدة:

مع مطلع العام الميلادي الجديد ١٩٩٧ تم الإعلان عن كشف آركيولوجي مثير تقدم به فريق علمي جيولوجي أركيولوجي أمريكي[1]، وقد قدم البحث في نهاية العام ١٩٩٦ كل من العالمين الأمريكيين (ويليام راين) (WILLIAM RYAN) و(والتر بيتمان) (WALTER PITTMAN) أثار ضجة علمية في نقابة الأبحاث الأمريكية، لبقايا طوفان اجتاح منطقة القوقاز، وأوكرانيا وبلغاريا والمنطقة المحيطة بالبحر الأسود الحالي، واندفع بكل جبروت، عندما ارتفع مستوى المياه فجأة في المحيطات والبحار قبل ٧٥٠٠ سنة في نهاية العصر الحجري، أو ما يعرف بالعصر الحجري الحديث، وكانت منطقة البحر الأسود بحيرة داخلية مغلقة، تعيش على ضفافها قبائل شتى تنعم برغد العيش، طورت نظام الزراعة وشيئاً من الأدوات البدائية، وأمام هذا الاجتياح المرعب لمنسوب المياه صدمت الأمواج العاتية العتبة الحجرية في غرب تركيا لتخرقها وتشكل مضيق البوسفور، ولتتدفق كميات هائلة من المياه وكأنها تغلي في قِدر، لتملأ البحيرة بقوة اندفاع وعنف يزيد عن قوة تدفّق شلالات (نياجارا) بـ ٤٠٠ مرة، ليتحول البحر الأسود إلى ما

(١) العدد الأول من مجلة (دير الشبيجل) الألمانية لعام ١٩٩٧م ص١٣٨.

يشبه (البانيو) الذي امتلأ بالماء و(طفطف) من حوافه، بحيث أن المياه زحفت تفترس بغير رحمة حواف البحيرة بمعدل كليومتر يومياً، لتصل إلى عمق مائة كيلومتر عندما هدأ الطوفان. مما جعل المناطق المحيطة بالبحيرة تتحول كلها إلى عالم سفلي تحت الماء، ولتغرق مستودعات غلال حبوب الجنس البشري في تلك الأيام، بالماء المنهمر من أبواب السماء، والمتفجر عيوناً من الأرض، كما وصف القرآن، لتغمر مساحة مائة ألف كيلومتر بارتفاع ١٥٠ متراً، في حوض مالح اقتلع كل أثر للحياة من المياه الحلوة، التي كانت عامرة تدب بالحياة في أعماقها بما فيها الديدان، كما دلت على ذلك أعمال الحفر وتحليل الرواسب البحرية، التي قام بها علماء المحيطات والأركيولوجيا والاختصاصيين بالأساطير والميثيولوجيا الشعبية، من التي نقلتها سفينة روسية حفرت في عمق البحر الأسود. المنطقة الوحيدة التي شمخت ونجت من إعصار الطوفان كان منطقة القرم، وأما الشعوب التي استوطنت هناك في منطق غناء محيطة بالحيرة القديمة الجميلة ذات الشواطئ اللازوردية الخضراء، فكانت بين خيار الغرق أو النجاة بالهرب من المنطقة كلها، وكانت هذه الحركة ذات أثر إيجابي كما ذهب إلى ذلك العالم الأركيولوجي البريطاني دوجلاس بايلي (DOUGLASS BAILEY) الذي رأى أن هذا الإعصار الكوني بين الغرق والموت الجماعي، وبين الهجرة حذر الموت، قادت إلى انتشار تقنية زراعة الأرض، ونقلت بدايات الحضارة إلى مناطق متفرقة من الكرة الأرضية، وسارعت في بزوغ الحضارة. فهذا الطوفان المدمر كان زناد الاتقاد لمشعل الحضارة.

إعادة صناعة طوفان نوح بيد إسرائيلية وبقنبلة نووية!!

بقي أن نقول في آخر المطاف: إن حرب الخليج الثانية ١٩٩١م جلبت معها أخبار جهنمية عن أحبار اليهود العلماء، الذين يعيشون على عقلية التوراة قبل ٧٥٠٠ سنة، حيث ثم إماطة اللثام عن أخبار سرية، من تفكير

إسرائيلي مدروس بدقة[1] عندما ازداد وخز رشق إبر الصواريخ، والاندفاع إلى استخدام أسلحة الدمار الشامل، أن يفكروا جدياً في اصطناع طوفان نوح جديد من حجم أفظع هولاً وأشد نكراً، فاستنفرت إسرائيل سلاحها النووي، وخططت لضرب السد العراقي، بحسابات دقيقة، لإنتاج طوفان نوح من مستوى عصري، فلو تم ضرب السد العراقي الواقع في المنطقة الشمالية من بغداد فسوف تتدفق كمية من المياه تكفي لإحداث موت جماعي بالغرق لمليون ونصف من السكان، بحيث تغرق الموصل وما حولها بالكامل، ليصل منسوب المياه في النهاية حذاء بغداد إلى حوالي المترين؟!

فأرسلنا عليهم سيل العرم:

إن سد مأرب الذي يتحدث عنه القرآن بأن أهله كانوا يعيشون على جنبه بين جنتين عن يمين وشمال، تحولت بعدها بفعل تدفق سيل عرم إلى بقايا من أعشاب جافة وشوك مؤذي[2] و﴿أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، الذي انفجر عليهم عندما فجروا وحادوا عن الخطة الكونية، بضرب من الذنوب والأخطاء لا نعرفها على وجه التحديد ما لم نشق الطريق إلى الدراسة المقارنة التي أشرنا إليها. فبأخطاء قليلة ينهار السد، ويندفع الماء المحتقن، يكفي أن يخرق بمقدار أصبع، وينام الناس عن الخطر ليتدفق عليهم، ومعه انهيار حضارة بكاملها يمزقون شر ممزق تحت رحمة الطوفان.

---

(١) نشرت هذا الخبر مجلة (دير الشبيجل) الألمانية وقتها، حيث أزيح النقاب عنها عندما وضعت الحرب أوزارها.

(٢) لم أفهم الآية القرآنية حتى زرت اليمن وسد مأرب الذي بنت دولة الإمارات في موضعه سداً جديداً ولكن أضيق مسافة وبكلفة مائة مليون دولار، وقامت جامعة دارمشتات من ألمانيا بإعادة تركيب خطة البناء السابق بالكمبيوتر والقدرة الهندسية الحضارية التي يملكها أهل اليمن منذ ذلك الوقت وصلّيت بجانب السد وقرأت آيات سورة سبأ فانفتحت المعاني تماماً أمام عيني.

قانون الحب وقانون العنف

كتب (تولستوي) الروائي والمفكر الروسي كتابه الشهير عن الحب والعنف مفككاً آليات (اللاعنف والعنف) انطلاقاً من قانون الحب والكراهية، فالسلام ينبع من الحب، والعنف يضرب بجذوره النفسية في تربة الكراهية الخبيثة.

وذكر القرآن عيسى ﷺ محفوفاً بالسلام يوم وُلِد ويوم يموت ويوم يُبعث حيّاً، وفي الوقت الذي كان المسيح يحثّ أتباعه على تدريب قاسي للنفس في وصية يصعب تطبيقها (أحبّوا أعداءكم وأحسنوا إلى مُبغضيكم) كان القرآن يَذكر الصحابة وهم ينجحون في امتحان التخلص من الكراهية ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾ فالمريض يعالج بالحب والرحمة لا بالقتل، الطبيب الذي يعالج مريضه بالقتل يتحول إلى مجرم يرتدي معطفاً أبيضاً.

كشوفات علم النفس:

ويذكر (إبراهام ماسلو IBRAHAM MASLOW) من مدرسة علم النفس الإنساني الحديث أن هرم الحاجيات عند الإنسان يصعد من الحاجيات الفيزيولوجية إلى قمة الهرم بتحقيق الذات من خلال قانون الحب، فبدون الحب تنطفئ بهجة الحياة، ويرى عالم النفس الأمريكي (براين تريس) في أبحاثه حول (علم نفس النجاح) أن العواطف السلبية تشبه السيارة التي تمشي والفرامل (معلقة) تكبح الحركة، ويقرر أن الإنسان يأتي إلى هذه الحياة دون مشاعر سلبية، وأن بالإمكان أن يعيش بدون مشاعر سلبية.

الأنثروبولوجيا والبيولوجيا:

ويطرح عالم الأنثروبولوجيا (مايكل كاريذرس MICHAEL CARRITHERS) في كتابه (لماذا يتفرد الإنسان بالثقافة؟ WHY HUMANS HAVE CULTURES?) معقباً على سؤال سقراط القديم الذي ظل صداه يتردد عبر القرون: كيف ينبغي للمرء أن يحيا؟ بسؤال أنثروبولوجي محوري: (يسأل علماء الأنثروبولوجيا سؤالاً آخر وثيق الصلة: كيف نحيا معاً؟ ويفضي هذا السؤال إلى مجموعة متنوعة من المشكلات ليس من نحن؟ بل كيف نترابط مع بعضنا البعض؟[1].

وطرح الطبيب (جوزيف فاكانتي JOSEPH VACANTI) من جامعة بوسطن تدشين رائع لاستنبات الأعضاء (ORGAN CULTURE) انطلاقاً من تفاهم و(حب) عميق بين الخلايا يعتمد لغة كيمياوية سرية[2].

خطاب الشعر والتصوف:

وقام (الصوفية) علماء نفس العالم القديم؛ بدراسة معمقة لفهم آلية الحب، وتدريب أتباعهم على اعتماد هذا الخطاب؛ لتحلو الحياة بين زوابع الكراهيات، وانحراف السياسة، وجو الحروب، وفساد المجتمع، واعتمد الشعراء في حيز لا يستهان به على توظيف القوافي لهذا المعنى السامي من حب الإنسان لأخيه الإنسان، واختصرت (رابعة العدوية) هذا المزيج من الشعر والتصوف في بيتين من الشعر عن معنى حب الله:

فليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب

---

(١) لماذا يتفرد الإنسان بالثقافة ـ سلسلة عالم المعرفة، رقم ٢٢٩، تأليف مايكل كاريذرس، ترجمة شوقي جلال، ص١٩.

(٢) مجلة دير الشبيجل الألمانية (DER SPIEGL) عدد ٥٠، عام ٩٧، ص١٩٢.

حديث الفلسفة:

ورأى الفيلسوف (باسكال) تناقضاً غير قابل للحل في كينونة الإنسان بين الحب والحزن، والقداسة والنجاسة؛ فالإنسان ينبوع للحب و«بالوعة» للضلال والشك: «وطبيعة الإنسان التي يمتزج فيها الملاك بالوحش امتزاجاً شديداً تكرر التناقض بين العقل والجسد وتذكرنا بـ(الكمير) الذي زعمت الأساطير اليونانية أنه عنزة لها رأس أسد وذيل ثعبان... يا لهذا الإنسان من كمير!! يا له من بدعة ووحش وفوضى، وتناقض ومعجزة، هذا الحكم في كل شيء، ونموذج الغباء في الأرض، مستودع الحق، و«بالوعة» الضلال والشك، مفخرة الكون ونفايته، فمنذا الذي يحل لنا هذا اللغز المعقد؟؟ وشقاء الإنسان لغز آخر، فلم شقي الكون هذا الشقاء الطويل لينجب نوعاً من الخليقة شديد الهشاشة في سعادته، كثير التعرض للألم في كل عصب، وللحزن في كل حب، وللموت في كل حياة؟؟»[(١)].

وعلق الفيلسوف الألماني (فردريك نيتشه) على إنشاء وزارات الدفاع أنها خطاب واضح لسوء النية في الآخرين؛ فنحن هكذا قررنا أن جيراننا سيهاجموننا؛ فعلينا بالترس والتحصن وبناء (وزارات الدفاع) والحروب عادة تأتي من أجواء متوترة في العلاقات من هذا النوع، آلية الدفاع المزدوج؛ فكل طرف يدافع عن نفسه، وكل طرف يتهم الآخر أنه هو الذي بدأ بالهجوم؟!!

التاريخ والحضارة وآليات الحوار:

وتروي لنا قصة الأوديسة أن ملك (إيتيكا) (أوديسوس) الضائع في

---

(١) باسكال، نوابغ الفكر الغربي، بقلم الدكتور نجيب بلدي، دار المعارف بمصر، ص١٠٢.

رحلة العودة إلى بيته أن حلاوة الحب كانت له عزاء في عالم مليء بالقسوة والعنف.

ولا يمكن أن يدور أي حوار وينتهي بنتيجة خصبة مثمرة في جو مشحون بالغل والكراهية؛ فالحب والاعتراف بالآخر وعدم تهميشه وإلغاءه قاعدة أساسية لإدارة دفة الحوار؛ ومنه فإن خطاب السياسي الأمريكي (صامويل هانتجتون) في صدام الحضارات ينطلق من أرضية مشبعة بالريبة والشك، والعنف الخبيث، وإلغاء الآخر ومركزية الذات.

لعله ينفعنا في يومياتنا أن نتبنى قواعد للحوار صارمة نربي أنفسنا عليها، في محاولة استنبات وسط الحب فنقول مخاطبين أنفسنا مع كل حوار قد يكون ساخناً:

أن أروض نفسي على قواعد للحوار صارمة:

١ ـ أن لا أنفعل مهما حدث.

٢ ـ أن لا أغلط في حق الآخر مهما تحدث (كلمة جارحة، استهزاء، سب، استخفاف).

٣ ـ أن لا أرفع صوتي مهما تحدثت.

٤ ـ أن أصغي للأخير قبل أن أجيب.

٥ ـ الاستعداد للتراجع إذا تبين الخطأ.

٦ ـ أن لا أخاف أمام التهديد.

٧ ـ أن لا أكره أو أحقد على المختلف معي.

٨ ـ الاستعداد للاعتذار حتى لو خامرني الشعور أنني لم أخطيء، احتراماً لشعور الآخر أنه أسيء إليه، فأحد تجليات العنف اللفظة السامة والتعبير الحاقد.

٩ ـ أن أجعل جو الحديث ودياً بالابتسامة العذبة، والنكتة البريئة، والتعليق اللطيف.

١٠ ـ أن أذكر نفسي بالقواعد السابقة، ولا مانع من وضع الورقة أمامي حتى تنغرس في اللاوعي.

من هذه الحزمة من خيوط علمية وفضاءات معرفية شتى، من الأدب والدين وعلم النفس والأنثروبولوجيا والبيولوجيا والتصوف والشعر والفلسفة والتاريخ وعلم الحضارات وآليات الحوار وديناميات التفكير، نرى بين أيدينا (تركيباً) وخارطة وجودية عن معنى الحب كشرط وتجلي أساسي للحياة.

الكلمة الطيبة والخبيثة وثمراتهما:

إذا كان العنف شجرة خبيثة جذورها الكراهية وثمرتها الخوف، وجوّها اعتماد الخطاب اللاإنساني في اللفظة السامة وتعبيرات الوجه الحاقدة، وانتهاء باستخدام أدوات الأذية الفيزيائية، ابتداء من الحجر والهراوة وانتهاء بالصاروخ النووي؛ فإن شجرة السلام جذورها الحب وثمرتها (الأمن) الذي عبّر عنه الخطاب الإبراهيمي القديم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

اعتبر القرآن أن فكرة العنف تنمو ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ تماماً كما تنمو شجرة (الحب). كلا الشجرتين تمنحان ثماراً. شجرة العنف لها ثمار وشجرة الحب لها ثمار، شجرة العنف ثمرتها الخوف والتدمير، وشجرة الحب ثمرتها الأمن والسلامة، لذا اعتبر القرآن أن الكلمة الخبيثة تصبح شجرة ولكنها (تجتث من جذورها) ما لها من قرار؛ أما شجرة الكلمة الطيبة فأصلها ثابت وفرعها يضرب في السماء ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.

يظن بعض الناس أن الكلمة الخبيثة لا تنمو، ولكن القرآن ينص على أمر ملفت للنظر أن الكلمة الخبيثة تنمو وتصبح شجرة، وكذلك العنف فهو

شجرة خبيثة جذورها الكراهية وثمرتها الخوف؛ ولكنها لا تقوى على الاستمرار في الحياة، لأن جذور الكراهية لا تحمل قوة الديمومة والاستمرار والصيانة الذاتية والتماسك الداخلي.

حالة التشظي الداخلي:

لنحاول أن نقوم بتفكيك نفسي، ونطرح السؤال: لماذا لا تقوى شجرة العنف على الاستمرار في الحياة؟؟ أو لا يعتبر القرآن أن الفكرة كائن حي، فالحياة لازمة لا تنفك عن الأفكار. كل فكرة تولد مثل الجنين عندها طاقة الحياة والاستمرار فيه إلى حين، ولكن الآية تلفت نظرنا إلى أن الفكرة (الطيبة) تكسب الديمومة، في حين أن الفكرة (الخبيثة) تنمو إلى حد لا تستطيع تجاوزه، ثم تهوي بالكامل في رحلة اندثار وتقوض كاملين؟ ولكن لماذا؟

البيولوجيا والسيكولوجيا والفيزياء النووية تنفعنا في تفسير هذه الظاهرة.

نحن نعلم في الفيزياء النووية أن نويات العناصر المشعة غير مستقرة فيحصل نوع من الانحلال الداخلي فتنهار النواة ومعه شخصية العنصر بالكامل، وهكذا يتحول العنصر المشع إلى عنصر خامل.

هذا الاضطراب الداخلي، وعدم التماسك، والتنافر بين عناصر النواة يجعلها تتفجر داخلياً باتجاه الانحلال والتقوض. مشكلة العنصر داخلياً حرمته الهدوء والراحة في رحلة الوجود، فلا ينعم بالهدوء ما لم يتحول إلى عنصر مستقر خامل.

الكراهية هي حالة تشظي داخلية؛ فالذي يكره لا ينتبه إلى أنه يكره نفسه، والحب هي حالة اتحاد داخلي قبل كل شيء.

الحب هو عملية اندماج، والكراهية هي عملية تشظي اجتماعي وتمزق عن الآخر، وتهميش له وانسحاب وارتداد على الذات.

مؤشرات البيولوجيا:

الكراهية مرض والحب صحة. تشهد على ذلك البيولوجيا.

مع الكراهية يتولد التشنج والسوداوية، الريبة والشك، الحذر وكل مشتقات الترصد والكيد والتآمر ومحاولة التخلص من الآخر، أحياناً بالتصفية الجسدية.

عند السقوط في شرط الانفعالات، والوقوع في قبضتها المريعة، تبدأ كل مؤشرات البيولوجيا تروي نغماً حزيناً تنشده وتبكي له كل أعضاء الجسم، الضغط يرتفع، النبض يتسارع، المعدة تفرك، الأمعاء تمسك، المثانة تحتقن، القلب يتعب، والأوعية تتخم بمادة الأدرينالين المادة السامة المؤذية، وكأنها الحجارة تسقط من حواف الجبال المحيطة بشارع أنيق نظيف. وبالطرف المقابل فحقنة من الحب في الجسم تمنحه الهدوء، وتهبه النشوة والاسترخاء، وشعور الأمن والسعادة وتحقق الذات.

لماذا اقترن الحب بالجنس؟

الحب أعظم من الجنس وممارسته، ولكن أحد تجلياته جنسية. قد يكون الجنس بهيمي بدون حب، ويصبح إنسانياً عندما يمتزج بعصارة الحب، فهذا مشعر التفريق بين ممارسة الحب عند الحيوان والإنسان. الأرانب تمارس الجنس للتكاثر، والإنسان تحكَّم اليوم في ضبط الإنجاب، فهو يمارس الجنس مستقلاً عن الإنجاب.

عندما تتصاعد دفعة الحب عند الإنسان لا يشعر بقمته وتحقيق هدوء النفس ما لم يمتزج بالطرف الآخر. فالعمل الجنسي هنا تعبير عن تجلي أعظم للحب، استخدم القرآن تعبيراً لطيفاً عنه ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً﴾ ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾.

نبي الإسلام لم يخجل أو يتحرج من مناقشة موضوع الجنس واعتبره

في أحد أحاديثه أمراً يُؤجَر عليه الإنسان عندما يضعه في الحلال.

تفضي ثمرة العلاقة الجنسية كأحد تجليات الحب إلى الإنجاب وحفظ النوع وتكرار الذات، في نسخة أصلية لا تقبل التزوير، من طرفي علاقة الحب، كشهادة توثيق دامغة عن عمق هذه العلاقة، تعمق العلاقة لاحقاً بترعرع الأطفال كثمرة حب وبناء شبكة علاقات اجتماعية. الحب إذاً نماء وثروة جديدة وتجدد في الحياة، والكراهية انعزال وتقوقع وانكماش وانتحار داخلي وفناء مبرمج.

الحب فيض داخلي:

الحب يفيض من النفس بعد معالجة التشظي الداخلي، وتحقيق وحدة النفس داخلياً بتفجير حب الذات أولاً بالصلح الداخلي، من خلال رد الاعتبار للذات واحترامها والاعتراف بها.

لا يمكن أن نحب الآخرين قبل أن نحب أنفسنا. ولا يمكن أن نحترم الآخرين ما لم نحترم أنفسنا، ونعترف بذواتنا ونتأملها في ضوء جديد، بل ولادة جديدة، فالإنسان بعد الولادة الرحمية أمامه ولادات أخرى، أشار القرآن إليها عندما قال: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ فهذا مؤشر إلى أن النفس تقسو ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ وأن النفس تمرض بمرض ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ وتصل إلى الموت بانقطاع (الصيرورة) فالحياة تدفق لا يتوقف للصيرورة، ولكن قد يتعفن الإنسان فيموت قبل الموت، ويجب أن نفهم الضلال والشقاء كحالة نفسية من موت النفس في الحياة، بتعطيل منافذ الفهم كمصادر تغذية للروح، والإيمان تلك النشوة من الأمل المشرق والنشوة العارمة من معايشة الحياة والناس والتاريخ.

الحب هو ذلك الترياق الذي يعيد الحيوية إلى مفاصل الجسم كي يعيش مستقبلاً لوميض ومؤشرات الحياة التي لا تنتهي.

طوق الحمامة عند ابن حزم:

أعجب ما تركه لنا التراث الإسلامي مذكرات رجل فقيه دشن اتجاهاً عقلانياً بالكامل في الأندلس عُرف بالمدرسة الظاهرية، ولكنه في كتابه (طوق الحمامة في الإلفة والإيلاف)[1] يتحدث بكل صراحة عن الجنس والحب، في حديث يتناول عشرات التجارب والقصص له شخصياً ولأصحابه، في تفكيك فلسفي وتحليل نفساني بديع مثير، مما يجعلنا نفهم صورة التقوى على نمط جديد من التوازن النفسي، وإشباع الحاجات، وضبط الغرائز بالتروية المعتدلة، وعدم السباحة في الهلوسات الجنسية، والمطاردة السرية للقصص الخليعة، وانتظار برامج المحطات الفضائية بعد منتصف الليل أو الاشتراك في برنامج التشفير مدفوعة الثمن بالعملة الصعبة.

يذكر (ابن حزم) في كتابه قصة حب عجيبة عن رجل أندلسي هام بجاريته حباً وغضب منها يوماً فباعها لآخر (لنعذر ابن حزم فهكذا كانت الأيام وقتها) ثم شعر بِعِظَم غلطته، فحاول استردادها بكل ما يملك، ويبدو أن الفتاة كانت غير عادية مما جعلت الثاني يعشقها حتى العظم. فلما احتكما إلى الوالي قدمهما إلى تجربة مريعة هي إلى حافة الموت أقرب!! فالوالي كان على شرف عظيم فطلب من الأول رمز حبه وصدقه في التعلق بها فما كان منه إلّا أن رمى بنفسه من الشرف فهوى مترضرضاً نفد من الهلاك بقوة الحب، فطلب من الثاني أن يفعل كما فعل صاحبه فتردد فدفع بالجارية إلى الأول.

الحب أعمى، وانجذاب ساحر، وقوة تعلق، ومعنى في الحياة، ونمو لا يعرف التوقف، وأحياناً يموت صاحبها كلفاً وعشقاً وهياماً بالهدف. ولله في خلقه شؤون.

---

(١) منشورات دار مكتبة الحياة، تقديم فاروق سعد.

الثورة الكيميائية الحديثة

خلال أسابيع قليلة من ربيع ١٩٩٨م تمخضت الأحداث عن مجموعة من الهزات العلمية والفنية: فانفجرت قنبلتان نووية وبيولوجية، وأعلن عن مراجعة تاريخية في الفاتيكان، وتم التأكد من جثة (بورمان) الرجل الثاني بعد هتلر، المختفي بعد سقوط الرايخ الثالث، وأعيد إحياء الرومانسية في فيلم غرق التيتانيك (TITANIC) بعد عاصفة فيلم المريض الإنكليزي.

اهتزت الأرض في صحراء بلوشستان بانفجار تجريبي لخمس قنابل نووية باكستانية. وتم الإعلان في أمريكا عن الاستخدام التجاري للقنبلة الكيمياوية (الفياجرا VIAGRA) ما سميت الماسة أو المعجزة الزرقاء. وتم فتح الباب لدراسة أراشيف سرية في غاية الكتمان في أقبية الفاتيكان لـ٤٥٠٠ ملف من فظائع محاكم التفتيش، فيما يشبه (بريسترويكا) داخل الكنيسة.

كما تم التثبت من الهيكل العظمي لـ(مارتن برومان MARTIN BORMAN) بواسطة تطوير تقنية (حفريات الجينات PALEOGENETIC) ومنها تم التعرف على بقايا هياكل وجماجم آخر عائلة حكمت روسيا من (آل رومانوف) باستثناء جثة واحدة حيك حولها ما يشبه الأساطير، عندما ادعت سيدة أنها الأميرة المفقودة التي نجت من المذبحة، حتى تم التأكد علمياً وبعد وفاتها، من بقايا نسيج ورمي، محفوظ في المخبر، أنها ليست الشخصية الحقيقية.

وأحدث نزول فيلم التيتانيك إلى السينما هزة عاطفية لغرق أعظم قصة حب، على ظهر سفينة، صممت على أن لا تغرق؛ فغرقت في أول رحلة لها

من بريطانيا إلى أمريكا، عندما ارتطمت بجبل جليد شارد من القطب المتجمد، فهوت إلى القاع خلال أقل من ساعتين، في مشهد درامي يروي هلوسات التكنولوجيا، ومرض الطبقية حتى في الموت؛ فمن سمح لهم بقوارب النجاة كان معظمهم من ركاب الدرجة الأولى، ولكن الفيلم سجل دراما من نوع مختلف بغرق قصة حب في لجة الأوقيانوس البارد مع نسمات السحر.

أسرار الطاقة النووية
والجنسية والتاريخ والكروموسومات

باكستان وضعت يدها على أعتى طاقة كونية (النووية). و(الفياجرا) دخلت إلى أسرار الطاقة الجنسية، وحلت إشكالية عضوية عانى منها الرجال منذ ألفي سنة ويزيد (العنة العضوية ORGANIC IMPOTENT). وما أعلنه الفاتيكان شق الطريق إلى أسرار التاريخ التي طواها الزمن، واحتفظت بها الأوراق على شكل ما، وبواسطة تقنية بصمات الحامض النووي الخلوي (D.N.A) أمكن استنطاق العظام وهي رميم؛ فأعلنت عن شخصية صاحبها. وفيلم المريض الإنكليزي أخرج إلى السطح لغز الموت في الحب، وجدلية المعاناة في الحياة، ومصادفة الحوادث الغريبة، التي تنهي حياة الإنسان وحيداً فريداً جائعاً، محطم العظام، بعيداً عمن يحب، لا يريد الموت في الصحراء، في كهف بارد مظلم، تخط صاحبتها كلمات مؤثرة قبل الموت بلحظات: انطفأ الضوء.. يا ترى كم طول النهار في الظلام.. البرد هائل.. يا إلهي.. إننا نموت ولكن أغنياء بالحب، بالمذاقات الجميلة التي عشناها.. بأجسادنا التي دخلنا بها ونودعها.. والأرض الحقيقية بدون جغرافيا وحدود يرسمها رجال قساة أقوياء.

استنطاق الموتى:

جرت العادة أن الموتى لا يتكلمون، وإلى المحاكم لا يحضرون، وبشهاداتهم لا يدلون، ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، ولكن العلم الحديث توصل إلى تطوير علم خاص بالمقابر والجثث وبقاياهم في

إنطاق الموتى، واستحضار تعابير الوجه من بقايا الجماجم وهي رميم، وقراءة صفحات لغات منقرضة لم يبق حي واحد من أهلها ينطقها، وإحياء تاريخ شعوب بادت، وقصص حضارات انهارت وغيبها الزمن.

في آخر خبر تم إماطة اللثام عن جثة خليفة هتلر (بورمان)، وبقايا عائلة (رومانوف) بعد مرور ٧٧ سنة عن تسع جماجم في منطقة (كاترين بورج) تروي القصة الكاملة لمذبحة عائلة آخر قيصر (نيقولا الثاني) حكم روسيا.

يقفز السؤال: كيف عرف أن هذه الجماجم لأصحابها؟ وأنها قضت نحبها بالإعدام الدموي؟ تتعاون اليوم ضفيرة من العلوم في سياق علمي كوني لفك ألغاز اللغات المندثرة والعظام النخرة، في إنطاق لأصحاب القبور بغير نطق، يدلون بشهادتهم في محكمة التاريخ.

طبيعة العلم:

إنه يتقدم بالجهد، وينمو بروح الفضول واكتشاف المجهول والعشق المعرفي، ويغذى بالمال، ويفرخ في مؤسسات البحث العلمي، ويزدهر في جو حرية التفكير بدون كوابح وعوائق، ويكتشف بالمصادفة والحظ كمحصلة جانبية (كما في دواء الإفرنجي ٦٠٦ قديماً، وصحن التيفال في المطبخ، وحبة الفياجرا للإنجاز الجنسي) ويعمر بالتراكم المعرفي، ويحقق التقدم والنفع ولو بعد حين (كما في تحقيق السلام العالمي من رماد هيروشيما) وما ينفع الناس يمكث في الأرض، والزبد يذهب جفاء، وزكاه القرآن فمنح الثقة لاثنين: العقل والعلم، وسحبهما من اثنين: الظن والهوى، وجمع المعنيين في نصف آية عن مزيج الضلال ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾.

يمتاز العلم بالحيادية فيتسخر لمن يكشف عن قوانينه، مهما كان توجهه العقائدي والدين الذي ينتمي إليه.

لا يقدم العلم استقالته في العادة ولا يعرف التعب، ولا يمسه نصب

أو لغوب، ولا يملك زخمه التوقف، وكله من علم الله الواسع، الذي منح الإنسان فضلاً منه وكرماً أن يزداد علماً ويرتفع به. لا يعرف العلم (التابو) أو الحدود فيخترقها جميعاً، ويقفز فوق كل الحواجز في ناظم ذاتي خاص به؛ فينفذ إلى مفاصل السياسة، ودراسة الأديان المقارن، وإخضاع النصوص للدراسة النقدية، ويكتشف أسرار الجنس؛ كما في قصة العنَّة والباه قديماً و(الفياجرا) حديثاً، منذ أن حلم الفلاسفة بإكسير السعادة، وينبوع الشباب، وتكلم الدين عن جنة فيها الحور العين. شبابه لا يعرف الهرم، وتمرده لا يسلمه إلى الاستحالة أو الركون، وقصة اكتشاف الماسة الزرقاء كما يسميها الكيمياويون للمستحضر الجديد، لمعالجة (العنة والقصور الجنسي عند الرجال تروي المصادفة فيها قصة أعجب من الخيال، وأجمل من الحلم).

دور المصادفة في الاكتشاف العلمي:

وصفت مجلة (دير شبيجل DER SPIEGEL) الألمانية (القرص الدوائي): أما الشكل فألماسي ثماني الوجوه، وأما اللون فمن زرقة السماء[1]، وأما بورصة نيويورك لأسهم شركة (فايزر PFIZER) فقفزت إلى أعلى مستوى لها؛ فحققت ربحاً تجاوز مائة بالمائة خلال سنة واحدة[2]، وأما قصة الوصول إلى دفع هذا الدواء إلى الأسواق للاستهلاك فلعبت محض الصدفة دوراً محورياً في اكتشافه.

كانت شركة (فايزر) تبحث في مجال تخصصها في مطلع التسعينات

---

(١) المنتجات الموجودة في المكسيك بلون أصفر أو أحمر وهي بثلاث عيارات ١٠ أو خمسين أو مائة ميلغرام، ولا أريد الدعاية للدواء هنا كما لا أهاجم. كل ما أحرص عليه هو تنوير وتثقيف القارئ بالمستجدات في الساحة العلمية والفكرية في محاولة للاقتراب من الموضوعية.

(٢) بين مايو أيار ٩٧ وعام ١٩٩٨ قفز السهم من أقل من خمسين دولار إلى ١٠٤ دولار؟!

لإنتاج دواء مفيد في التروية الدموية للقلب، وأخضعت ٤٥٠٠ إنسان لتجربة الدواء الجديد، بعد الانتهاء من التجربة على الحيوان.

البحث في صحراء بدون بوصلة وخريطة:

تمت مراقبة التأثير والأعراض الجانبية، وبعد سنوات من العمل المكلف والمجهد في الأبحاث بدأت الشركة في نفض يدها من فاعلية هذا العقار، وشعر قسم الأبحاث في الشركة أنه يبحث في صحراء بدون خارطة وبوصلة، ولا يوجد في مرمى الأفق إلا السراب الخادع، ولكنه كان على مرمى حجر من طبقة جيولوجية كاملة من الذهب.

عندما أرادت الشركة صرف المتطوعين لفت نظرها إدمان غير عادي على الدواء من أثر جانبي له. كانت الشركة سابقاً تطلب المتطوعين فتجدهم بصعوبة ويبقى الاحتفاظ بهم أشبه بالمستحيل، وهم يترنحون تحت تأثير الأعراض الجانبية للعقار التي لا تخلو من المخاطر أحياناً. أمام الدواء الجديد يقف المتطوعون في طوابير طويلة على قائمة الانتظار ولا يريدون الانصراف؛ بل المزيد من تجربة الدواء الجديد... ثم وقعت حادثة حركت قسم البحث للنظر جدياً في جدوى العقار الجديد من منظور مختلف.

كانت الواقعة هي تعرض مركز الدواء لسطو من أحد المدمنين على هذا الدواء مما دفع قسم الأبحاث لدراسة ليس التأثير القلبي للدواء بل التأثيرات الجانبية.

آلية عمل الماسة الزرقاء:

أما الدواء للقلب فبغير فائدة بل سم قاتل إذا مزج مع أدوية القلب الأخرى التي تحوي في تركيبها مادة (النترات) كما أعلن لاحقاً عن عدد من الوفيات لمرضى مسنين كانوا يعانون من مشاكل قلبية، آثروا أن يجتازوا الحياة إلى الموت على جسر الجنس، وحمل في مصر العديد إلى العناية

المشددة وهم في سكرات الموت ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾، من آثار الدواء المرخية والواهطة للدوران، على حساب ضخه ونقله إلى الأقسام السفلية من الجسم؛ فالمادة لا ترفد الدماغ بمزيد من الدم؛ بل تضخه بجنون إلى الأعضاء التناسلية.

أما آثاره الجانبية فتعددت من احمرار الوجه والصداع (١٠٪) ورؤية سحب زرقاء من تأثر الشبكية والإسهال ومغص البطن والآلام العضلية، ولكن الشيء المؤكد والذي كان يكرر نفسه مما يدعو إلى الابتسامة الماكرة والضحكة التي تعني شيئاً ما؛ فالمادة الفاعلة (سيلدنافيل SILDENAFIL) الموجودة في المركب كانت تقوم بهجوم صاعق في لجم أنزيم يعمل على الأعضاء التناسلية وجهاز التكاثر عند الإنسان. الأنزيم (المسمى فوسفود ايستريز PHOSPHODIESTERASE) كان يقوم بلجم مادة وتحطيمها (المعروفة CYCLO- GUANOSINMONOPHSPHATE) ويرمز لها اختصاراً (C GMP) تؤثر على منافذ دخول تدفق الدم إلى الجهاز التناسلي عند الإنسان، فتقوم بما يشبه فتح حنفيات دخول الدم إلى المنطقة التناسلية.

عند هذه النقطة بالذات تم توجيه أثر تحرير كامل المادة، التي تقوم (بواسطة إرخاء العضلات المشرفة على منافذ دخول الدم ليتدفق إلى المنطقة بكل زخم) ولكن تأثير هذه المادة ليس كل شيء فالعملية الجنسية عند الإنسان تختلف عنها في الحيوان؛ فهي إنسانية وليست بهيمية، والأنثى أعمق إدراكاً لهذا البعد من الذكر.

أوركسترا في غاية التعقيد:

عرف أن امتلاء جهاز التكاثر يعتمد أوركسترا في غاية التعقيد أضعف حلقاتها طراً في الآلة البيولوجية، بين نغم وتحريض الأعصاب، واستجابة العضلات تقلصاً واسترخاء، وتدفق الدم، وقذف المني (عند الرجل والآلية

عصبية عند المرأة) ولكن أهم حلقة فيه هي النشيد النفسي، فهو الذي ينظم إطلاق العملية كعمل إنساني هادف، يمتزج فيه الحب بالجنس، وتفهم المرأة الحب أكثر من الرجل، أنها مشاعر رقيقة، أكثر من عمل ميكانيكي بهيمي، مما دفع موجة مضادة نسائية، في استهجان أثر الدواء الجديد على تسليح الجانب البهيمي عند الرجل، واشتداده دون الجانب الروحي في كل العملية.

مخطط الحكمة والغريزة:

الحيوان يمارس الجنس وأعضاؤه الجنسية تؤدي دورها في العملية بدون قصور، وكما قال الإمام الغزالي قديماً: إن الإنسان لن يقاس مطلقاً بعضلاته فالثور أشد منه، ولا بالنكاح فأضعف العصافير والأرانب أشد في السفاد منه، ولا بالصرعة فلبوة الأسود أفضل منه في مطاردة الفريسة والإجهاز عليها، ولكنه إنسان ببعد جديد ميزه عن المخلوقات، في السباحة بين قطبين، وضبط الجانب البهيمي الشهوي والغضبي الانفعالي؛ بتجلي الحكمة كقوة ناظمة جديدة، التي تلجم الاثنين وتسلط أحدهما على الآخر وتسخر واحد لخدمة الثاني، شهد لها تطور الفصوص الدماغية العليا في رأس الإنسان تحت القحف.

العمل الجنسي عند الإنسان روحي الأصل منه يُحرِّض وإليه المصير، ينتهي باستخدام آلة التناسل، عبر وصلات عصبية، وتفاغرات وعائية، وتجمع وإفراغ للدم المحتقن في مستودعات خاصة، وقذف لمادة الحياة، يعج السنتمتر المكعب الواحد بعشرات الملايين من حيوانات مجهرية، تشبه يرقات الضفدع، برأس كالقذيفة وذنب للسباحة، في سباق ماراتون رهيب، تتزاحم فيه ملايين الحيوانات المنوية، الزاحفة باتجاه البويضة القادمة من المبيض، طلباً للوصول والاقتحام والالتحام، كي يكتمل شق الصورة المقابل، ويلتحم الزوجان من الكروموسومات، فيحدث انشطار بيولوجي

قريب من الانشطار النووي، باستثناء فارق جوهري، أن الانشطار النووي تدميري، والانقسام الخلوي بنائي تصنيعي تخصصي، فمن خلية واحدة إلى مائة مائة مليون خلية، بعشرات التخصصات من سمع وبصر وإدراك وتصرف وإرادة، والأعضاء النبيلة من كبد كمركز جمارك عام للبدن، وكلية كوزارة تصفية لكل شوائب الجسم على مدار الساعة، والأجهزة المعقدة من هضم وإفراغ واستقلاب، والغدد الصماء من كظر ودرق ونخامية مفرزة لعشرات الهورمونات، من تيروكسين وكورتيزون وميلانين، تخلق توازن لا نهاية له من الشوارد المعدنية والأخلاط الداخلية.

حاجيات حضارة هرمة:

الحدث الجديد يستنفر الفكر في عدة اتجاهات: رياح العلم اليوم شمالية غربية. العلم يخدم حضارة هرمة، فالشمال غني ومتعلم ولكنه هرم، وحاجات الكيمياء يجب أن تخدم مشاكل هذا السن، ففي ألمانيا ثمانية ملايين يعانون من مشاكل العنَّة الجنسية، يحتاجون إلى ميزانية ١٥ مليار مارك سنوياً، وفي الولايات المتحدة ثلاثين مليوناً، وآسيا فتية فـ٥٠٪ من النشء دون الـ١٥ سنة، ومشاكله ليست السباحة عن إطفاء غرائز لا تنتهي.

اعتبر المفكر الجزائري مالك بن نبي أن الحضارة لها مخطط، رحلة الصعود فيه روحية، ومنحنى الانحدار تفلت الغريزة، وبقدر تفلت الغريزة من مرجل العقل الذي كانت تعمل فيه كطاقة موجهة بقدر هرم الحضارة وانحطاطها.

هندسة الثقافة الجنسية

في الثقافة العربية مواضيع مستحيل التفكير فيها، محظور مناقشتها والتحدث عنها علانية، عيب تناولها، وغير مستحب التعرض لها، ولا يليق الخوض فيها.

هذا التابو له أكثر من مفصل، لكن أبرز مفاصل هذا التابو ثنائي، فيه أشد الحساسية عند تعريضه للضوء: الجنس والسياسة.

مشكلة العلم أنه عنيد، فيسلط أشعته على مفاصل السياسة فيعريها، ويخترق بوهجه أسرار الجنس؛ فيميط اللثام عن عالم خفي غامض، مليء بالمطبات والعقد، مظلم يعج بالأسرار، فبقدر السكوت عنه في العلن بقدر الشغف به بالسر في ازدواجية غير حكيمة.

الحبة ذات الشكل الألماسي (الفياجرا VIAGRA) ذات التأثير الجنسي حركت زوبعة في اختراق هذا التابو للتحدث عنه.

نحن إن لم نتناولها علناً فسوف يتم الحديث عنه سراً، ومراهقنا إن لم نقدم له المعلومات بالطريقة التي نريد؛ فسوف يحصلها بالطريقة التي يريد. إن شرحنا الموضوع بحيادية وعلم كان أفضل له من التسلل إلى فضاء الإباحية يغترف منها وينهل.

الحديث عن الجنس (تابو)؟

الحديث عن الجنس في الثقافة العربية ما زال في إطار العيب والكتمان، وأقرب إلى أن يعتبر مسألة شخصية لا يجوز مساسها، وكان

كذلك في كل الثقافة الإنسانية إلى عهد قريب؛ فقد عاشت البشرية على الخرافة والهلوسات فيها حتى الأربعينات من هذا القرن، عندما خطر في بال عالم أمريكي هو (الفرد كينسي ALFRED KINSEY) أن يدرس (الظاهرة الجنسية SEXUAL PHENOMENA) الإنسانية ليس (كإثارة وتحريض وتسويق تجاري) بل (كعلم) يخضع لقوانين مثل الرياضيات والفيزياء النووية والبيولوجيا. مشكلته فقط أنه فضاء تشترك فيه مجموعة من العلوم لا يشكل الطب فيها إلا أول المفاتيح.

معهد (كينسي KINSEY) لدراسة الظاهرة الجنسية:

كينسي وبعده (ويليام ماسترز WILLIAM MASTERS) و(فيرجينيا جونسون VIRGINIA JOHNSON)[1] نقلوا الموضوع إلى مرحلة متقدمة جداً، فتم إخضاع الظاهرة إلى دراسة مخبرية متطورة، تعتمد دراسة كافة الأجهزة، وماذا يحصل لها أثناء مخاض العملية، التي لا يبقى جهاز بدون معاناة فيها.

لا غرابة أن سمعنا بخبر النعوش والجنازات التي تحركت صوب المقابر بعد استعمال دواء الفياجرا الذي ينشط آلة التكاثر ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾!! عندما يقفز الضغط إلى أعلى عليين، ويحلق النبض إلى ما يشبه حالة الصدمة بأحد حديها[2].

(١) 148 : (DER MENSCHLICHE- KOITUS UND ORGASMUS PAGE).

(٢) في الدراسة العلمية التي عرضتها مجلة (ب.م p.m) الألمانية عن النعوظ (ORGASMUS) قفز النبض إلى ما يشبه الصدمة (SHOCK) عند الإنسان فوصل تسارع القلب إلى ١٦٠ في الدقيقة أي أن القلب قام بضعف طاقته الاعتيادية مما يعطينا فهماً عن خطورة مستحضر الفياجرا عند مرضى القلب الذين يقفزون إلى العالم الأخروي عبر جسر من متعة الجنس ما يسميه الأطباء باللغة اللاتينية (MORS IN COITU) / (DER ORGASMUS) قلنا: الصدمة بأحد طرفيها كونها تعتمد تسارع النبض وانخفاض الضغط، وهي ليست كذلك في=

تمت دراسة (الظاهرة الجنسية) مخبرياً ويكشف العلم يومياً عن أسرار عجيبة من هذا العالم المخفي، الذي اعتبره الإمام أبو حامد الغزالي من أعظم متع الدنيا، وقال: إن الطفل لو حدثته عن المتعة الجنسية لن يفقه منها شيئاً، كذلك متع الآخرة إلى الدنيا.

في المخابر العلمية الحديثة يتم دراسة هيكل ومفاصل العملية؛ فأحد أطرافها بيولوجيا وأعمق ما فيها وأحفلها بالأسرار الجانب النفسي.

أوركسترا العملية الجنسية:

طرحت أسئلة من نوع: ما هو الجنس تحديداً؟ كيف يتولد؟ وما هي مساراته العصبية والوعائية والعضلية؟ أي فهم الآلة البيولوجية؟

فالانتصاب عند الرجل لا يتم اعتباطاً وبسهولة بل يمر عبر آلية في غاية التعقيد والأناقة والدقة والاتزان، تقودها (أوركسترا) كاملة من سيمفونية أعصاب وعضلات ودم ومني، فأما الأعصاب فتعزف، وتجاوبها العضلات فتتقلص أو ترتخي كأوتار العود، ويرجع الدم الصدى فيسيل ويتدفق كاللحن الشجي في خرير الجداول، والمني يقذف كفوارات النيابيع المحتبسة؛ ليصل إلى الرحم في حملة يزحف فيها في ماراتون جبار، عشرات الملايين من النطف المجهرية تتزاحم، يقتحم في نهاية العرس ويلتحم بالبويضة السبّاق الأول الأقوى المتمكن، ويحدث بعده انشطار مهول أفظع من الانقسام الذري من انقسامات، ترفع رقم الخلية من واحد إلى مائة مليون مليون خلية، بعشرات التخصصات، والأجهزة المعقدة.

= العملية الجنسية التي اعترف طبيب البولية (HARTMANN PORST) المعني بأمراض الجنس من هامبورغ وأجرت معه مجلة (دير الشبيجل) الألمانية مقابلة فصرح بأن ٢٪ من مرضى القلب يسقطون صرعى في العادة أثناء العمل الجنسي المجهد فهو يتوقع وفيات أكثر بكثير مما أعلن على الأقل رسمياً فالشركة حريصة على الربح أكثر من الحقيقة العلمية.

الكشف الذي دشنته شركة فايزر (PFIZER) وبمحض الصدفة في مختبراتها خلال السنوات الخمسة الفائتة، لم يعرفه الجنس منذ خمسة آلاف سنة!! كيف تتم العملية الجنسية؟ أين مركز الجنس تحديداً فهو في الدماغ المتوسط وليس في الآلة البيولوجية؟ الحب والجنس؟ الجنس والإنجاب؟ مستقبل العائلة؟ تاريخ الجنس؟ أثر الجنس في حركة التاريخ؟ دراسة الهورمونات؟ علاقة الجنس بالعمر؟ الجنس والثقافة؟ الجنس من منظور تربوي؟ مستقبل الثقافة الجنسية؟ الجنس كهندسة اجتماعية على حد تعبير الكاتبة المغربية (فاطمة المرنيسي)[١] ما هي أصول الدافع الجنسي كما وضع (كولن ويلسون COLEN WILLSON) صاحب المؤلفات المشهورة مثل (سقوط الحضارة)[٢] حينما درس هذه الجذور في كتاب كامل، وأخيراً كيف نفهم (الثورة الكمياوية) الحديثة في صورة مستحضر الفياجرا؟ بعد ثورة حبوب منع الحمل (CONTRACEPTIVE) التي دشنها الكيميائي الأمريكي (كارل جيراسي CARL JERASSI)[٣] قبل أربعين سنة ونال عليها جائزة نوبل.

الجنس ليس عيباً أو حراماً، فهي غريزة أودعها الله فينا يجب إشباعها، وكل نقص في الإشباع يخلق حالة توتر نفسية لا تزول إلا بإطفاء حريقها، والمجتمع يعاني من ازدواجية أخلاقية؛ فبقدر إخفاء الحديث علناً بقدر الشغف به سراً.

---

(١) الجنس هندسة اجتماعية بين النص والواقع، تأليف فاطمة المرنيسي، ترجمة فاطمة الزهراء زريول، نشر الفنك.

(٢) أصول الدافع الجنسي، كولون ويلسون، دار الآداب والمؤلف المذكور له العديد من الكتب القيمة غير هذين الكتابين مثل: اللامنتمي، ورحلة نحو البداية، والمعقول واللامعقول، وقوى الحياة الخفية، وقصة راسبوتين، وما بعد اللامنتمي.

(٣) أجرت، معه مجلة (دير الشبيجل) الألمانية مقابلة في عددها ٢٤، ١٩٩٨ ص١٨٢، ويعتبر المذكور الذي دشن أهم كشفين طبيين قبل أربعين سنة الكورتيزون المادة السحرية وموانع الحمل فشق الطريق إلى ثورة جنسية بفك الجنس عن الإنجاب.

الطاقة النووية والجنسية والاجتماعية:

الجنس طاقة كأي طاقة في الكون، من كهرباء ومغناطيس، وشلالات متدفقة، وسدود محتبسة خلف جدار أصم، يتم التفاعل معها ضمن ثلاث معادلات: الكبت ـ الإطلاق ـ التنظيم، ففي الأولى تنتهي بالانفجار، وفي الثانية التدمير، وبينهما تحصل الفائدة ويتولد الخير العميم؛ فأمكن مسك الكهرباء في سلك، والمغناطيس في حجر، والماء خلف جدار والطاقة النووية في علبة.

يمكن الاستفادة من طاقة الماء المحتبسة خلف السد فنولد الكهرباء، ويمكن ترك الماء ينساب يمشي على طبيعته كما خلقه الله، ويمكن أن ينفجر السد بخطأ بشري كما يروي لنا القرآن عن سد مأرب حينما ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾ فأرسل عليهم سيل العرم وحول جنتيهم عن ﴿يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ﴾ إلى جنتين ﴿ذَوَاتَىۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ﴾.

(برتراند راسل) الفيلسوف البريطاني (BERTTRAND RUSSEL) رأى أن (السلطان the power) هو (المفهوم الجوهري في العلوم الاجتماعية، تماماً كما أن الطاقة هي المفهوم الجوهري في علم الطبيعة)[١].

الفيلسوف الألماني (شوبنهاور SCHOEPENHAUER)[٢] رأى أن الطبيعة تسحق الفرد بدون رحمة ولا تأبه ولا تعبأ، مقابل إصرار عنيد في المحافظة على النوع. الجنس هنا غير غريزة الطعام؛ غريزة العطش والجوع تحافظ على (الفرد)، ولكن غريزة (الجنس) تحافظ على (النوع) فتكاثره كان أهم. نحن أمام ثلاث معادلات (حفظ الفرد) و(حفظ النوع) و(ترقية النوع)

---

(١) ـ السلطان ـ آراء جديدة في الفلسفة والاجتماع، تأليف برتراند راسل، ترجمة خيري حماد، دار الطليعة، بيروت، ص١٤.

(٢) قصة الفلسفة، ويل ديورانت، القسم المتعلق بشوبنهاور.

الأول سره في الغذاء، والثاني في الجنس، والثالث في الثقافة.

الطاقة النووية والسلطان والجنس هي مفاتيح فهم علم الاجتماع والفيزياء والبيولوجيا.

هرم الحاجيات النفسية ومكان الإشباع الجنسي:

عالم النفس الإنساني (أبراهام ماسلو) يحلل الأمور من وجهة نظر مختلفة؛ فيبني هرماً للحاجيات النفسية، يستوي على قاعدة، ويشمخ برأس أقنى صغير حاد، وتأمل الهرم من قرب يرينا خمس طوابق متراكبة طبقاً فوق طبق. أهم ما في الهرم القاعدة العريضة الصلبة من الحاجيات الفيزيولوجية، مكونة من خمس أحجار رئيسية (الشراب ـ الطعام ـ الملبس ـ المسكن ـ الجنس).

استقرار الإنسان الروحي لن يتم بدون تشكيل هذه القاعدة الفيزيولوجية؛ فالجائع سيحلم بالطعام، والعطشان جنسياً سيعيش هلوساته على قدر التحريض.

لا يحقق الإنسان ذاته فقط بالحاجات الفيزيولوجية، بل يمضي صعوداً عبر طابق (الأمن الاجتماعي) و(الحاجة للانتماء) و(تقدير الذات) ليصل إلى قمة الهرم (بتحقيق الذات) وهم أقل من واحد ١٪ بالمائة في العادة من كل الناس (وتجدون الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة).

الحاجة الجنسية طاقة يجب الاعتراف بها وإشباعها، أو التسامي بها إلى حين، كي يحقق الإنسان توازنه؛ فالعطش الجنسي غريزة تتطلب الإرواء والتلبية، تماماً مثل العطاس والتبول والجوع سواء بسواء، ولا تهدأ الروح بدون صرفها بالتفريغ.

الحضارة والجنس:

كل الحضارات خلدت نفسها من خلال رموز عن أعضاء الخصوبة والتكاثر. الحضارة (الهلينية) خصصت الآلهة (افروديت) بالحسن والجمال الذي لا يضارع، وفي (بريتاني) في فرنسا خلدت الشعوب البدائية قبل أربعة آلاف سنة عموداً من الحجر بارتفاع تسعة أمتار عضو التكاثر. وخلد حمورابي (قوانينه) (١٧٢٨ ـ ١٦٨٦ قبل الميلاد) على حجر أسود على شكل عضو ذكري[١].

كانت مشكلة (العنَّة) محيرة للذكور، الذين يرون رجولتهم تتبخر مع تقدم العمر، وحاول السحرة والأطباء منذ قديم الزمن صياغة الوصفة السحرية والخلطة التي تعيد الاعتبار للقوة الجنسية المتهاوية، فكتبت الغريب منها مثل (مسحوق خصيان الثيران مع أدمغة القطط الذكور طبعاً مضافة إلى دم حيض ممزوجاً كله مع الكمأة البرية) ويذكر عن (زير النساء) (جياكومو كازانوفا GIACOMO CASANOVA) من القرن الثامن عشر اعتماده على شوربة (الجولاش والفليفلة الحادة)، أما المركيز (دي ساد) الذي نفح الكتب الطبية بالظاهرة العجيبة، عن ارتباط الألم بالإشباع الجنسي تسليطاً وتقبلاً (السادية والمازوخية) فكان يقوي الباه عنده بأكل الذباب الإسباني الذي يحوي مادة الكانثادرين السامة، ووصل الأمر إلى اعتماد السحر كوسيلة للتفريق بين المرء وزوجه باستخدام السلاح الجنسي، عندما تعرض القرآن لذكرها عند قصة هارون وماروت ﴿يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾.

الجنس ومفاصل حركة التاريخ:

مشكلة العجز الجنسي عانى منها الملك (لويس السادس عشر) والزعيم الفوضوي الاشتراكي (باكونين) والرئيس الأمريكي (آيزنهاور) قائد حملة النورماندي.

---

(١) مجلة (دير الشبيجل) الألمانية، عدد ٢١/١٩٩٨ ص١٢٢.

وفي المقابل رويت قصص الرجال ذوو القدرة الجنسية الفائقة من نموذج النبي سليمان الذي تزوج المئات وخلده إصحاح أنشيد الأناشيد في العهد القديم، وسيئ الذكر (راسبوتين) الذي نشر الخلاعة في طقوس دين غامض، في الطبقة المخملية الملكية، في عصر آخر القياصرة الروس (نيقولا الثاني)، ولا يستبعد أن تكون الحرب الألمانية الفرنسية عام ١٨٧٠ قد انقدحت تحت التخدير الجنسي للإمبراطور (نابليون الثالث) وهو يتخذ قراره بين ذراعي (أوجين)، ونهاية البطالمة من خلال حب عاصف قامرت به (كيلوباترة) فخطفت قلب (أنطونيوس) ولكنها لم تضع درة روما على تاجها، في شهادة صاعقة عن أثر الجنس في تحريك التاريخ، ولم ينجُ معاوية من سيف الخوارج بدون عقابيل فالضربة كانت في (أسته) فخُيِّر بين الحكم والجنس، فكان داهية كعادته فلم يرتكب حماقة (ماينارد فرنشي MAYNARD FRENCHY) الذي مات بعد تناول أول حبة من الفياجرا، فاختار معاوية الكرسي على الجنس، في شهادة على لذة الحكم، ويفسر الغزالي هذه الشهوة بأنها آخر ما تخرج من قلوب الصالحين؛ فهي أشد من الجنس على ما يبدو، فهي لذة السُلطة.

انشطار في الثقافة!

الثقافة العربية اعتمدت كمحور اجتماعي مفهوم الشرف، واعتمد الغرب الحرية أكثر من الشرف. الثقافة العربية تعرضت للانشطار؛ فالقرآن ينص على عقوبة متساوية للمرأة والرجل في ممارسة الزنا، ولكن الثقافة المنتشرة والمسيطرة ـ وتظهر بشكل فاقع في الأرياف ـ تحكم المرأة بالإعدام، وتغض النظر عن الذكر معتبرة أن الأول يحتاج إلى الدم كصابون لغسل العار والثاني دليل رجولة وتحرر، في شهادة صاعقة عن هيمنة مجتمع ذكوري أخرق أحادي الرؤية، ظالم التركيب، يحترم الفحولة أكثر من التزام العدالة.

نحن في نقطة تحول في العالم العربي من أجل اختراق (التابو) الثلاثي: فلا بد من تكوين آلية نقد ذاتي كاملة للتراث وما حوى فنعرف من نحن؟ ونكتشف أنفسنا بالغوص في طبقات أركيولوجية كاملة من المعرفة على حد مصطلحات الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو.

يجب أن نخصص تدريس مادة (السلام) بجانب الرياضيات والفيزياء لتكوين (الطفل السلامي) فما لم ندشن نموذجاً ميدانياً لإنسان (لا عنفِي) تبقى كلماتنا حبراً على ورق.

ويجب أن ندشن ثقافة جنسية ذات مفاصل رباعية تمشي بمراحل مع نضج الطفل واستيعابه، فنلقحه بالوعي بدل أن يكتشفه سراً، خلال انتقاله من فتى إلى مراهق راشد وناضج، في تأسيس علم جنسي يتدرج من التشريح إلى الفيزيولوجيا إلى العواطف إلى الجانب التقني، فلا يعقل أن تصعق فتاة وهي ترى الدم يتدفق فجأة بدون إنذار من مجاريها، ولا يعقل أن يتزوج إنسان وهو لا يعرف تشريح غشاء البكارة، وأن نزف الليلة الأولى ليس شرطاً لازباً كونياً.

الغريزة والإنجاب

اعتبر سيجموند فرويد (FREUD) عالم النفس النمساوي أن الدافع الجنسي هو المحرض الأعظم في الحياة وهو (من أقوى وأعمق النوازع الكامنة في وعي الإنسان الباطن)[1]، وفهم كارل ماركس (KARL MARX) مؤسس الشيوعية الألماني أن العامل الاقتصادي والصراع الطبقي محرك التاريخ، أما توماس هوبز (HOBBES) الفيلسوف البريطاني فتحدث عن غريزة الموت أنها أم الدوافع[2] فإذا كانت غريزة (اللييبيدو LIBIDO) الطاقة الجنسية تحرض حركة الحياة كقطب أولي؛ فإن قطب الموت (THANTOS) يفغر فاه لشفط الحياة بأشد من ثقب أسود، وذهب الروائي الروسي (تولستوي) إلى أن الجنس كمطلب أعلى دشنته الطبيعة بهدف التناسل؛ فيجب أن يسخر في هٰذه القناة، وأن المتعة الجنسية غير مطلوبة لذاتها ما لم تؤدي إلى الإنجاب بما فيها الحياة الزوجية.

قصة العميان الأربعة والفيل:

وعندما لمس العميان الأربعة (الفيل) اعتبره الأول جداراً شامخاً، ووصفه الثاني بعمود غليظ، وذهب الثالث إلى تشبيهه بخميلة عريضة،

---

(١) أصول الدافع الجنسي، تأليف كوللن ويلسون (COLLEN WILSON) ترجمة يوسف شرورو وسمير كتّاب، منشورات دار الآداب، بيروت، ص٢١.

(٢) (THE NEW STORY OF SCIENCE) وترجم إلى العربية بعنوان (العلم في منظوره الجديد) سلسلة عالم المعرفة، عدد رقم ١٣٤، تأليف روبرت آوغروس (ROBERT. M. AUGROS) وجيورج ستانسيو (GEORGE.N.STANCIU)ترجمة كمال خليلي، فصل الإنسان والمجتمع ص٧٩.

وضحك الرابع على رفاقه عندما أمسك بالذنب وقال: لا يخرج عن حبل غليظ!!

وفي الحقيقة جانب الصواب الجميع، بادعاء كل منهم وضع يده على الحقيقة النهائية المطلقة، أو بالضحك على الآخرين، ولو قال: ربما ولعل ويجوز لكان خيراً زكاة وأقرب رحماً.

ابن حزم الأندلسي وكتابه (طوق الحمامة):

اعتبر الحديث النبوي أن ممارسة العملية الجنسية عمل يؤجر عليه العبد **(وفي بضع أحدكم صدقة)**[1] ويعتبر الفقيه (ابن حزم) الأندلسي (عاش في القرن الخامس الهجري) من القلائل الذين كتبوا في الحياة الجنسية، بما فيها تجربته الخاصة وقصص الشواذ.

يمتاز ابن حزم الأندلسي أنه جبل في العلم، ومحدث بارع، وأصولي عملاق، ويعتبر كتابه (المحلى) من خيرة ما كتب في الفقه، وصاحب اتجاه عرف بالمدرسة الظاهرية؛ فهو غير صاحب كتاب (الأغاني) أو (العقد الفريد) أو كتاب (ألف ليلة وليلة) التي شغف بها الغرب وما زال، في عشرات الترجمات المختلفة.

ابن حزم طرق باب الجنس بعفوية وانفتاح، ودون حرج أنه يرتكب معصية أو يمارس حراماً، وذكر من أعاجيب القصص في كتابه (طوق

---

(١) برَّر الحديث ذلك عندما استغرب الصحابة (أيأتي أحدنا شهوته وله فيها أجر؟ قال: **أترى لو وضعها في حرام ألم يكن عليه وزر؟؟** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **كذلك إذا وضعها في حلال فله أجر!!**) فالحديث هنا لم يرى في الغريزة الجنسية سوى تعبيراً إنسانياً طبيعياً ولم يرى في الرهبنة انعتاقاً، والمشكلة هي في الطريقة والقناة التي تمر فيها العملية الجنسية فهي واحدة زواجاً كانت أم سفاحاً، ولكنها مأجورة في الأولى، وفي الثانية يحمل فاعلها وزرها.

الحمامة) ما لا نتجرأ على ذكر بعضها في مقالة علنية اليوم، في شهادة صاعقة على زخم علمي، واختراق معرفي لمجالات إنسانية بشكل ريادي، من فقهاء جهابذة، وأصحاب اتجاهات ومدارس فقهية.

الكارثة العقلية التي حلت في العالم الإسلامي ليست أنها حظرت بحثاً دون آخر، وقتلت الفن وحرمت تناول الجنس كظاهرة إنسانية للدراسة فحسب.

الذي حصل أن العقل تم تأميمه بشكل كامل كاسح لتتقن الأمة صناعة الخرس وما زالت.

نحن إذاً مع قنبلة الفياجرا نواجه التحدي الجديد القديم الذي لا مفر منه، لبحث الظاهرة الجنسية، كما يفعل خبراء المتفجرات والألغام الأرضية.

اعتماد (الجنس) كوسيلة للتكاثر:

حسب المعلومات (الباليونتولوجية PALEONTOLOGY تاريخ الأرض) بدأت رحلة الحياة قبل ٣,٨ مليار سنة بوحيدات الخلايا، وكما يقرر علم (الكوسمولوجيا COSMOLOGY الفلك) أن الكون المادي بدأ من انفجار عظيم؛ فإن عديدات الخلايا بدأت من (انفجار عظيم بيولوجي BIOLOGICAL BIGBHNG) قبل (٥٣٠) مليون سنة، وخلال خمسة ملايين من السنين تم تشكيل معظم الكائنات الحية المنتسبة لعالمنا الحالي، واعتمدت الطبيعة (الطريقة الجنسية) كوسيلة للتكاثر بين الكائنات، وأشار القرآن إلى هذه الزوجية في مستويات شتى ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ واعتبر الزوجية قانون انتولوجي (ANTOLOGY) وجودي ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾.

هذا يعني أن الزوجية تخترق ليس الكائنات العضوية بل تصل إلى

النظام الفكري، فكما ولدت الذرية من طرفين غير عقيمين، كذلك تنمو الأفكار في جو الحوار الخصب.

خضع الإنسان لقانون التكاثر كبقية المخلوقات ولكنه بتفرده خرق القانون بقانون آخر أمسك به؛ فعندما كشف عن قانون الخصوبة والحمل، وضع يده على أسرار الهورمونات فدشن مستقبله بطريقة مباينة لكل المخلوقات.

الأرانب والدجاج والأفاعي تتكاثر وفق قانون الطبيعة ولكن الإنسان كسر هذا القانون. العقارب تعيش على ظهر البسيطة منذ ٤٠٠ مليون سنة تكرر إنتاج نفسها وحياتها بطريقة رتيبة، وبقي الإنسان يكرر هذا النظم إلى ما قبل أربعين سنة.

فصل الجنس عن الإنجاب:

استطاع الكيميائي الأمريكي (كارل جيراسي CARL JERASSI) النمساوي الأصل أن يدشن قبل أربعة عقود اختراقين معرفيين هامين، في طريق تحرير الإنسان من دورة الحمل والإنجاب، بوضع قدرة التحكم فيها تقديماً وتأخيراً أو منعاً، الأول في الكشف عن مادة الكورتيزون السحرية[1] والثاني الهورومونات

(١) مادة يفرزها الجسم من غدة الكظر المستقرة فوق الكلية تزن ثلاثين غراماً ولها قشر ولب فمن قشرها تتدفق هورومونات تنظم السكر والملح وتوازن السوائل في الجسم، والكورتيزون الذي ينفع في المناعة ومقاومة الضعف والصدمة والحساسية والالتهاب، في استخدامات لا حصر لها يسخرها الجسم، وكذلك الهورونات الذكرية، وهذا يعني بكلمة أخرى أن المرأة تفرز هورومونات ذكرية وأنثوية، فمن قشر الكظر هورمونات الذكورة، ومن المبيض هورمونات الأنوثة (الأوستروجين OSTROGEN والبروجسترون PROGESTERON) خلافاً للذكر الذي تفرز عنده الخصيتان والكظر هورمونات ذكرية (التستيسترون TESTESTERON) الذي يمني العضلات مما يفرق المرأة عن الذكر بقوة العضلات والعراك وهو الفرق الجوهري بين الذكر والأنثى أنثروبولوجياً.

الأنثوية فأمكن بواسطتها تركيب حبوب منع الحمل (ANTI-BABY-DRUG). ولا يماثل الاختراق المعرفي الذي دشنه العالم (جيراسي) سوى الاستنساخ الجسدي (SOMATIC CLONING) الذي أعلن عنه الاسكتلندي (ايان ويلموت) في ربيع عام ١٩٩٧م وأثار يومها وما زال ضجة كونية، عن معنى التكاثر وإلى أين تمضي رحلته، ومعنى العائلة والزواج والجنس.

اليوم تعني ثورة مستحضر (الفياجرا VIAGRA) دفعاً لنفس الاتجاه أعني تطوير المتعة الجنسية مفصولة عن الإنجاب؛ فالدواء يقوي الباه والانتصاب عند الرجال، ولا علاقة له بالإنجاب لو أحب الرجل، لأن الإنجاب على كافة الأحوال هو تقرير ومكان وحقل المرأة.

الإنسان يهندس مصيره:

بهذا التدشين يفترق الإنسان عن بقية الكائنات في هندسة مصيره. بقية الكائنات تمضي في حياتها مثل القطار على القضبان، مبرمجة الغريزة لا تبرحها، تكرره إنتاج نفسها، وأهم ما في الحياة الطعام والشراب والتناسل.

لو لاحظنا الأرانب والأبقار لوجدناها تأكل بدون توقف والاجترار في الراحة يعني المزيد من المضي في رحلة الأكل. لا غرابة إن وصف القرآن النمو في هذا الاتجاه صفة للكافرين ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾.

الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يخرج عن قضبان سكته ليغيرها بأشكال شتى، بل يصنع سكة جديدة كاملة، ذات مواصفات مختلفة. لعل الآية القرآنية لمحت بمفهوم الأمانة إلى هذا المعنى، فالإنسان هو الكائن المتفرد الذي حمل الأمانة ولم يحملها أحد غيره إشفاقاً من ثقلها[1].

(١) تأمل الآية من آخر سورة الأحزاب: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾.

مانعات الحمل (وتطويراتها اللاحقة) حررت الإنسان مرتين؛ فهي وضعت يد الإنسان على سر الحمل، بالإمساك بالإباضة والتلقيح، حسب البرنامج الذي يهواه الزوجان، وهي أعطت حقنة (المتعة الجنسية) بدون خوف الحمل، وهي مسألة ذات شقين ككل مسائل الوجود التي تواجه الإنسان.

المحطات الفضائية والتلفزيون والإعلام ومانعات الحمل ومكبرات الصوت والتلفون وكل إنتاج التكنولوجيا الحديثة، ليست مشكلتها فيها بل في طريقة استخدامها، وقبل ثلاثين سنة كان الخلاف على أشده في مكبرات الصوت للأذان، كما اعتبر التلفزيون وما زال عند البعض مصدراً للفساد، وتنقل المحطات الفضائية اليوم برامج جنسية فاضحة وأخرى ذات علم مفيد. مانعات الحمل يمكن أن يستخدمها زوجان متحابان ينظمان الحمل ووقته، كما يمكن أن تستخدمه امرأة منحرفة للوصول إلى ممارسة المتعة بدون ثمرتها.

انكسار في المخطط الديموغرافي (مستقبل الإنسان):

في ضوء الإمساك بأسرار منع الحمل وتنظيمه، وارتقاء الثقافة، وتدفق الرفاهية واعتماد أدوية تحسين نمط الحياة، وتنشيط دواعي المتعة، من نوع الفياجرا، بدأ المخطط الديموغرافي الإنساني في التغير، فهناك علاقة جدلية بين الثورة العلمية الحديثة وتأثيرها على وجود الإنسان البيولوجي.

منعطف ديموغرافي الأول من نوعه في تاريخ الجنس البشري أعلنته مؤسسة الإحصاء العالمي للسكان (UNFPA) يحمل أربع معلومات خطيرة: أهمها أن عدد السكان في العالم ينقلب للمرة الأولى منذ ملايين السنين على تواجد الإنسان فوق ظهر البسيطة؛ فالانفجار السكاني لم يتوقف إلا في الفترة بين عامي ١٩٨٠ ـ ١٩٩٥ فمتوسط أفراد العائلة الوسطي في سوريا انقلب من ٧,٤ فرداً إلى ٤,٧ فرداً، وفي تركيا في نفس الفترة من ٤,٤ إلى

٢,٧ قريب من حد (الحفاظ على النوع وهو ٢,١) أما في اليابان فانحدر تحت رقم الحفاظ على الأمة من ١,٨ إلى ١,٤، مما يعطي مستقبلاً قاتماً لمصير الأمة اليابانية، خلاف التوقعات جميعاً، أن القرن الواحد والعشرين سيكون في أحضان خليج طوكيو.

الأمر الثاني: عدد السكان على وجه الأرض حتى عام ٢٠٥٠ انخفضت التوقعات فيها من ١٥ مليار إلى ٩,٤ وقد يتزحلق الرقم مزيداً إلى الأسفل (رقمنا الحالي حوالي ستة مليارات).

والأمر الثالث: هو علاقة المتعة بالعائلة والمحافظة عليها، فبقدر انتشار (المتعة للمتعة) والاستزادة منها يقود إلى أمرين خطيرين: الأول: اضمحلال العائلة، وتفسخ الخلق، وولادة الانحرافات الجنسية، بما فيها الأقبح والأشنع التي لا تخطر على قلب بشر من (النمفومانيا واللواط والنكروفيليا والسادية والمازوخية والفتيشيا)[١] وهو ما يقود إلى الأمر الثاني: دمار الحضارة كما رآها المؤرخون، وأشار القرآن إلى أن المترفين عندما يزداد حجم تخريبهم إلى الدرجة الحرجة، يحق عليها القول فتدمر بقانون التاريخ بدون رحمة بطريقة ما.

يزداد عدد المترفين اليوم على صورة (المليارديرات) فارتفع عددهم بين عامي ١٩٨٩ و١٩٩٦ من ١٥٧ إلى ٤٤٧، وفي المكسيك يملك أغناهم في حسابه ٦,٦ مليار ما يعادل ميزانية دولة فقيرة بسكانها ذات العدد ١٧ مليون نسمة[٢].

---

(١) النمفومانيا الشبق عند المرأة، والنكروفيليا الهيام بالجثث، والسادية ممارسة المتعة بالتعذيب، والمازوخية باستقباله، والفتيشيا الهيام بأشياء المرأة الداخلية من ملابس وسواه.

(٢) DER SPIEGEL العدد ١٩٩٨/٤ ص١٦٢ بحث انكسار في المخطط (KNICK IN DER KURVE) والمعلومات الديموغرافية من هذا العدد.

وفي الإحصائية الأخيرة للشعب الألماني بين عامي ١٩١٠ و٢٠٤٠ تظهر الشجرة الإحصائية أنها لم تعد مثل شجرة السرو عريضة القاعدة، شاهدة على نسل وفير وشعب فتي، بل هيكل شجرة نحل ساقها وضمر شبابها وكثر شيوخها، في أمة ترشف اللذة ويتكاثر فيها (التنابلة) وتودع نظم الحضارة إلى مقبرة التاريخ.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ . . .

حياة الدول دورات عندما يحين أجلها تختفي في بطن التاريخ وكأنها لم تكن؟

العقاب التاريخي للأمم:

عندما كنت في قرطبة دخلت المسجد الجامع فلم أمسك نفسي من دمعة سالت على خدي، وعندما وقفت في المحراب تذكرت شعر أبي البقاء الرندي:

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة   حتى المنابر ترقى وهي عيدان

فاشتهيت أن أقيم الأذان فأصلي ركعتين، فلما سمع الرقيب الإسباني القريب ركض يحاول منعي، فتابعت وابنتي الصغيرة بشرى ترمقني بدهشة.

قلت: لعل عظام أجدادنا تنتشي بسماع الأذان، واستحضرت أبا الوليد ابن رشد عندما طرده المصلون وابنه عندما دخلا العصر يريدان الصلاة. بقي في مذكراته يقول للتاريخ: كان أشد ما حدث لي في حياتي هذا!! لولا المسجد العملاق لما ظننت أن أمة كانت تعيش هنا، ودمعت عيني أكثر فأكثر فلم يبق أحد لا الطارد ولا المطرود، في عقاب من التاريخ لأمة تُعاقب مفكريها بهذه الطريقة.

الإعجاز العلمي في القرآن

كيف نحدد موقفنا في قضية التفسير العلمي في القرآن الكريم؟ وموجة تحميل الآيات إلى كل كشف علمي جديد، بأن هذا ما عناه القرآن الكريم؟ هل يمكن توريط الآية في معنى محدد كشف عنه العلم الحديث؟ فنراهن على أن هذا ما عنته الآية تحديداً؟؟ أليس فيه خطر كبير وخطأ قاتل؟ وتحجيم اللانهائي في النهائي؟

لعبة توليد المعاني من الألفاظ؟

في لعبة توليد المعاني من الألفاظ يمكن أن يحدث كل شيء، مثل الساحر في السيرك فيخرج الأرانب والمناديل من القبعات. شرح لي أحدهم آية ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ بأن المقصود منها صواريخ اكتشاف الكواكب؟!

الطبيب (محمد كامل حسين)(١) وصف هذه الظاهرة منذ زمن بعيد أنها: بدعة حمقاء، وتفاءل كثيراً بعد مقالته أن يكون قد وأد هذه البدعة، ويعجبني بنفس الوقت ما كتبه المفكر الجزائري (مالك بن نبي) عن الفرق

---

(١) تناول الطبيب والمفكر محمد كامل حسين هذه الإشكالية في كتابه (متنوعات) الجزء الثاني ص٢٩، والكاتب متوفى وكان جراح عظام ورئيس جامعة في مصر، ولكنه دماغ عبقري مجهول، ويذكر (أنه لم يحمل على القول بالتفسير العلمي للقرآن إلا رغبتهم في الدفاع عن التنزيل الحميد)، ويرى أن العلم يتعلق بالطبيعيات وهي أسهل كشفاً من قوانين الحياة والإنسان، وهي من غير شك دون قوانين النفس البشرية والغيب والإلهيات، والكتب المنزلة تتعلق أصلاً بهذه الأمور؛ فليس لها بالعلم الحديث صلة، ولا يضيرها في شيء أن تكون بمعزل عن هذه العلوم، انظر نفس الكتاب ص٣٠.

بين ما يبحثه القرآن، وما يعمل عليه العلم، فالقرآن وظّف نفسه ليس للكشف أو البحث في القضايا العلمية من فيزياء نووية وكوسمولوجيا وانثروبولوجيا، بل كان جل اهتمامه مصبوباً على إيجاد المناخ العقلي الذي يوفر الجو الصحي لنمو كل العلوم بشكل تراكمي سليم.

ويعجبني ثالثاً (النيهوم) الكاتب الليبي حينما اعتبر القرآن أعظم كتاب بحث مشكلة تحرير الإنسان من خلال مفهوم التوحيد، أكثر من بحث أي كتاب آخر، وأكثر من الالتفات لأي قضية أخرى.

العلم وفلسفة العلوم (الابستمولوجيا):

حرص (المعهد العالمي للفكر الإسلامي) أن يطرح إشكالية حاول حلها لامتصاص صدمة الحداثة ما سماها (أسلمة المعرفة)[1] وفي قناعتي أننا يجب أن نفرق بين (العلم) و(فلسفة العلم) والفكر الإسلامي التنظيري يجب أن يعمل في الحقل الثاني: فلسفة العلوم أو ما يطلق عليها حالياً الابستمولوجيا (EPISTEMOLOGY)[2].

لعلي أنا شخصياً كنت من رواد إيجاد معادلة أو صيغة ندخل بها العقل المسلم الحداثة والمعاصرة، والاطلاع على العلم الحديث، وربط ذلك بالإيمان؛ فكتبت جزئين من كتاب يجمع بين الطب والإيمان (الطب محراب الإيمان)[3]، وخلال ربع القرن الفائت تطور معي الموضوع بشكل كبير،

---

(١) هناك اليوم في السوق مجلة للمعهد تصدر بعنوان (إسلامية المعرفة).

(٢) يراجع في هذا كتاب (مدخل إلى فلسفة العلوم، أبحاث في الأبستمولوجيا المعاصرة) للمؤلف محمد عزام، نشر دار طلاس، دمشق، ص١٠. والمصطلح اشتق من كلمتين يونانيتين (EPISTEME) ومعناها علم و(LOGOS) ومعناها علم أو نقد؛ فالأبستمولوجيا من حيث الاشتقاق اللغوي هي علم العلوم أو الدراسة النقدية للعلوم، أما معجم (لالاند) فيعرفها بأنها فلسفة العلوم.

(٣) صدر لي الجزء الأول كرسالة تخرج من كلية الطب عام ١٩٧١م، أما الثاني فكتبته في=

كتبت فيه قبل قليل كتاباً عن (العصر الجديد للجراحة ـ من جراحة الجينات إلى الاستنساخ الإنساني) وأنا أطلع على العاصفة العلمية المتنامية الملوحة من الأفق البعيد.

غائية الخطاب:

صحيح أن هناك من (التوافق) الملفت للنظر في بعض الآيات القرآنية عن حقائق علمية تم اكتشافها مثل: كروية الأرض ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥] ومثل: انخفاض مستوى الأكسجين في الارتفاعات ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ومثل: الحياة من الماء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

ولكنها عرضية ولم يردها القرآن بشكل أساسي.

الآية أرادت شيئاً آخر غير ما يريده أصحاب التفسير العلمي، ففي الآيات الثلاث نهايات تحدد غائية وقصد الآية وإلى أين تتجه؟؟

تأمل النموذج الأول: كل يجري لأجل مسمى ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾، وتأمل الثاني: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وتأمل النموذج الأخير: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الآيات الثلاثة أرادت أن تبني الإيمان بطريقتها الخاصة، واستخدمت الطبيعة كأداة في الدلالة. الآية لم تعن بشكل قطعي ونهائي كروية الأرض

= ظروف معاناة استغرقت ٢٥٠ يوماً وظهر إلى النور عام ١٩٧٥م (نشر دار مؤسسة الرسالة)، والآن بعد مرور ٢٣ عاماً على صدور الثاني يصدر لي الكتاب الرابع في هذا الاتجاه بعنوان (العصر الجديد للجراحة من جراحة الجينات إلى الاستنساخ الإنساني) (إصدار دار الفكر دمشق)، أما الثالث فصدر مع عاصفة الإيدز بعنوان (الإيدز طاعون العصر) (دار الهدى الرياض).

ونقص الأكسجين في الأعالي وصيرورة الحياة من الماء. القرآن يهدف إلى تحريك العقل لتأمل الوجود والاكتشاف بدون توقف أسراره الدفينة. الطبيعة كتاب لا نهاية لكلماته ولو تحولت البحار إلى محبرة هائلة وأشجار الأرض إلى أقلام تسطير؛ لفنيت الأقلام وجفت البحار، وما زال هناك متسع لمزيد من الكتابة.

إذا قدم العلم بعض الإنجازات في الكشف عن زوايا معرفية تتفق مع عموم الآية لا حرج، ولكن يجب أن نكون أكثر من حذرين في تحجيم الآية بقدر الكشف العلمي. يمكن أن نقول إن هذا اتفاق مدهش، ولكن لا يعني بالضرورة الحقيقة النهائية المطلقة، لآية أخذت أبعادها بحجم المفهوم العلمي تعييناً.

تدشين اتجاه كامل عن الإعجاز العلمي، والركض خلف العلوم والآيات وأيدينا مشرعة نصيح: لقد سبقتكم الآية بالكشف.. إنها موجودة في القرآن.. إن القرآن منزل من عند الله والإسلام صحيح بموجب هذه الأدلة!! يحمل مجموعة من الأخطاء القاتلة، فليس أضر على قضية رابحة مثل الدفاع الفاسد عنها كما يقول الدكتور محمد كامل حسين.

مظاهر للهزيمة الروحية:

هذا الاتجاه يحمل كل معاني الهزيمة الروحية؛ فنريد أن ندلل على صحة قضيتنا بما أنتجه مخالفنا، في الوقت الذي نريد إبطال دعواه، والتظاهر بالتفوق عليه.

نحن نختلف مع الغرب، ولكن نريد أخذ شهادة صدق للمقدس عندنا مما وصل إليه الغرب. دليل الحقيقة عندنا، ومصدر توثيقها ما عندهم. نحن نمشي إلى الخلف. نحن نتسلق الظلال. نحن نعالج القِصَر بلبس بدلة طويلة.

وتنسحب هذه الهزيمة على جيوب كثيرة؛ فعندما نعاني من الهزيمة الحضارية نريد أن نقنع أنفسنا أننا بخير، وأن كل ما ينتجه الآخر لا يزيد عن تكرار الحقائق التي عندنا. هو يتعب ليصل إلى ما ثبتناه نحن وأنتجناه، وهي أكبر من خرافة وأعظم من هلوسة.

إذا كان كل ما ينتجه الغرب عندنا فلماذا التعب إذاً؟؟؟ إنها فكرة مريضة تعطل كل جهد واجتهاد ونمو!!

بين مفهومي السنة والخوارقية:

الفكر التقليدي يفهم أن المعجزة كسر للقانون واختراق للسنة. حتى تثبت القدرة الإلهية يجب بناء الفوضى، فلا يوجد خلف القانون إلا اللاقانون.

قدرة الله لا تظهر إلا بقدر خرق قوانين الطبيعة، وأقوى برهان على وجود الله زعزعة الثقة في نظام الطبيعة، وهو جهل بالله وبالطبيعة على حد سواء، على حد تعبير فيلسوف التنوير الهولندي سبينوزا.

المعجزة تخضع للقانون بشكل نوعي، وهو أسلوب لم يدفع جميع الناس إلى الإيمان، فناقة صالح عقرت، وتسع آيات بينات من الطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم لم تفعل شيئاً أمام جبروت فرعون وقساوة قلبه، وبقدر غزارة خوارق المسيح قفز مسلسل البطش بالمسيح إلى حافة المصلبة ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ كما راهن عليه المشعوذون والدجالون والأنبياء الكذبة وما زالوا، والمسيح الدجال سوف يقوم بحملة معجزات تؤكد كذبه إلى درجة إحياء الأموات كما جاء في جملة أحاديث.

ما سمي بالمعجزة وتم فيه خرق القانون وتدشين الاستثناء ظاهرة خاضعة لسنة الله في خلقه، مجهولة الكيفية لعقولنا، بسبب غموض قانونها أمام وعينا وقصور علمنا وقتها؛ فالله أجرى الوجود وفق سنته التي لا تتحول ولا تتبدل.

المعجزة تعتمد الخلاب والخوارقية، والقرآن حرم على نفسه هذا الاتجاه، في اتجاه بناء عقل منهجي سنني، فلم يستجيب لطلبات المشركين الصبيانية، بطلب لائحة معجزات بدون حدود، تتراوح من فتح بئر ماء ارتوازي في الأرض، وبستان تفاح وعنب، وفيلا أنيقة، أو العثور على كنز روماني في الأرض، إلى إحضار الله شخصياً مع الملائكة فيما يشبه الاستعراض العسكري؟!

تأمل الآيات القرآنية من سورة الإسراء وعشرات أمثالها يزخر بها القرآن: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣].

بناء العقل من جديد (السنة ـ التسخير):

المعجزة محدودة الزمان، محدودة المكان، محدودة الرؤية من أشخاص بعينهم، لجيل مسمى لا يمكن تكرارها، فلا يمكن يومياً شق البحار وقلع الصخور واستخراج الجمال من الأرض. ولكن القانون المتعانق مع العلم وجدلية العقل يسخر الكون كله يومياً في كل وقت من خلال الإمساك بمفاتيح سننه.

القانون يمنحنا السيطرة على الكون.

الدجالون والمشعوذون والأنبياء الكذبة والمهدي الدجال كلهم تجري على أيديهم معجزات، ولكنهم لم يكسبوا الاتباع، ولم يتركوا لأنفسهم تاريخاً سوى الهزء والسخرية والتندر وسوء الاسم، كما في قرآن مسيلمة الكذاب، بسبب بسيط أنهم اعتمدوا الخارق والأسطوري والخلاب.

ترك التاريخ لنا بعض (سور) مسيلمة من قرآنه المزعوم، فإذا كان محمد ﷺ نزلت عليه سورة (البقرة) فهو نزلت عليه سورتي (الفيل) و(الضفدع): (الفيل وما أدراك ما الفيل له خرطوم طويل وذنب وثيل) (يا ضفدع بنت ضفدعين. نقي ما تنقين. لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين. نصفك في الماء ونصفك في الطين)؟!!

القرآن اعتمد سنة الله في خلقه التي لا تتبدل ولا تتحول.

إذا كنا سنعرف الله ونؤمن به، من خلال الخلاب والأسطوري وخرق القانون وإدخال الاضطراب إلى نظام الطبيعة؛ فهذا منهج أقرب إلى الإلحاد منه إلى الإيمان.

لم يعتمد القرآن ولم يراهن على استخدام هذا الأسلوب، وقال عنه إنه كان يستخدم للتخويف ولم ينفع، فكان أسلوباً بدائياً قديماً، ربما نفع فيما سبق، لكنه مع نمو البشرية توقف مفعوله، وهو حتى في حدوثه اعتمد ينابيع القوانين الدفينة في الطبيعة، فلم يكن خرقاً لها ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾.

من الغريب أنه مع كل إلحاح القرآن وطبيعة الانتصارات التي حققها نبي الإسلام باعتماد القانون والمنهجية والعقلانية وافتتاح عصر جديد، بقدر ما كبت ثقافتنا على وجهها باتجاه السحري والأسطوري والخلاب، فكتب معظم تراثنا بهذا الضوء، وسطرت السيرة بكرونولوجيا غزوات وخوارق، على نحو غير مفسر وغير مفهوم، قادت الفكر الإسلامي إلى وضع الكارثة التي نعيشها في الوقت الراهن.

فكرة ختم النبوة عند إقبال:

عند هذه النقطة بالذات رسخ الفيلسوف (إقبال) مفهوم ختم النبوة على نحو رائع. الرسول ﷺ يمتاز أنه يشبه الرسالات التي سبقته بنفس السياق

والتسلسل؛ فلم يكن بدعاً من الرسل، ولكنه يختلف عنهم بفتح عصر جديد.

ما معنى ختم النبوة؟؟؟

إنها فكرة عملاقة تعني نهاية مرحلة توجيه الإنسان ليقوم بنفسه، فالنبوة تحولت هكذا من نموذج قديم إلى نموذج لا ينقطع مطلقاً، من نوع جديد تعتمد زخم العقل والعلم، وآيات الله في الآفاق والأنفس، والكشف عن مصادر الطبيعة والتاريخ، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

مع هذه الفكرة ينتهي عصر (الخوارق والتفوق والامتيازات)، فلا نبي بعد، ولا خوارق تدشن، وليس هناك من كاهن يعتمد، أو عرّاف يصدق، ووقت السحر ولّى، والعلم هو الذي سيحتل الساحة من خلال الكشف عن القانون وتسخيره في كل مستوى.

لو عرض اليوم الفاكس معكوساً ألف سنة إلى الخلف لاعتبروه خارقياً معجزاً، ولو استخدم التلفون أو الكمبيوتر فيما خلى لكان معجزة لا ذرة للتردد فيها.

أعرف أن هذه الأفكار علمية اختراقية حساسة خطيرة، ولكنني أراها تعمق الإيمان ومفهوم السنة، فبقدر ما كان عالم ما قبل الإسلام خوارقياً أسطورياً خلاباً، بقدر ما كان الإسلام دين العقل والعلم والسنن.

عندما كنت أستخدم الفاكس قلت: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾، علق جراح الأعصاب: ولكنها آية في تسخير الدواب، ولم يستطع أن يطور الآية إلى المصعد والفاكس والغسالة وكل طاقات الكون، التي تنتظم تحت تعبير التسخير، في شهادة واضحة إلى كساح عقل المسلم وحاجته لجراحات فكرية متطورة، وقبلها حل عقدة الحداثة السيكولوجية.

جدلية الممكن والمستحيل

في مواجهتنا للأشياء نحن حيال ثلاث معادلات: أشياء (يمكن) أن ننفذها، وأشياء (يستحيل) أن نحققها، وبين الممكن والمستحيل هناك (طيف) من الإمكانات، فضمن الممكن هناك أشياء (يسهل) فعلها، وهناك أشياء (يصعب) إنجازها، ولذا يجب أن نسأل أنفسنا دوماً هذا السؤال المحوري: هل الأمر الذي يواجهنا (مستحيل) أم (صعب)؟؟ لأنه بناء على تحديد الإجابة يتولد أمر في غاية الأهمية، فـ(المستحيل) يعني أن لا فائدة من بذل الجهد، في حين أن (الصعب) يتطلب بذل الجهد المكافئ، فوحدات من طاقة العمل تذلل الصعوبات حسب حجم الصعوبة، وهي مرتبطة بعامل (الزمن) حتى يتم تحريرها من الاستحالة، فالعملية الجراحية مهما بلغت من سهولة التداخل وصغر الحجم وقصر الوقت تعتبر (مستحيلة) إذا افترض العقل إنجازها في خمسة ثواني!! ونقل جبل يصبح في حيز (الممكن) إذا توفرت (الإرادة = الجانب النفسي) و(القدرة = الجانب الفني) مضافاً إليهما عنصر (الزمن).

المستحيل يعني العبثية في الاتجاه فكل حركة في هذا الاتجاه هي مضيعة للوقت والجهد وعمل في الحقل غير المفيد، وهذه الفكرة إنارة رائعة للحديث الذي ينهى عن البكاء على الماضي تحت مقولة (لو)[1]، والاختلاط

---

(١) جاء في الحديث الصحيح النهي عن **(لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن ليقل أحدكم: قدر الله وما شاء فعل)** لأن التمني على تغيير الماضي يعتبر في حكم (المستحيل) ولذا وجهنا الحديث للعمل في الحقل المفيد أي حقل (الممكن).

يقع بين تداخل هذه الحقول الثلاثة (المستحيل) و(الممكن) بشقيه (السهل) و(الصعب) حيث تصبح عقليتنا ترى الأشياء في (تردد = ذبذبة) بين ذهان (السهولة) وذهان (الاستحالة) وبذلك يختفي مفهوم الصعوبة الذي يعتبر المحرك الأساسي لتحريض آلية بذل الجهد.

وهكذا رأى العقل العربي في يوم من الأيام (إسرائيل) دويلة عصابات وشذاذ الآفاق، أما اليوم فهي التنين النووي وشمشون الجبار الاستراتيجي، والأمر ليس بهذا ولا ذاك، وينطبق القانون التاريخي على الجميع، ولن تشذ إسرائيل عن قانون التاريخ، فهي منخس التحدي التاريخي، و«ترمومتر» انهيارنا الحضاري، ومشعر مرضنا وعجزنا، ولذا فهي تمثل كمية (من العمل الصعب المليء بالتحدي والقابل للإنجاز)، ومن الضروري في المستوى الفردي والاجتماعي تحديد مساحات الممكن والمستحيل والعلاقة الرياضية بينهما، فحين نزهد في (الممكن) ونحلم بـ(المستحيل) نصبح عملياً في إجازة مفتوحة، وحين نتعامل مع الممكن فنستفيد منه؛ فإننا عملياً ومن خلال الجهد نربط بين طرفي معادلة (الممكن ـ المستحيل) لنقفز من عتبة الممكن ـ مع الزمن ـ إلى فضاء المستحيل.

أحجار على رقعة شطرنج كبيرة؟؟!!

وضع الموظف البنكي الكبير ساقاً على ساق ثم نفث في وجهي دخان سيكارته؛ الذي لم يكلف نفسه في الاستئذان كثيراً قبل الهجوم على صحة رئتي وسلامة أوعيتي الدموية، وحدق في الحضور وتابع الحديث: يا جماعة كل ما يحدث لنا يتم وفق تخطيط خارجي ونحن لسنا أكثر من أحجار على رقعة الشطرنج؟!!

وباعتبار مهنتي المزدوجة (جراح أوعية) فأنا أصلح الأوعية الدموية في قاعات العمليات، والمجاري الفكرية في جلسات البحث العقلية، وكنت قد فرغت لتوي منذ أيام قليلة من تصليح شرايين مدخن عمره ٣٨ سنة كان يجر

قدميه بسبب فقر التروية الدموية (ISCHAEMIA) في ساقه اليسرى، ولأنني أُصِبت بالصداع في جو الدخان، فقمت بتداخلين لإصلاح الوسط: ضباب الدخان لإنقاذ رئتي وأوعيتي من هجوم النيكوتين، عن طريق المدخنة المسلطة فوق رؤوسنا، وضباب الأفكار السلبية المعيقة للتنفس العقلي الصحيح!!

الأمثال الشعبية:

من خلال خبرتي الميدانية لفت نظري موضوع (الأمثال الشعبية) وعلاقتها بالثقافة السائدة، ولاحظت أن هناك تياراً من الأمثلة يشكل عقلية إنسان المنطقة، ومن الغريب تكرر المثل مع تباين اللهجات المحلية، وهكذا نسمع (موطالع بأيدنا شيء)، (عين ما تقاوم مخرز) و(ياللي أخد أمنا بنسميه عمنا) و(الأيد اللي ما تقدر تعضها بوسها وادعي عليها بالكسر) و(من حيط لحيط وربي سترك) و(ما دخلنا) و(فخار يكسِّر بعضو)؟؟!!!.... وما زلت أتذكر حادثة جرت لي في مدينة الدمام عندما كنت عند بياع (الشاورما) عندما سمعنا ضجة كبيرة فصاح البياع (ما دخلنا = أي لا دخل لنا فيما يجري؟؟!!) ثم أردف (فخار يكسر بعضو = أي فليكن مثل جرات الفخار التي يكسر بعضها بعضاً طالما أنا في الحفظ والصون؟؟!!).

من القصة السابقة والأمثلة الشعبية التي أوردت يمكن أخذ (عينات) ثقافية للتحليل المخبري العقلي البارد، فكما أن المريض يأتي إلى المخبر فتؤخذ عينة من دمه للتحليل فيكشف من هذه العينة البسيطة أشياء لا تنتهي عن وضع بدنه وأجهزته البيولوجية المعقدة، من مثل فقر الدم وارتفاع الكولسترول وقصور الكبد وفشل الكلية والتهاب المعثكلة واضطراب الشوارد المعدنية، كذلك الحال في (العينات الثقافية)، فصاحب (الشاورما) عندما صرخ مع صوت الاصطدام (ما دخلنا) كان في الواقع يعبر عن ثقافة سائدة وعقلية مسيطرة ومفاهيم لها اليد العليا في المجتمع، فكلمته هذه تمثل ثقافة

الانسحاب والارتداد والانكفاء على الذات وتوقف روح **(المبادرة الفردية)** هو يريد أن لا يسمع شيئاً غير إطار عمله اليومي، كون العالم الخارجي لا يحمل إلا الشر والأذية والرض (TRAUMA) هو لا يرغب أن يكون شاهداً على واقعة، فهو قد خسر وظيفة (الشهادة) التي تكلم عنها القرآن منذ زمن بعيد، هو لا يحب من قريب أو بعيد رؤية (البوليس = الشرطة) فيعينهم على كشف جريمة، هو غير مستعد لإسعاف إنسان مصاب طالما أنها لا تخصه، فهو مؤشر فاضح لتفكك الشبكة الاجتماعية. فهذه الثقافة السلبية في مجتمعنا يمكن الكشف عنها بمثل هذه العينات من (الأمثال الشعبية).

وبالمقابل مازلت أتذكر برنامجاً كان يبث في ألمانيا بعنوان (XY) حيث كان يعرض للجرائم فيعرضها ويعيد تركيبها (RECONSTRUCTION) ثم يتم مخاطبة الجمهور في كل من ألمانيا وسويسرا والنمسا وليشتنشتاين (المناطق الناطقة بالألمانية) للإفادة بأية معلومات هامة حول الواقعة، وكان يتم بواسطة (المبادرات الفردية) الكشف عن الكثير من الجرائم المروعة، فالفرد هناك يفتح عينيه على كل ما يحدث ويشارك بدون خوف ومعه كل حس الدفاع عن المجتمع الذي ينتمي إليه.

وعندما نرجع لتحليل مقولة الرجل آنف الذكر لفهم الآليات الخفية خلف حدوث الواقعات يبرز أمامنا السؤال المفصلي: هل حقاً أننا لا نملك من أمرنا شيئاً أي أننا أمام ذهان (الاستحالة) أم أن هناك هامش يمكن أن نتحرك به؟ وما هو مقداره؟ وأين هو حقله؟ إذاً من الواجب أن نتأمل قطاع (الممكن) الذي يمكن أن نحدث فيه شيئاً بـ(جهدنا).

الممكن والمستحيل في الواقع الأرضي:

لنطرح الأسئلة البسيطة التالية: هل هناك قوة في الأرض تمنع الإنسان أن يحرص أن يأتي لموعده على وجه الدقة؟ هل هو في حكم الاستحالة أن

يلبس الإنسان ثوباً نظيفاً أو أن تكون رائحته طيبة وشعره مُسرَّحاً؟ هل هناك من يمنع أن يحترم الإنسان زوجته ويُثقف ابنه ويبتسم في وجه جاره ويقرأ كل يوم نصف ساعة بحثاً مُجدياً؟؟ هل هناك من يحول بين المرء وأن ينظف أمام بيته وأن لا يلقي زجاجات «الببسي» في الطرقات؟ هل هناك صعوبة بالغة أن يوطن الإنسان نفسه أربعاً وعشرين ساعة أن لا يذكر أحداً إلا بخير؟؟ هل هناك من يمنع أن يتسامح الإنسان مع الآخرين وأن يعذرهم وأن لا يسرع في تكفيرهم ولعنهم عندما يختلف معهم؟ هل في إمكان الإنسان أن يدرب نفسه على أن لا يفعل أمراً يخالف القواعد الأخلاقية ولو أمر بذلك؟ هل بإمكان الفرد أن يتخلص من التحول إلى (شيء) في صورة بوق أو مسدس؟ هذه الأسئلة البسيطة وأمثالها تعطينا الانطباع أن مساحة الممكن هي العظمى في الحياة وأن بإمكان المرء أن يفعل أشياء كثيرة جداً.

إن أعظم إحباط يصاب به الإنسان عندما يضع لنفسه هدفاً لا يستطيع الوصول إليه!! وأفظع منه أن يعيش بقية عمره على هذا الحلم؟ وأشد تدميراً منه عندما ينتظر الصدف أن تولد هذا الواقع الذي يحلم به!! فكلها سلسلة من الأخطاء الرهيبة التي تلغي آلية الجهد.

يحمل الإنسان جدلاً رهيباً، فهو لا شيء إذا قورن باللانهاية (كما هو معلوم في الرياضيات أن نسبة الرقم إلى اللانهاية تساوي الصفر) وهو كل شيء إذا قيس بالعدم، فهو يسبح في اللحظة الواحدة بين العدم واللانهاية.
بين الممكن والمستحيل، فهو لا يستطيع خلق نفسه ولا خلق أولاده ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣] ولذلك سحب الله إمكانية الخلق منا ولو كانت ذباباً تافهاً ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣].

العلاقة الرياضية بين الممكن والمستحيل:

نحن نرى في اللحظة الواحدة السهل والصعب والمستحيل في الشيء الواحد في ثلاث حالات، وفي الأشياء الثلاثة في الحالة الواحدة، فمن الممكن (حمل) الصحن، ولكن يصعب حمل الطاولة الكبيرة، ويستحيل حمل البيت، كما أنه نستطيع أن نحمل الصحن ولكن يصعب تحويله إلى قدح ولكن يستحيل قلبه إلى أرنب. نحن لا نستطيع تغيير عقول كل الناس، ولكن نستطيع عدم إضاعة الوقت في (الشدة والطرنيب) والالتفات إلى تثقيف أنفسنا. نحن لا نستطيع تغيير قوانين المرور، ولكن بإمكاننا أن لا نخالف إشارة المرور، حتى لو كنا وقت صلاة الجمعة والشارع فارغاً، وإذا دخل في روعنا هذا وجب أن ندخل عنصراً آخر هو عدم الاستخفاف بأي إنجاز (ممكن) مهما كان زهيداً وصغيراً.

فالكل يفكر بالأشياء الكبيرة وينسى الأشياء الصغيرة التي هي مكونات الأشياء الكبيرة وعناصرها الأولى ولبناتها الأساسية، فأكبر الأرقام هو تجمع رقم الواحد فوق بعضه البعض مهما بلغت ضخامة الرقم، والإنجازات العظيمة هي محصلة تراكمية للإنجازات التافهة الصغيرة، والجبل تجمع هائل للحصى الصغيرة وحبات الرمل التافهة، والهرم تركيب ملايين الأحجار الصغيرة (الممكنة الحمل)[1].

والإنسان هو محصلة تراكمية بطيئة للجهد الواعي المتشكلة عبر وحدات الزمن، وفي معركة بدر التي سماها القرآن فرقاناً كانت (إظهاراً) لإمكانيات تشكلت فيما سبق، وليست إنجازاً برز فجأة إلى السطح، والمجتمع كم هائل من الأفراد منظمين ضمن شبكة علاقات، وتغيير الأفراد

(١) صحح ابن خلدون في مقدمته معلومة هامة عن بناء الأهرامات حين ضل بعض الناس فظنوا أنها بُنيت بيد بشر عمالقة، وقال: إنها بُنيت بيد بشر مثلنا تماماً ولكن الذي مكنّهم من ذلك هو استخدامهم لتقنيات هندسية متطورة في عصرهم في الرفع والبناء.

التدريجي سيقود في النهاية إلى تغيير المجتمع، ولا يتطلب ذلك تغيير كل الأفراد فليس مطلوباً ولا ممكناً، بل تغيير الكم الحدي (أو الكتلة الحرجة) وعند الوصول إلى تغيير الكتلة الحرجة يبدأ التيار الاجتماعي في التشكل وعلى العكس فإن (شذوذ) فرد منه بتصرفات وأفكار يعرضه لقانون (الدجاجة المجروحة في القن) حيث روى لي صديقي الدكتور الصناديقي عن ملاحظة أمه التي تربي الدجاج، أن الدجاجة إذا جرحت عمدت بقية الدجاجات إلى نقرها في مكان الجرح حتى الموت، ولذا تعمد أمه ـ على ما روى ـ إلى عزل الدجاجة المجروحة فوراً.

وهذا يفسر لنا بعض الوقائع التاريخية البشرية فـ(جرح) ابن تيمية في (القن البشري) في الفتاوى التي (تميز) بها في عصره في الطلاق وشد الرحال[1] عرضه للنقر الاجتماعي حتى الموت، فرُمي في سجن القلعة حتى فاضت روحه خلف القضبان. كما يفسر لنا الانسحاب الذي يقوم به الأنبياء في مرحلة من دعوتهم ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وهو ما أشار إليه المؤرخ البريطاني (توينبي) في كتابه (دراسة التاريخ) عن قانون الاعتزال والعودة.

جدلية الممكن وتطوره:

عند وضع اليد على المفتاح السحري: (أن بإمكاننا أن ننجز شيئاً) تتولد سلسلة من الأمور الإيجابية:

(١) كلفت فتوى الطلاق ابن تيمية غالياً فهو الذي رأى أن الطلاق الثلاث في وقت واحد يبقى واحداً، كما اعتبر الحلف بالطلاق يبقى في إطار الحلف وكفارته صوم ثلاثة أيام ولا يقع طلاقاً، كذلك واستناداً إلى الحديث أن الرحال لا تشد إلا إلى ثلاثة مساجد ونحن نستغرب اليوم كيف ألقي في السجن من أجل هذه الآراء ليموت فيه، بل تمت المطالبة بإهدار دمه؟!! وهذا يشي بتناقضات الصراع الإنساني وأنها قابلة للتكرار بنفس الصورة في أوقات شتى. يُراجع في هذا كتاب (ابن تيمية) لـ(هنري لاوست) كتاب (آراء ابن تيمية في الاجتماع والسياسة) وكتاب (ابن تيمية) سلسلة أعلام العرب بقلم محمد يوسف موسى.

الأمر الأول: (النجاح يقود إلى النجاح) فالنجاح يولد الشعور بالثقة بالنفس، عندما يحس الفرد أن بإمكانه أن يفعل شيئاً. والعكس بالعكس فالفشل يخلق الإحباط والخوف من المحاولة الجديدة، ما لم يزود بميكانيزم نفسي مرافق وهو أن المشكلة ليست في (المشكلة) بل في موقفنا منها، فأي استعصاء في حل المشاكل يرجع بالدرجة الأولى إلى عجزنا أكثر من تعقيدها الذاتي، والمشاكل تنبع من (مواقفنا) غير السليمة منها، فنحن مستعدون إلى لعن كل شيء واتهام كل أحد، وغير مستعدين لمراجعة أنفسنا لحظة واحدة، وهذا ميكانيزم خبيث للغاية (MALIGNANT) لأنه يقود إلى تعطيل الجهد البشري وتدخله في إصلاح الخلل، طالما كانت التهمة للآخر جاهزة وعدم الالتفات إلى إدخال الذات في معادلة التصليح.

ولذا وجب تدريب أنفسنا على قانون نفسي قاسٍ هو (عدم لوم أحد) في مواجهة أية مشكلة، ليس لعدم وجود طرف آخر في المشكلة، فالنزاع الإنساني في العادة مزدوج الطرفين، ولكنه التدريب على العمل في الحقل المفيد، فأفكارنا تحت سيطرتنا، أما اتهام الآخرين فهو ـ بشكل غير مباشر ـ دعوة إلى إراحة الذات من التفعيل والمراجعة وتعب إدخال التصحيح، فهو تعطيل (قانون الجهد)، بل إن (تغيير نفوسنا) هو طرف (الرافعة) الميكانيكية النفسية الاجتماعية، كما هو عند الأطفال عندما يجلسون في الحديقة على طرفي الرافعة، فإذا أمكن التأثير فهو من الطرف الذي يستقر عليه ثقلنا، وهكذا فالساحة النفسية عندنا هي حقل تأثيرنا، أما الآخر فنحن غير مسؤولين عما يعمل الآخرون ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، والمسؤولية فردية ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾.

الأمر الثاني: (النجاح يعطي قدرة «تَمَكُّن» أعلى) فبعد انتهاء العملية الناجحة فإنه يخرج منها بغير حصيلة الخبرة قبلها بل زيادة الخبرة الجديدة، وكل ضربة لا تكسر الظهر تقوي أكثر كما يقول المثل.

الأمر الثالث: (ينعكس النجاح على النفس فيعطي السعادة) في حين أن الفشل يدخل الإنسان في دوامة الحزن ويجب أن يتخلص منه بالنجاح.

وفي الواقع يجب أن نرى الديناميات النفسية في (حقل) متحرك (ديناميكي) وليس وسط جامد (استاتيكي) كما هو في علم الميكانيك، وهذا نعرفه من يومياتنا العادية، فعندما يتعرض الإنسان لخطر ما فإنه يصاب بالخوف الذي يدفعه إلى شعور وحركة، شعور بالكراهية لمصدر الخطر، وحركة بالهرب من الخطر المحدق، أما النجاح فيعطي شعورين مترادفين، الأول: **الثقة بالنفس** التي قد تنتفخ إن لم تلجم فتصل إلى الغرور، فتتدخل الطبيعة لتفرمل الغرور حيث يصاب صاحبها بالخطأ فالنكس فالارتداد للموقع الأول، **والثاني: السعادة الغامرة** التي تنعكس على البيولوجيا إيجابياً. وهذا نراه في مضاداتها أيضاً فالغضب يقود إلى جفاف الفم وانحباس البول والإمساك وخفقان القلب وارتفاع التوتر وزيادة الحركات التنفسية، والحزن يولد الوهط والكسل والتوقف عن النشاط والكآبة والميل للعزلة والانسحاب، ومع الكآبة يشعر الإنسان كأن السموم تتدفق في كل خلية من جسمه.

وأنا أعرف من الأطباء الذين بقوا تحت ضغط نفسي لفترة طويلة من أصيب بارتفاع في التوتر وانسداد شرايين القلب على عمر مبكر، والسبب تلك العلاقة الخفية التي لم نفهمها ولم يماط اللثام عنها حتى الآن كيف تؤثر الحالة النفسية على البيولوجيا، فوالد يوسف ﷺ ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، كما ارتد إليه بصره مع بشارة العثور على يوسف ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾.

الأمر الرابع: (التراكم الكمي يقود إلى التغير النوعي): هناك علاقة بين الكم والنوع انتبه لها العلامة ابن خلدون في المقدمة، وهو أمر ملاحظ في الطبيعة، فرفع درجة حرارة الماء إذا زادت بشكل تراكمي قادت في النهاية إلى تغير نوعي في طبيعة الماء، عندما تصل درجة الحرارة إلى

درجة الغليان، فهو يتبخر ويطير في الهواء، كما أن انخفاض درجة حرارته إلى الصفر تقود إلى تجمده وزيادة حجمه (خلافاً لكل العناصر التي ينكمش حجمها مع البرودة) وهذا يعني أن التراكمات (الممكنة) ستقود في النهاية إلى شق الطريق لكسر المُسَلَّمات والحتميات، فالكثير منها نحن الذين نصنعها ونمنحها الحتمية فتتحول هذه الأفكار مع الوقت إلى (أصنام)، ومشركو قريش رفضوا الإسلام تحت ضغط أمثال هذه الأفكار.

وهكذا تم كسر الكثير من المُسَلَّمات عبر التاريخ، في النظام الفلكي، وتحطيم الذرة، وقلب المعادن الخسيسة إلى ذهب (بواسطة إضافة البروتونات والنترونات، فالذهب يتحول إلى زئبق بإضافة بروتون واحد أو بالعكس فيتحول الزئبق ذهباً بسحب بروتون واحد منه، ذلك أن قلب نواة الذهب تحوي ٧٩ بروتون والزئبق ٨٠) وإيقاف القلب وإعادة تشغيله، وانتقال الصوت والصورة بسرعة الضوء.

الأمر الخامس: إن أخطر مرض عقلي يهدد التقدم الإنساني هو عقدة الآبائية ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ **أي التقليد**، فبقدر ما يجعلنا المجتمع بشراً (من خلال العادات واللغة وسواهما) بقدر ما يشكل الطوق الاجتماعي خطراً يغتال العقل الإنساني، وهذا هو السر في بطء نمو مجتمعات وتطور أخرى.

والمجتمع الياباني ما استطاع الطيران للعصر لو لم يتحرر من العادات العقلية المفرملة، وأول قفزة له كانت باتجاه الاستفادة من إضافات المعرفة الإنسانية الجديدة (ثورة الميجي ـ العهد الإمبراطوري لعام ١٨٦٨)[1]، وكان

---

(١) جاء في كتاب الشرق الأقصى، فوزي درويش، ص٦٠ النص الكامل للعهد الإمبراطوري الذي دُشّن عام ١٨٦٨م وهو مكون من خمس فقرات تقول الفقرة الخامسة (سوف يجري العمل على جمع المعارف من شتى أنحاء العالم، وعلى هذا النحو سوف تترسخ الإمبراطورية على أسس متينة).

إدراك اليابان حاداً في أهمية الخلاص من الحذاء الصيني الحديدي (العقلي) (في الصين جرت العادة آنذاك وضع قدم الطفلة الصغيرة في حذاء حديدي لا يغير حتى تكبر الفتاة وهي تحافظ على أقدام صغيرة؟!!).

تجربة نفسية محرجة:

من أجل تعرية هذه الآليات النفسية قمت بتجربة قاسية فسألت الموظف: لو أعطيت مسدساً، ووضع على صدغك مسدس، ثم طُلب منك قتل هذا الذي أنت في ضيافته، وهو من أعز أصدقاءك، ما كنت فاعلاً؟؟ فإذا لم تضغط الزنادُ قتِلت أنت!!..... فوجئ صاحبي بالسؤال فتردد بعض الشيء ثم اعترف بأنه سيقتل!!.... إلا أنه اكتشف نفسه ويداه ملوثتان بالدم، وقد تحول إلى (مجرم).... عندها تدفق من فمه سيل من المبررات ليس آخرها أن الله سيغفر له لأنه (مكره).

هنا تعرت الآليات النفسية تماماً وأدركنا في جو الحوار الذي لا يخلو من توتر أمام كشف (آركيولوجي) نفيس كهذا، في حفريات تضاعيف النفس، أن هذا الصنف من الناس ليس بالقليل ولا النادر، إن لم يكن هذا هو تصرف معظم الناس، في مثل هذه المواقف الصعبة، يشفع لها المناطق المظلمة من النفس الإنسانية التي لم تشكلها الثقافة الجديدة بعد.

إن هذا المثل فظيع ولا شك ولكن هل يدخل في إطار (الممكن) أو (المستحيل)؟؟؟!!

سيكولوجية النقد الذاتي

يعتبر الحبس الانفرادي للسجين عذاباً لا يطاق بسبب الوحدة، وألم الوحدة مصدره فقدان الاتصال بالعالم الخارجي ومواجهة الذات[1]؛ فمواجهة الذات إذاً هي ذلك الحقل المملوء بالصخور والعناء والمجهول، وهذا يعني بكلمة أخرى أن أعظم اكتشاف لم نمارسه بعد هو معرفة حقل النفس الداخلي، وأن القارة المجهولة التي لم نطأها بأقدامنا بعد ليست تلك المختفية وراء لجج المحيطات، بل هي دماغنا الذي نتعامل بواسطته مع العالم كل لحظة في اليوم[2].

وإذا كان وعي الذات هو أرفع أنواع الوعي؛ فإنه يمثل انقلاباً نوعياً في تصور المشاكل وهندسة معالجتها، فالبشر اعتادوا وما يزالون عند اندلاع المشاكل اتهام الآخر وتنزيه الذات، وهذا يحمل مجموعة من الأخطاء القاتلة.

وباعتماد آلية (لوم الآخر) نكون بشكل آخر قد أحيينا آلية (تنزيه الذات) وتقديسها بعصمتها من الخطأ، فالعلاقة ـ مرتبطة جوهرياً وبشكل غير

---

(١) جاء في كتاب (الخواطر) للفيلسوف الفرنسي (باسكال): «كلما حاولت البحث في أفعال الإنسان المختلفة وجدت أن شقاء الناس كله راجع إلى أمر واحد هو عجزهم عن الاعتكاف، ومن هنا جاء ولع الناس بالضوضاء والجلبة، ومن هنا كان السجن عذاباً مريعاً ولذة الوحدة أمراً يستعصي فهمه» نوابغ الفكر الغربي، نجيب بلدي، دار المعارف بمصر، ص١٩٠.

(٢) تمت دراسة الدماغ كهربياً وقت النوم فظهر أنه يستمر في العمل بدون توقف، وهذا يفسر انكشاف حلول بعض المعضلات بعد النوم لأن الدماغ اشتغل منفرداً على حلها بآلية مستقلة.

مباشر - بين (إدانة الآخر) و(تقديس الذات) وعبادتها، وكأن طرفي العلاقة طرفي رافعة، ومع إطفاء روح المراجعة الذاتية وتجميد آلية نقد الذات: يكون حقل حل المشكلة قد زحزح تماماً، ففي الوقت الذي نعترف بمشاركتنا ولو الجزئية في المشكلة نكون قد بدأنا بالحراثة في الحقل الخصب، أما اتهام الآخرين وتنزيه الذات فإنها تلحق الشلل الكامل بآلية تطهير الذات وإمكانية تصويبها.

لم يكن عبثاً أن تكررت قصة آدم والشيطان في كل الكتب المقدسة لأنها تحمل مجموعة ضخمة من الرموز لكل تجليات الوجود الإنساني، فالتناقض بين موقفي آدم والشيطان والتبعات الرهيبة التي بنيت عليهما؛ انبثقت من هذه الحركة في اتجاه النفس للداخل أو الخارج؟ في مراجعة الذات أو في اتهام الآخر؟ فالشيطان اختار الأسهل؛ فأخرج نفسه من المشكلة؛ فهو غير متهم ولا مُلام عن موقفه؛ حين أحال خطأه إلى مصدر خارجي فعزاه إلى ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]، فهو إذاً لم يخطئ.. هو إذاً كامل؟؟!! بكلمة أخرى رفع نفسه إلى درجة الكمال الإلهي الذي لا يعتريه النقص ولا يقاربه الخطأ!! في حين كان موقف آدم أنه قام بمراجعة قاسية للذات، وكانت المرأة (زوجته حواء) معه يداً بيد في هذا الاختبار القاسي، الذي لولاها ودعمها ودفئها الروحي ما نجح فيه، فأنشد كلاهما ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، فالمرأة هنا لعبت الدور المصيري في إنقاذ الجنس البشري؛ كونها خزان الرحمة الذي لا ينضب، خلافاً للأسطورة الشائعة أن حواء هي التي أغوت آدم بالخطيئة، فأكل التفاحة من الشجرة المحرمة، ومع هذه المراجعة النفسية ومواجهة الذات والاعتراف بالخطأ، أمكن لنا نحن البشر أن نُدشّن إمكانية الارتفاع بدون توقف في رحلة العروج الروحية إلى الله، في الوقت الذي فشل الشيطان في الرهان.

هناك مجموعة من الأفكار (التأسيسية) يجب أن نتعلمها ونعيدها

ونحييها في الثقافة من جديد، ولا مانع من صياغتها على شكل قواعد، وفكرة النقد الذاتي من جملة هذه الأفكار (الحيوية) فهي تؤسس عندنا أن لا نلوم أحداً عند وقوعنا في الخطأ، مع كل إدراكنا الكامل أن الآخر مشترك في توليد الحدث، حرصاً على مبدأين:

الأول: (توفير الطاقة) فاللوم يشل طاقة الاستنفار للعمل والإصلاح؛ كونه يحذف الذات من الحدث طالما كان كبش الفداء الممثل في الآخر موجوداً.

والثاني: (توجيه الطاقة) للعمل في الحقل المفيد. فطريقة (الشيطان) حينما قام بتبرير خطئه بأنه غير متسبب فيه وأن الله هو الذي دفعه إليه ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ ترتب عليها أنه دخل في طريق اللاعودة بالنسبة للتوبة والرحمة، أي قطع الطريق لأي إمكانية في الإصلاح المستقبلي، ومن الغريب أن الشيطان ينتبه إلى هذه الحقيقة ولكن بشكل متأخر حيث لا فائدة، فالقرآن يذكر عنه أنه يقوم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيعترف أنه لم يكن له سلطان على الناس ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وهذه الحكمة التي نطقها الشيطان تمثل قانوناً صارماً في التعاملات اليومية، **وهي أن لا نسلط اللوم على أحد حتى ولو كان الشيطان!!**

في هذا الضوء الجديد ـ عندما يسلط عل العامل الداخلي ـ يمكن فهم الأمور قد اختلفت أولياتها، فالحقوق تأتي ليس بالمطالبة بل بالقيام بالواجب، والاستعمار ظاهرة امتصاصية لوجود القابلية لها، والحضارات تنتحر داخلياً، والدول تنهزم بالتفكك الداخلي، والعضوية تمرض بضعف المقاومة أكثر من سطو الجرثوم، وسقوط الغصن بالنخر الداخلي أكثر من زوبعة الريح، ووجود إسرائيل بتناقضات الوسط العربي أكثر من جبروتها الذاتي وأسلحتها النووية الضاربة!!!. وهكذا فآلية النقد الذاتي تتجه إلى

الداخل، إلى العمق كي تكتشف الآليات النفسية الدفينة، فهي تقوم بإماطة اللثام عن نظام العوامل الداخلية التي يمكن السيطرة عليها، وبالتالي التدخل لاحقاً في توجيه الأحداث وهندسة مصيرها.

آلية النقد الذاتي ترى أن هناك حقلين متشابكين للأحداث (داخلي وخارجي) ولا يوجد حدث بدون تشابك مجموعة العناصر هذه، ولكن هذين الحقلين مختلفان للغاية من ناحية الاتصال والتأثير، ولذا فهي تتوجه إلى الحقل المفيد، حيث يمكن التأثير في مجموع الأحداث، من خلال تبديل الحقل الداخلي الذي نستطيع أن نتدخل فيه بجراحات خاصة هي ضمن إمكانياتنا، ونصل بالتالي إلى تغيير شكل الحدث بالكامل، ويتولد من هذا المعنى نتيجة عملاقة عن دور الإنسان في هندسة الأحداث والتخلص من الآثار النفسية الضارة للاستلاب تجاهها. فالنقد الذاتي كما نرى أداة رائعة لنمو الذات ونضجها وليس كما يخيل للبعض أنها أداة نهش وتجريح. وكان علماؤنا سابقاً محقين حينما عكفوا على إنتاج علم رائع لتمحيص الحديث الذي جند كأداة في حرب الفِرَق المتصارعة، فأسسوا علماً في إطار (النقد الذاتي) أعطوه لقب علم الجرح والتعديل.

لعل القرآن انفرد بمصطلح غفل عنه العالم الإسلامي حتى اليوم وهو «ظلم النفس» فعشرات الآيات المتناثرة تؤسس معنى يمشي في اتجاه واحد وهو أن الظلم في تجلياته العظمى هي «ظلم الإنسان لنفسه» أكثر من ظلم الآخرين أو أي جهة خارجية ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩] وهذا يكشف الغطاء عن أعظم آلية خلف العطب النفسي ـ الاجتماعي بأن العجز والخطأ هو داخلي بالدرجة الأولى، وبذلك نفهم أيضاً طرفاً من (ميكانيكية الدعاء) فهي توجه داخلي.. وتذكير للنفس.. تأمل وجداني.. وشغف وتعلق وتمني للوصول إلى حالة نفسية، وهو ما يسمى في علم النفس بـ(قانون التوقع ـ EXPECTANCE LAW) فعندما ترغب

النفس في شيء وتحرص عليه وتتوجه إليه يتحقق في العادة. وعندما شعر نبي الله يونس ﷺ أنه غرق فجأة في بطن الحوت لم يلعن الظروف التي قادته إلى هذا المصير الفظيع والظلمات تُطوِّقه من كل جانب بل توجَّه باللوم إلى نفسه ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

إن العالم الإسلامي اليوم عنده استعداد أن يبحث بدون ملل في توجيه اللوم وتوزيع اللعنات في كل اتجاه، واكتشاف الأعداء الذين يقفون خلف عجزه!! وليس عنده استعداد للوقوف لحظة واحدة لاكتشاف هذا السرطان المرعب (مرض ظلم الإنسان نفسه)، وهذا التوجه يخترق كل طبقات التفكير والشرائح الاجتماعية والمجموعات الفاعلة في الساحة الاجتماعية، فالفرد يلعن الأفراد الآخرين المتسببين في وضعه الذي لا يعجبه، فإذا رسب الطالب في الامتحان لعن الأستاذ أو الأسئلة الصعبة أو الحظ السيء أو الشيطان الرجيم، وعندما تفرغ الجعبة من كل تلك الأسحلة التبريرية يبقى في اليد السلاح الأعظم الذي لا يرد، وهو نفس السلاح الذي عمد إليه الشيطان في تبرير خطئه واستعمله فيما سبق ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ فيتم التوجه إلى الإرادة الإلهية التي هي خلف هذا الفشل، وهو سلاح يخدع الكثيرين أشار إليه القرآن على لسان المشركين الذين أرجعوا شركهم إلى الإرادة الإلهية ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

لنتأمل جدلية النقد الذاتي والدينامية النفسية في العلاقات الإنسانية: عند تورط الإنسان في مشكلة ما (مثلاً تسريح موظف من عمله) فإن موقف الإنسان يأخذ أحد اتجاهين؛ إما مراجعة الذات ونقدها الصارم، وإما لعن الطرف الآخر المُتسبب في المشكلة، بل وحتى تكريس الدعاء في الصلاة في استمطار اللعنات عليه (الدعاء الذي شُرع بالأصل لتوليد معنى الاستعلاء والمقدس والرحمة) فتمرض النفس بالكراهية؛ لتتكثّف مع الوقت إلى حقد

مُدمّر أعمى، كما في تحول مرض النزلة البردية البسيطة الذي يزول في بضع أيام إلى التهاب جيوب مزمن معند، ومع الحقد تتوقف أية إمكانية للرؤية الواضحة ومحاولة الإصلاح، وهذا الوضع النفسي هو في الواقع الأرضية المهيأة للحرب، فمع الحقد الأعمى المدمر وروح الانتقام الضارية تكون الحرب الأهلية الخفية قد بدأت، كل ما تنتظره هو مواتاة الفرص لاندلاع الحرب الأهلية بالأسلحة المعروفة، ونلاحظ هنا أن المضي في هذا الاتجاه مع الوقت يعطي صلابة للموقف وصعوبة بالغة في التراجع عنه، فهناك بعض العائلات التي اختلف فيها الأخ مع أخته فقاطعها فاشتد في الكراهية فازدادت الجرعة فتكثف الحقد فتصلب الموقف فأصبح التراجع أقرب إلى الاستحالة، وفي الصورة المقابلة ومنذ البدايات يعتبر التوجه المقابل ذو ثمرات مختلفة تماماً، فعندما يراجع هذا الموظف موقفه (الذي يشعر أنه مظلوم من الآخرين وليس ظالماً لنفسه) ووضع ولو (مجرد احتمال) كونه مشاركاً في المصير الذي وصل إليه!!.

إن إمكانية مراجعة الموقف أصعب من قطع الأنف بالمنشار وبدون تخدير؟!! إن إدخال فكرة (الاحتمالية فقط) تنبع في الواقع من أرضية عقلية وتربة نفسية، فالأرضية العقلية التي ترى كما رأى آدم أنه (قد يكون) قد (ظلم نفسه) في موقف ما، والتربة النفسية هي في القدرة على الاعتراف بالخطأ، فمع القدرة على فتح ملف مراجعة النفس يمكن اكتشاف الخطأ، فإمكانية الاعتذار، أو الحذف والإضافة وإصلاح الموقف، أي (التوبة) حسب مصطلح القرآن، فالمسار الأول شيطاني لأنه يحذف إمكانية التوبة، والمسار الثاني رحماني لأنه يفتح الطريق على التوبة وإمكانية إصلاح الأخطاء وترميم الثغرات، فمع تنشيط أداة النقد الذاتي نكون قد فتحنا الطريق إلى الحوار وفرملة الصدام ونزع فتيل العنف وتوليد الديموقراطية، فالديموقراطية ليست حلويات توزع وهدايا تمنح، بل هي عملية عضوية بطيئة

تزرع في النفوس فلا يمكن اقتلاعها. فالنقد الذاتي كما نرى هي آلية مفاتيح التحكم بالنفس الإنسانية، وإيجاد جو التوازن العقلي والأخلاقي في مستوى الفرد ليشمل في النهاية الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والحضاري.

النقد الذاتي بهذه الطريقة هو استبدال الآليات العقلية القديمة بجديدة، فيتحول الفرد إلى كائن يميل إلى المغفرة والتسامح مع الآخرين وإيجاد العذر لهم وتبرير تصرفاتهم وقبولهم كما هم وحبهم مع كل الاختلاف معهم، وبتوليد هذه المعاني الراقية يكتشف الإنسان جوهره باكتشاف هذه القيم المخبأة داخل كل واحد منا، فيتخلص من مشاعر الرثاء والشفقة الذاتية واحتقارها، ويصبح الإنسان بالتالي عظيماً، والآثار المباشرة لعقلية من هذا النوع هو الإيمان بالاختلاف والتعددية، فيرى الآخر في صورة جديدة، فهو شديد الحذر في كشف عورات الآخرين لأن أسلوب الإدانة يحمل السلاح المضاد معه، والعكس بالعكس فإن احترام الآخر سيحمل احترام الذات، والمحافظة على الآخر سيحمل المحافظة على الذات، أما عقلية التآمر والاغتيال وقتل الآخرين فإنه يحمل معه تدمير الذات بنفس الوسائل.

إن إمكانية ولو مجرد التفكير بالدخول إلى هذا الحقل (اللامفكر فيه) واستخدام هذه الأداة مؤشر (نضج) فآدم عليه السلام دخل مرحلة جديدة بعد تجربة السقوط المريرة، وكانت مرحلة النضج هذه هي ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ التي توجت رأسه بإكليل خلافة الله في الأرض.

جاء في الحكاية أن أهل قرية ذهبوا إلى صلاة الصبح، ولكن لم يعثروا على المؤذن فأذن أحدهم ثم قاموا فصلوا، وفي طريق العودة وكانت الشمس قد بدأت في البزوغ رأوا المؤذن وهو يهرع مهرولاً في اتجاه المسجد، وعندما سألوه عن سبب التأخر كان جوابه: «إنني جئت كالعادة ولكن يبدو أن الشمس قد أشرقت أبكر من عادتها؟!!».

هذه القصة تحمل في طياتها آلية نفسية فاضحة، فنحن نضحك لانكشاف النكتة، فلا يعقل أن يضطرب النظام الكوني لنزوة رجل، ولكن المعنى الدفين في هذه القصة المسلية، هو استعدادنا أن ندخل الكون في تناقض، فهذا أسهل لعقولنا وأريح من مراجعة أنفسنا لاكتشاف التناقضات العقلية الكبرى، وإذا كانت هذه القصة مكشوفة، إلا أنها تفتح البوابة عريضة لكثير من أوهامنا التي نحياها وليس عندنا القدرة على لمسها.

الكون.. هذا السر العظيم

لتصور الكون وسعته التي تأخذ بالألباب، ليس أفضل من المثل الذي أورده (كارل ساغان) عن عدد النجوم التي ترصع قبة السماء: «تحتوي حفنة من الرمل على نحو عشرة آلاف حبة أي أكثر من عدد النجوم التي نستطيع رؤيتها بالعين المجردة في ليل صافي الأديم، ولكن عدد النجوم التي يمكننا رؤيتها ليست سوى أصغر جزء من عدد النجوم الموجودة فعلاً. وما نراه ليلاً هو مجرد عدد قليل متناثر من أقرب النجوم إلينا، في حين أن الكون غني دون حدود. فالعدد الإجمالي للنجوم فيه هو أكبر من كل حبات الرمل في شواطئ كوكب الأرض كلها» وحتى نحيل كلام ساغان إلى أرقام فنقول يوجد مائة مليار مجرة، وفي كل منها مائة مليار نجم في المعدل، وهكذا يوجد في كل المجرات عدد من النجوم يبلغ تقريباً عشرة مليارات تريليون، أي رقم عشرة مرفوع إلى القوة ٢٢، أي واحد وأمامه ٢٢ صفراً. ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

لا غرابة إذاً أن يقول عالم الفلك الذي يزن كلماته بهذه الرنة الخاشعة: «الكون هو كل موجود وما وُجد وما سيوجد، وإن أبسط تأمل لنا في الكون يحرك مشاعرنا فتمر قشعريرة في العمود الفقري، ويخفت الصوت، ويسيطر إحساس بالدوار كما في تذكر الأشياء البعيدة، أو السقوط من شاهق فنحن نعلم أننا نقترب من أعظم الأسرار»[1].

(١) كتاب الكون، (كارل ساغان)، ترجمة نافع أيوب لبس، عالم المعرفة الكويتية، رقم ١٧.

والسؤال: هذه النجوم التي هي شموس متقدة منيرة من أين يأتيها هذا التوقد الذي لا يقف؟ وكم عمر هذا الاشتعال الرهيب الذي تمثل شمسنا نجماً متواضعاً فيه؟ إذا علمنا أن إحدى الشواظات الرهيبة المنطلقة من الشمس وصلت مئات الآلاف من الكيلو مترات؟ ما هو نوع الوقود المستعمل؟ وكم ستعمر شمسنا؟ بل وكم عمرت حتى الآن؟ وهل للنجوم أعمار؟ بل وهل للكون عمر مطلقاً؟ وهل شاخت شمسنا وبلغت أجلها؟ وهل الكون يمشي نحو الانهيار والانحدار؟ كلها أسئلة تأخذ بعضها برقاب بعض إلا أن الكوسمولوجيا الحديثة ومن خلال الوصول إلى الانفجار العظيم حلت بعض أعظم الأسئلة الكبرى في تاريخ مقامرة العقل الكبرى.

إن معلومات علماء الفلك في الوقت الراهن عن بداية الكون تشبه أفلام الخيال العلمي فالكون حسب وجهة نظرهم بدأ حيث لم يكن زمان ولا مكان ولا مادة، وحيث تتعطل قوانين الوجود الرئيسية ليبدأ في التشكل بعدها الزمان والمكان والمادة والطاقة المعروفة ولتبدأ قوانين الوجود بالعمل بل بالوجود، وحدث كل هذا في جزء من مليار مليار مليار من الثانية، لتندفع كتلة نارية مروعة في كل الاتجاهات، حيث بدأت الاتجاهات في التشكل!! لتتشكل بعدها المجرات ومنها مجرتنا درب التبانة، وكان هذا قبل خمس عشرة ألف مليون سنة، حسب آخر المعلومات. أما مجرتنا فبدأت في التشكل قبل حوالي ثماني مليارات عام، وتشكلت الأرض قبل حوالي ٤,٦ مليار سنة، وبدأت الحياة على الأرض قبل ٣,٨ مليار سنة، أما عديدات الخلايا فبدأت تدب على الأرض قبل ٥٣٠مليون سنة، في حين أن الحياة الإنسانية بدأت قبل سبعة ملايين سنة حسب أحدث الكشوفات. وبدأت الثورة الزراعية قبل عشرة آلاف سنة، أما الحضارة فبدأت في الانطلاق قبل ستة آلاف سنة، في حين أن الكتابة اخترعت قبل خمسة آلاف سنة، وركبت المطبعة قبل ٥٠٠ عام، واكتشفت الطاقة البخارية قبل ٢٠٠ عام،

واستخدمت الكهرباء قبل ١٢٠ سنة، أما الطاقة الذرية فاستخدمت في المجال السلمي قبل ثلاثين سنة فقط، والفيديو والكمبيوتر قبل عقود بسيطة.

إذا كانت هذه هي البانوراما العامة للتطور الكوني فإلى أين يمشي الكون؟

إن استعار النجوم وتوقدها لا يقوم على وقود تقليدي حيث أدت الأبحاث التي قام بها العالمان (هانس بيته) و(كارل فون فايتسكر)، وقد استطاع هذان العالمان أن يثبتا أن الوقود الذي تستهلكه الشمس هو وقود غير تقليدي، إذ لو استهلكت الشمس ما يعادل كتلتها من الوقود التقليدي لنفد خلال ٣٠٠ سنة. وهكذا فإن الاحتراق الذي يتم في باطن الشمس هو انفجارات ذرية رهيبة ليست من النوع الانشطاري بل من النوع الالتحامي أي التحام ذرات الهيدروجين لإنتاج ذرات هليوم. وهكذا فليس عنصر الهليوم الوحيد الذي نتج من طبخ النجوم عبر الأحقاب، بل تشكلت بقية العناصر مثل الفحم والحديد والسيليكون والأوكسجين.. إلخ.

ويرى (الكوسمولوجيون) بأن هذا الطبخ الرهيب في باطن النجوم كان يولد في كل مرة طاقة تقود إلى اندماج جديد، واستمر هذا حتى رحلة تشكيل الحديد. وأما ما بعد ولادة عنصر الحديد فحدث العكس، أي أن العناصر تشكلت بطاقة خارجية. وهكذا تشكلت عناصر الأرض بدءاً من أبسط العناصر وهو الهيدروجين ووزنه الذري واحد، وانتهاء بأثقلها وهو عنصر اليورانيوم ووزنه الذري ٢٣٨. والعنصر الأخير غير مستقر ومنه صنعت القنابل الذرية، ومن أشكاله غير المستقرة أي اليورانيوم ٢٣٥ والآخر الذي تم صناعته أي البلوتونيوم ٢٣٩. ومن الأول ٢٣٥ تم ضرب مدينة هيروشيما القنبلة التي أعطوها اسم (الولد الصغير) في ٦ آب ـ أغسطس عام ١٩٤٥. ومن الثاني أي مادة البلوتونيوم صنعت القنبلة التي أخذت اسم (الرجل السمين) تم ضرب مدينة ناغازاكي في ٩ آب ـ أغسطس من نفس العام. فإذا

كان الكون كله قد تركب من العنصر الأولي أي الهيدروجين ذو الوزن الذري واحد ومنه وعلى شكل سلم موسيقي تتابع تشكل بقية العناصر في رحلة زمنية فهذا ينبئ بأن الكون له بداية أي أن المادة ليست أزلية. فهذه واحدة.

كذلك فإن العالِم الروسي الفلكي الفيزيائي (جورج غاموف) جمع الأدلة عن ظاهرة عجيبة تقول بتمدد الكون. وكان ذلك من دورة حياة النجوم، حيث تم كشف النقاب أن النجوم لها حياة تماماً كما هو الحال في حياتنا الإنسانية، فهي تولد وتكبر ثم تشيخ وتموت ثم تتفسخ.

وظاهرة (الثقب الأسود) وهي ظاهرة أشد عجباً قال بها للمرة الأولى (سيمون بلاس) العالم الفلكي الفرنسي الذي عاصر نابليون، ما هو إلا نجم بالغ الكبر شاخ واستهلك وقوده النووي ثم راح في التقلص تحت قوة جاذبيته الكبيرة في الانكماش إلى حد يفوق كل تصور، ويمتص تحت جاذبيته كل شيء بما فيها فوتونات الضوء، ويتحول في النهاية إلى كتلة بالغة الصغر بالغة الانجذاب يشفط إلى داخله تحت تأثير الجاذبية كل ما يحوم حوله، فلا يفلت منه شيء جاوره إلا ابتلعه؛ وبذا ينقلب الثقب الأسود إلى شفاط كوني مخيف، لا يهرب منه شيء حتى النور، ولا يعرف الثقب الأسود إلا بهذه الخاصية أي امتصاصه المرعب المتربص في مكان ما من الكون. إن الثقب الأسود يشبه القط الأسود المتربص للافتراس في ليلة حالكة السواد ليس فيها نور.

لقد توصل (جورج غاموف) إلى أن الكون بدأ بانفجار مخيف تشكلت فيه بالدرجة الأولى الجزئيات دون الذرية، ثم وتحت تأثير الضغط والحرارة تشكلت الذرات ليتشكل الكون الفسيح الذي نعيش على ظهر ذرة منه. كما أن قوى الكون الأربع الرئيسية وهي الجاذبية والكهرطيسية وقوى النواة القوية والضعيفة، يبدو أنها كانت في بداية هذا الإعصار الكوني مندمجة في قوة

واحدة موحدة وتحت قانون (توحيدي) وهو ما أشار إليه الفيزيائي الكوسمولوجي (ستيفن هوكنج) صاحب كتاب (قصة قصيرة للزمان)[(١)]، وإذا كان الكون في قبضة قانون واحد فهل يمكن تفسير كل الظواهر الكونية بقانون واحد توحيدي؟ إن هذه الفكرة هي بمكان عظيم، ولقد قضى آينشتاين بقية عمره بعد إنجازاته في النسبية في محاولة ضم الكون وضغطه تحت قانون واحد عبثاً، مستخدماً كل براعته في دخول أدغال المعادلات الرياضية.

إن نجاح ماكسويل كان مغرياً في القرن السابق حينما ضغط قوانين الكون الخمسة في أربعة، فبعد أن كانت ظاهرة الكهرباء والمغناطيس منفصلتين استطاع ماكسويل أن يدمج القوتين في قوة واحدة، وكانت النتائج العملية رائعة لهذا الدمج، والذي تتمتع بآثاره في عالم الإلكترونيات في الوقت الراهن.

كذلك فكرة دمج (الطاقة بالمادة) حيث أصبحت الحقيقتان وجهين لعملة واحدة. ثم فهم الضوء على أنه يتظاهر بشكل فوتونات أي أجسام مادية كما يتظاهر بالشكل الموجي، كله شق الطريق لفهم الكون بشكل أبسط. وما يحلم به الفيزيائيون اليوم هو دمج (النسبية) بـ(مكيانيكا الكم). وما زال الصدع بين المجالين كبيراً.

لقد دخل آينشتاين في محاورات ساخنة مع مدرسة ميكانيكا الكم[(٢)] التي تتناول العالم دون الذري. أي عالم (الميكرو Micro) الدقيق الصغير.

---

(١) كتاب قصة قصيرة للزمان، ستيفن هوكنج، ترجمة عبد الله حيدر، الناشر أكاديميا.

(٢) في عام ١٩٠٠م كان العالم الألماني (ماكس بلانك) أول من أشار إلى فكرة (ميكانيكا الكم) من خلال تفسير ظاهرة الجسم الأسود، وخلاصة الفكرة تقوم على تفسير لماذا يتحول لون السلك المحمي من أحمر إلى الأبيض مع ارتفاع درجة حرارته، وتبين أن اللون يعتمد على (كم) الطاقة المنبعث من الوهج، وهكذا فالطاقة يتم إرسالها بشكل كميات منفصلة وليس بشكل مستمر.

في حين تنطلق (النسبية) إلى تفسير (العالم الأكبر Macro). واليوم تنطلق نظرية جديدة هي (نظرية الأوتار الفائقة)[1] في محاولة لدمج هذين العالمين، قوانين العالم الأكبر مع الأصغر كي يتم فهم الكون بشكل موحد.

هذا اللغز العجيب الذي يرويه علماء الفيزياء تحت ظاهرة الحقبة (المتفردة) في قضية الانفجار العظيم هي حديث الكوسمولوجيين.

ولكن ألا يمكن اختصارها بكلمة واحدة: (الخلق الإلهي)؟!!.

لنستمع إلى شهادة رجل كوسمولوجي وهو يحاول تطويق مفاهيم الفكر القديم عالم (نيوتن وداروين وهكسلي) وهو الفلكي الفرنسي (سيمون لا بلاس) صاب المؤلف الفلكي الضخم (ميكانيكا الأجرام السماوية)، الذي كان برفقة نابليون في حملته على مصر، وحاول رؤية الكون من فوق الهرم. ذكر الرجل في حوار دار بينه وبين نابليون أنه كان يحاول فهم الكون أنه قائم بنفسه ولا يحتاج لفهم وجوده إلى أي علة خارجية. وعندما توجه نابليون إليه بالسؤال: وأين مكان الله في نظامك السماوي؟ قال: لا حاجة لنا به.

الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر والتاسع عشر بدأ يتصور العالم على شكل ساعة كبيرة، تسير وفق قوانين حتمية، إلى درجة أنه يمكن أن نعرف ماذا سيحصل لنا حتى الممات، وبالطبع فهي تمثل نصف الحقيقة،

---

(١) نظرية (الأوتار الفائقة) جديدة في ميدان الفيزياء النووية، وهي ترى بنيان الكون يقوم على أوتار بلغت دقة متناهية، وهي التي تشكل البناء الذري، فهي عالم آخر أدق من البروتونات، وترى أن بداية الكون تشكلت ليس من أربعة أبعاد فقط كما تراه النسبة بل عالم ذو عشرة أبعاد، انفك عن بعضه في عوالم متنوعة تمشي بشكل متواز، منها عالمنا ذو الأبعاد الأربعة!! وهذه الفكرة أشارت إليها أيضاً مجلة صورة العلم الألمانية حيث يذهب التفكير العلمي اليوم أن كوننا لو تم تصوره كالبالونة تنتفخ وتتمدد، فإن هناك بالونات، أو غير بالونات لا ندري تماماً طالما ليس عندنا قدرة الوصول إليها، أخرى في كون لا نحيط ببدايته ولا نهايته! راجع كتاب (ما بعد آينشتاين) تأليف ميشيو كاكو، ترجمة فايز فوق العادة، إصدار دار (أكاديميا).

لأن الكون يقوم على القانون، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولكن السؤال الكبير هو: ما هو نوع القانون الذي يُسَيِّر دورة الكون.

إن ميكانيكا الكم مثلاً أدخلت ثغرة لم تُسَد حتى الآن في فهم العالم، على الأقل في مستوى العالم الذري، أي العالم الأصغر، في أن لا مكان لـ(الحتمية) و(الموضوعية). وهذا الانهيار المريع لقوانين الفيزياء التقليدية جاء من الذيول الفلسفية لمبدأ (الارتياب) الذي وضعه الفيزيائي والفيلسوف الألماني (فيرنر هايزنبرغ) كما توصل إليه البريطاني (بول ديراك) وكان ذلك عام ١٩٢٨م والاثنان شباب صغار. ومبدأ الارتياب ولد بدوره من نتائج ميكانيكا الكم التي كانت موضع النزاع مع آينشتاين حتى اللحظة الأخيرة من حياته. إن مبدأ (الارتياب) خلخل عالم نيوتن القديم في مستوى الذرة، كما أن (النسبية) طوحت بمفهوم الزمان والمكان المطلقين، وجاءت فكرة الانفجار العظيم لتكمل عملية الهدم، وبذلك انهار العالم المادي القديم بالكلية، وبدأ العالم في التشكل من جديد.

لننقل شهادة عالم فلكي في محاولة تصور الانفجار العظيم، هو (جايانت نارليكار) في مقالته التي نشرت في مجلة اليونسكو عدد سبتمبر ١٩٨٢م. يقول الرجل: (هل نشأ الكون حقاً من انفجار عظيم؟ وبالنظر إلى أن الكون يتمدد في الوقت، فإننا في حاجة إلى نظرية دينامية تروي لنا ما فعله الكون في الماضي وما سوف يفعله في المستقبل، ولعل نظرية النسبية العامة لآينشتاين هي أبسط النظريات المتاحة لدينا اليوم وأكثرها ملاءمة لهذا الغرض، ذلك أن نماذج الكون المبنية على أساس هذه النظرية تقودنا إلى مفهوم أصل الكون القائم على الانفجار العظيم، وطبقاً لهذه النماذج نجد أن كثافة الكون و«ثابت هابل» يزيدان كلما غصنا في أغوار تاريخ الكون وعدنا في الزمان إلى الوراء لدرجة أن كلتا هاتين الكميتين تصل إلى ما لا نهاية عند حقبة محددة من الزمن السحيق هي حقبة الانفجار العظيم. وينزع

الفيزيائيون عادة إلى الارتياب في صحة إطارهم النظري إن هو أدى بهم إلى نتائج لا نهائية كهذه النتائج، بل إن نظرية آينشتاين تزيد الطين بلة لأنها تربط كثافة المادة وحركتها بالخواص الهندسية للمكان والزمان ومن ثم يستحيل تحديد هذه الخواص في حقبة الانفجار العظيم ونتيجة لهذا الانهيار الكامل للتعبيرات الفيزيائية والرياضية يشار إلى حقبة الانفجار العظيم بـ«(الحقبة المنفردة)... وظهور هذا (التفرد) إنما يعكس نقص فهمنا للأمور أكثر مما يشكل وصفاً للواقع الفيزيائي، وتقرن الحقبة المتفردة بأصل الكون، ويتعطل قانون بقاء المادة والطاقة أثناءها لأن المادة كلها الموجودة في الكون **كان يتعين خلقها** آنذاك»[1].

لاحظ معي التعبير الأخير للكاتب «لأن المادة الموجودة في الكون كان يتعين خلقها آنذاك؛ فلا يمكن تفسير الأمور إلا بفكرة الخلق، أي إنشاء الأشياء من العدم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

بالطبع فإن هذه النظرية صدرت في وجهها مجموعة من الاعتراضات وما تزال، إلا أنها في مجموعها ما زالت متماسكة بشكل عام، وهذه هي طبيعة العلم أي الحذف والإضافة، وأبرز الاعتراضات التي صدرت لإنقاذ أزلية المادة هي التي قام بها (السير فريد هويل وبوندي وجولد) من جامعة كمبريدج وهي (فرضية استقرار الكون) وبموجبها تم افتراض تولد الهيدروجين التلقائي في جميع أرجاء الكون، إلا أن الكشوفات التي قام بها كل من (أرنو بترياس وروبرت ويلسون) عالمي اللاسلكي بمختبرات شركة بل في الولايات المتحدة والتي نالا بموجبها جائزة نوبل للسلام عام ١٩٨٧ دعمت بشكل جوهري نظرية الانفجار العظيم، حيث عثر العالمان على موجات ضعيفة منبعثة من أرجاء الكون، وعند قياس درجة هذا الإشعاع

(١) رسالة اليونسكو، عدد ٢٨٠.

وجد أنه اثنان ونصف (٢,٥) فوق درجة الصفر المطلق[١]، ولقد اعتبر هذا الإشعاع الكوني هو من بقايا الانفجار العظيم.

كذلك جاء اعتراض آخر على نظرية الانفجار العظيم بفكر (الكون النوساني) أي أن الكون يشبه «الأكورديون» فهو قد مر بعدد لا نهائي من الانفجارات والانكماشات، وكان ذلك من أجل استنقاد أزلية المادة مرة أخرى، وهذا يعني أن الكون هو في حالة مخاض دائم، وانهيارات متتابعة، بين التمدد والانكماش، أي بين انفجارات عظيمة لا نهاية لها، ولقد نفيت هذه بدورها بموجب القانون الثاني للديناميكا الحرارية، ويعلق (ستيفن فاينبرج) مؤلف كتاب (الدقائق الثلاث الأولى) على ذلك بما يلي «بعض التخصصات في علم الكونيات تشدهم نظرية نوسان الكون فلسفياً خصوصاً وأنها تتجنب ببراعة شأن نظرية استقرار حال الكون مشكلة النشأة الأولى، غير أنها تواجه صعوبة نظرية شديدة واحدة، ففي كل دورة من تمدد الكون وانكماشه تطرأ على نسبة الفوتانات إلى الجسيمات النووية، أو على الأصح درجة التعادل الحراري لكل جسيم نووي، زيادة طفيفة بفعل نوع من الاحتكاك يعرف بلزوجة الحجم، وفي هذه الحالة في حدود ما نعلم سيبدأ الكون كل دورة جديدة بنسبة جديدة للفوتونات إلى الجسيمات النووية تكون أكبر من سابقتها بقليل، وهذه النسبة ضخمة في الوقت الحاضر ولكنها متناهية، بحيث يصعب أن نتصور كيف يمكن أن يكون العالم قد مر في السابق بعدد من الدورات غير متناه.

ويعلق صاحبا كتاب (العلم في منظوره الجديد)[٢] على ذلك بما يلي:

---

(١) الصفر المطلق هو ٣٧٢ تحت الصفر، وهي الدرجة التي لا تنزل دونها الحرارة، وهي من ثوابت الكون كما هو الحال في سرعة الضوء التي تبلغ ٣٠٠٠٠٠كم/ ثانية.

(٢) عن كتاب (العلم في منظوره الجديد) تأليف روبرت آوغروس وجورج ستانسيو، ص٦٢.

«وتستند حجة فاينبرغ في هذه المسألة إلى نتيجة محتومة مترتبة على إحدى الخواص الجوهرية للمادة وهي القانون الثاني للديناميكا الحرارية، ويقول هذا القانون: إن المادة إذا ضغطت سخنت وارتفعت درجة تعادلها الحراري الانتروبيا، وهكذا كلما زادت عدد (الانكماشات العظيمة) للكون ازدادت حرارته ودرجة تعادله الحراري، وحيث أن درجة حرارة الكون ودرجة تعادله الحراري محدودتان في الوقت الراهن فلا بد من أنه كانت له بداية، ومن المفترض أن يبدأ كل انفجار عظيم في إطار نوسان الكون، بدرجة حرارة أعلى من درجة حرارة الانفجار الذي سبقه، من هنا لزم أن تكون درجة حرارة الكون في ختام سلسلة طويلة من الانفجارات العظيمة والانكماشات العظيمة أعلى كثيراً من درجة حرارة اثنان ونصف (٢,٥) فوق الصفر المطلق[١].

لذلك فإن النظرة العلمية الجديدة ترى الموجود بمنظار جديد فلم يعد الكون مادة أنتجت بفعل المصادفة والضرورة، أو أنه أزلي أبدي ولا يحتاج لتفسير من خارجه، بل هو خلق الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾.

النظرة العلمية الجديدة ترى أن الكون بمجموعه بما في ذلك المادة والطاقة والزمان والمكان والقوانين وجد في وقت واحد. وهكذا يقول مؤلفا كتاب العلم في منظوره الجديد: «ولكن لا بد من أن شيئاً ما كان موجوداً على الدوام، لأنه إذا لم يوجد أي شيء من قبل على الإطلاق فلا شيء يمكن أن يوجد الآن، فالعدم لا ينتج عنه إلا العدم والكون المادي لا يمكن أن يكون ذلك الشيء الذي كان موجوداً على الدوام لأنه كان للمادة بداية، وتاريخ هذه البداية يرجع إلى ما قبل ١٢ إلى ٢٠ مليار سنة، ومعنى ذلك أن

(١) نفس المصدر السابق ص٦٣.

أي شيء وجد دائماً هو شيء غير مادي، ويبدو أن الحقيقة غير المادية الوحيدة هي العقل، فإذا كان العقل هو الشيء الذي وجد دائماً فلا بد من أن تكون المادة من خلق عقل أزلي الوجود، وهذا يشير إلى وجود كائن عاقل وأزلي خلق كل الأشياء، وهذا الكائن هو الذي نعنيه بعبارة الله»[1].

إنني لا أريد استعجال الأمور واستباق الأحداث، وإن كانت الدلائل كلها تمشي كل يوم نحو تأكيد هذه القضية، ولكن المفاجآت الجديدة، والاعتراضات الكثيرة، والحذف والإضافة، التي تتدفق كل يوم مع سيل المعلومات الذي يشكل نهراً يزداد عرضه كل يوم، وكل نظرية أو فكرة يجب أن تهيئ نفسها لكل الاحتمالات حتى تستوي على سوقها، إنما نسوق وصف العتبة التي يقف عندها العلم اليوم ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾.

(١) نفس المصدر السابق ص٦٥.

لماذا نشيخ؟ لماذا نموت؟
نظريتا الموت (بين الاهتراء والبرمجة)

مجموعة من الباحثين الأمريكيين يشقون الطريق إلى استمرار الحياة في الخلايا في رحلة تقترب من الأبدية، ويحتفلون باكتشافهم (نبع الشباب) الكيمياوي، في كانون ٢ (يناير) من مطلع العام ١٩٩٨م، من خلال إنزيم خاص (تيلوميراز TELOMERASE) يهب التجدد في الجسم، ويمنح الخلايا ديمومة الحياة واستمرار انقسامها وتكاثرها، ولكن حماس الخلايا واندفاعها في عشق الحياة لا يعني سريان هذا القانون على هيكل الجسد ككل، فيتملص من قبضة الشيخوخة، أو يفر من قدر الموت ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾.

سحر فكرة الخلود:

أغرى الشيطان آدم بفكرة الخلود ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ وراهن الدين على فكرة الخلود، تحت إغراء فكرة جنة الخلد التي أعدت للمتقين، حيث لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأكثر ما يسحر في الفكرة الصمود أمام الموت؛ فلا يتآكل الإنسان، وكأن الزمن يتوقف، ويتزامن ذلك مع التخلص من قبضة المرض والشيخوخة والضعف والكآبة، ويُؤتى بالموت على هيئة كبش أملح فَيُذبح ويُنادى بالخلود.

أوديسوس وجلجاميش:

تقول الأساطير اليونانية: إن الساحرة (سيرسا CERCA) أقنعت مجمع آلهة الأولمب بمنح الخلود (لأوديسوس ODESIUS) الضائع عبر البحار

والقفار، في رحلة العودة من اجتياح طروادة وهدمها، بعيداً عن زوجته الحبيبة (بينلوبي PENOLOPY) كي يسقط في أحضان الساحرة الماكرة، وتُصور ملحمة (جلجميش) من الألف الثالثة قبل الميلاد رحلته إلى أرض (أتنابشتيم) البعيدة، يحضر منها زهرة اللوتس تهب الخلود صديقه (انكيدو) ولكن الحيّة في رحلة العودة تبتلعها، ولا ينجو جلجميش من الموت، كما لا يعبر انكيدو إلى الخلود، في جو حزين من حيرة الإنسان أمام صدمة الموت؛ فيجلس جلجاميش ليبكي وتجري الدموع على خديه ويستعيد كلمات (أتنابشتيم) (ليس هناك خلود. هل نبني البيوت لتبقى إلى الأبد؟ هل يستمر فيضان الأنهار؟ ليس هناك خلود من قديم الزمان. النائمون والموتى كم يشبهون بعضهم. . أي جلجميش إلى أين تتعجل المسير؟ إنك لن تجد أبداً تلك الحياة التي تبحث عنها؟! عندما خلق الإله الإنسان جعل الموت من نصيبه، ولكنه أبقى الحياة في حوزته، أما أنت يا جلجميش فاملأ بطنك بأطايب الطعام، امرح وابتهج نهاراً وليلاً، البس الجديد واغتسل بالماء، داعب الطفل الصغير الذي يمسك بيدك، واجعل زوجتك سعيدة في أحضانك، فهذا كله أيضاً من نصيب الإنسان).

البيولوجيا والتاريخ والفيزياء:

البيولوجيا تحاول التمرد على الموت بظاهرة السرطان؛ فيموت الإنسان وتبقى خلاياه المتسرطنة تتكاثر بجنون لا يعرف التوقف. وحاول الفراعنة بناء جبال مروعة من الأحجار المرصوصة تتحدى الزمن، عسى أن يتحرروا من قبضة الفناء إلى عتبة الخلود، وقربت الفيزياء بواسطة النسبية بشقيها (الخاصة والعامة) فكرة الخلود عن طريق سرعة الضوء والكتلة الكبيرة؛ فإذا قارب الإنسان سرعة الضوء توقف الزمن، وإذا استوى على مسطح عرضه السموات والأرض توقف الزمن، في تأطير غير مباشر لفكرة الخلود والاقتراب منها، وأشار القرآن إلى امتداد العمر

في نموذجين: نوح الذي عاش تسعة قرون ونصف ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ومجموعة الشباب الذي هربوا إلى كهف قصي تضمهم فجوة منه، في نجاة من مجتمع مشرك أحادي الرؤية، يقتل كل إمكانية تفتح للإنسان، تهرب منه حتى الكلاب ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ تجاوزوا في رقدتهم الثلاثة قرون، بطريقة التبريد KRYO من خلال قوانين فيزيائية كونية وبيولوجية (التقليب وعدم التعرض للضوء) ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾.

الحنين الفلسفي إلى الخلود:

في داخلنا حنين فلسفي إلى فكرة الخلود جعلت الأميرة (صوفيا شارلوتنبرج SOPHIA CHRLOTENBURG) تسر لفيلسوف التنوير (لايبنتز LEIBNITZ) أثناء حوارات فلسفية عميقة أنها تنتظر الموت كتجربة تنضم إلى الشخصية، وتبقى الذاكرة الأخيرة والتجربة النهائية التي تنضم للتجارب والذكريات بدون عودة منها، إنها تتلهف على الموت فهو سيبوح لها بكثير من الأسرار، ويحل لها كثيراً من الاستعصاءات العقلية، التي لم يوفق الفيلسوف في حلها، فرحلة الموت تبقى شيقة جديرة بالإثارة، لما تتوقع فيه من كشف الغطاء فبصر الإنسان يومها شديد الحدّة ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

وتقوم البيولوجيا حالياً بإثارة ضرب من الخيال مثير من خلال عالم (الشهادة) بإمكانية مد اليد إلى أحد أسرار الخلية ودفعها إلى الشباب المتجدد والعمر المديد والصحة الوافرة، راهن عليها مليونير البترول من تكساس (ميللر كوارليز QUARLES MILLER) فدفع بسخاء مائة ألف دولار لتشجيع أبحاث شركة (جيرون GERON) في إنتاج هذا الترياق الجديد لتجديد نبع شباب دائم لا يعرف النفاد.

التحديات الأربعة: الألم ـ المرض ـ الشيخوخة ـ الموت:

أربع تحديات رسمت نفسها أمام الإنسان في التاريخ: الألم والمرض والشيخوخة والموت، وخلال نضاله الطويل تحرر من الألم، وقهر المرض في ساحات كثيرة، وهو الآن يمد يده لكشف اللثام عن أسرار انهدام الجسد، وجدلية الشباب والشيخوخة، في قفزة أخيرة لمعرفة ماذا يعني الموت؟ ولماذا الموت؟ ولماذا يراهن الدين على فكرة الخلود كنبع فلسفي للفكر الإنساني يعطي معنى للوجود.

تجدد الحياة المستمر:

الحياة تتجدد وتستمر بتجدد وانقسام وتكاثر الخلايا؛ فجسدنا قميص نسيجه الدقيق خلايا تصل إلى ١٠٠ مليون مليون خلية، والخلايا أنواع في تجددها، منها الذي يتجدد في أيام مثل خلايا الجهاز الهضمي، ومنها كل ١٢٠ يوماً كما في الكريات الحمر، ومنها الذي لا يتجدد إطلاقاً كما في الخلايا العصبية، وإن كانت المُسَلَّمة الأخيرة قد تم كسرها، عندما تكاثرت الخلايا العصبية خارج الجسم، فما الذي يقضي على تجدد (قميص الجسد) هل هو الاستعمال المتكرر فيفضي إلى البوار؟! أم توقف قدرة التجدد بعد حين بتوقف التكاثر الخلوي؟ هذا إذا تأملنا الموت كنهاية طبيعية لرحلة سفينة استقرت على شاطئ الموت، وليس موتاً قاصفاً كغرق سفينة طوتها أمواج العاصفة فغرقت في اليم، بالموت المفاجئ بالقتل وحوادث الطرق والتسمم؛ فهذه تخضع لسؤال مختلف حاول الخيال العلمي حل إشكاله بإحضار الجسد المصاب كما في حوادث السيارات وإعادة إصلاحه فيعود إلى العمل؟! ويتبخر من الإمكانية المباشرة الحرق الكامل أو الإذابة بالحمض أو التفسخ اللامتناهي فهنا يقوم الاستنساخ الجسدي بتوليد نسخة جديدة مشابهة تماماً تكفي فيه خلية يتيمة واحدة؟!.

لماذا يموت الإنسان؟؟

تتنازع بقاء الإنسان وهلاكه نظريتان: الانهدام بالاهتراء الكيمياوي، والانتهاء والتوقف بالبرمجة الجينية، الأولى بطريقة الحياة والغذاء واستعمال قميص الجسم فيبلى بوقت يزيد وينقص، أو بقدر مرسوم لا رادَّ لقضائه داخل البرمجة الجينية والتكاثر الخلوي، فتنقسم الخلية عدداً من الانقسامات محدودة، لتتوقف ومعها تتوقف دقات الحياة، بما يشبه دقات الساعة ومنبه الاستيقاظ، بفارق أن المنبه هنا هو الموت، أو كما في تعبير الحديث الشريف (**الناس نيام فإذا ماتوا استيقظوا**).

النفايات النووية والنفايات الخلوية (الاهتراء الكمياوي):

في عمق الخلية حيث ترقد مصانع الطاقة المعروفة بـ(الميتوكوندريا MITOCHONDRIA) يحصل فيها ما يحصل بالمفاعلات النووية، فتعاني الخلية من (النفايات السامة)، وأول تأثير لها على نفس أماكن مولدات الطاقة وتوربينات العمل الخلوي، ثم تهاجم جدار الخلية مع الوقت، ويقوم الجسم أثناء ذلك بمعالجة هذه النفايات السامة المعروفة (بالجزيئات الحرة FREE RADICLE) بمواد مضادة الأكسدة (ANTIOXID ANTIEN) وتراكم السم البطيء يقود البدن إلى الاختناق التدريجي في (بحر أدرانه)؟! فالموت هنا غرق داخلي كما نرى.

البرمجة الجينية (GEN-CHRONOMETER):

أما البرمجة الجينية فقصتها تبدأ منذ بداية الستينات لأول مكتشف للساعة البيولوجية التي (تتك) دقات القدر المتقلص، كل دقة تمضي بنا باتجاه وهدة الموت وتنتزع منا نفساً من الحياة، عندما لاحظ الباحث الخلوي (ليونارد هاي فليك LEONARD HAYFLICK) أن الخلايا تتكاثر عبر الانقسام وتجدد نفسها ولكن إلى قدر معلوم، فهناك عدد محدد من

الانقسامات يرسم مصيرنا في الحياة، ويبلغ هذا في المتوسط من خمسين إلى سبعين انقساماً، بعدها تتوقف هذه الساعة البيولوجية عن الدق، لينطلق مُنَبِّه (الاستيقاظ الصباحي) الذي هو الاستيقاظ على الموت والحياة الجديدة.

هل يمكن التلاعب بالساعة البيولوجية؟ هل يمكن إيقاف عقارب ساعة الحياة ورنين مُنَبِّه الموت؟

من نفس مدرسة (ليونارد هاي فليك) قام ثنائي علمي هما (وودرنغ رايت WOODRING WRIGHT وجيري شاي JERRY SHAY) بمحاولة النزول إلى عمق اللعبة لفك ألغازها ومعرفة آلية عملها الخفية؟! كان السؤال: ما الذي يجعل هذه الساعة البيولوجية تقف عن (الدق)؟ ما الذي يحدث كيمياوياً على وجه الدقة؟

كان الجواب من خلال عمل مضني على الكروموسومات، أن ما يحدث هو تآكل في بنية الكروموسومات وفي مكان معين على وجه التحديد؟

لاحظ الثنائي العلمي (شاي & رايت) أن منطقة التآكل هي في نهاية الكروموسوم، ونظراً لأن خارطة تشكيل الجسم كلها تأتي بالأصل منها، وتستمر الحياة من هذه اللغة العجيبة الموجودة في الكروموسومات؛ فعطب الكروموسومات يعني بكلمة أخرى تدمير مخطط بناء الجسم المستمر. ولكن لماذا نهاية الكروموسوم بالذات؟

كل السر في حذاء الكروموسوم؟!

الحياة عنيدة مليئة بالأسرار فحفظت ألغازها في لوح محفوظ في عمق (نواة الخلية) على هيئة كتابة سرية مكونة من أربع حروف فقط، يرمز لها الكيمياويون بـ(C.A.T.G) في تسلسل يبلغ ثلاث مليارت حرف من هذا النوع، موزعة على ٢٣ زوجاً، في كل زوج أسرار رهيبة عن تخلُّق كياننا، وكل

قطعة من تسلسل هذه الحروف تعني شيئاً محدداً على وجه الدقة، من لون العينين واستقامة الأنف ولدغة اللسان ونبرة الصوت ولون الجلد وتمايل الجسم وهيكل العظام وتركيب الأنسولين، بحيث أن مجموع هذه الأوامر يقدرها العلماء حالياً بمائة ألف (أمر) لبناء مائة ألف تركيب مختلف، ونظراً لأن هذه الكروموسومات تشبه الأعمدة المتصالبة، يبني كل عمود التفاف خرافي منَ الحروف الأربعة على شكل سلم لولبي؛ فإن الجسم قام بحذق يحمي نهايات أو قيعان وأقدام هذه الأعمدة الزاحفة في نواة الخلية، كي لا يختلط الحابل بالنابل، وعرف الثنائي العلمي أن هذه النهاية تشبه غطاء حماية تماماً كما في نهايات (الشواطات) أربطة الحذاء، وهي من معدن الحروف الأربعة، وسميت هذه النهايات الحاسمة، كما في سر نهايات مقاطع الكلمات (التيلومير TELOMERE) جاءت المفاجأة؟؟

تهترئ النهايات كما تهترئ أربطة الحذاء:

استطاع الثنائي العلمي (شاي & رايت) من خلال جهد استغرق عشرات السنوات أن يهتدي إلى سر رائع بتآكل هذه النهايات مع كل انقسام خلوي؛ فأكملوا عمل أستاذهم (ليونارد هاي فليك) فسر برمجة الساعة البيولوجية وتوقف الحياة بتوقف دقاتها متوقف على التآكل المستمر في نهاية الكروموسومات. لقد عرف أن هذه النهاية تخسر مع كل انقسام ما لا يقل عن خمسين حرفاً من اللغة السرية للخلق، فإذا حصل لأي كتاب مقدس أن يتم تساقط النصوص منه بهذا الشكل فقد مصداقيته، وهذا ما تفعله الحياة مع هذا النص المقدس غير المحفوظ المتآكل المندثر مع الوقت.

إن البدن يتمرد على هذا التزوير والتشويش في القراءة فلا يعود يفسر الأوامر، ومعناه التوقف والعجز عن التفسير، وهذا يقود إلى التوقف عن الإنتاج والموت، فمع كل نسخة جديدة اختفاء وزغللة ما لا يقل عن

عشرات الحروف الهامة في لغة الحياة، فتتوقف الحياة عن إنتاج هجين من هذا النوع، فهذا هو مفتاح الدخول إلى الموت، وتبارك الذي خلق الموت والحياة ليبلونا أيُّنا أحسن عملاً وليس أكثر عملاً.

عالمتان أمريكيتان تكتشفان ترياقاً ضد تآكل الخلايا (التيلوميراز TELOMERASE):

هذه الملاحظة حركت شهية البحث عند سيدتين أمريكيتين تشكلان ثنائي علمي هما (كارول جرايدر واليزابيث بلاك بورن CAROL GREIDER & ELIZABETH BLACKBURN) فطرحتا السؤال مقلوباً مرتين؟؟ أولاً طالما كانت الانقسامات معلقة بنهاياتها، كما في تفسير الكلمات وإعرابها، فماذا لو قمنا بتسكين الكلمة فنأمن من شر الإعراب وحركة الكلمات ودلالتها الشقية؟! كما في نصف الآية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ بأن نضع الضمة على كلمة الله؛ فيحصل للمعنى انقلاب مجنون جداً!! أو في لغة البيولوجيا بلجم دقات الساعة البيولوجية ومنبه الموت معها؟! هل هناك من لجام؟ هل توجد أي نوع من الفرامل؟

والسؤال الثاني: لا شك أن الجسم يحوي مثل هذه الفرامل بكيفية ما؟! وإلا كيف نفسر رجلاً عجوزاً «أكل عليه الدهر وشرب»، يتزوج من شابة مفعمة بالحيوية؛ فَيُنجِب غلاماً زكياً وليس شيخاً مهدماً!! لا بد أن خلاياه المنوية فيها خاصية المقاومة للشيخوخة والموت؟! فجسم العجوز مهدم ولكنه يحمل مستودعات لا تشيخ أبداً، بكلمة أخرى هل تحمل الحيوانات المنوية فرامل تآكل نهايات الحذاء الكروموسومي القاتل، الذي يفقد نعل حذاءه فيمشي في شوك الحياة فيهلك؟!

قالت كل من العالمة (جرايدر وبلاك بورن): علينا إذاً أن نبحث في قلب هذه الخلايا وما يشابهها، مثل خلايا أرومة إنتاج الدم في نقي العظام؟

أو حتى في خلايا الجنين، ووضعتا أيديهما على هذه المادة السحرية التي أخذت اسم (التيلوميراز) على شكل أنزيم حيوي. كان هذا الكشف عام ١٩٨٥م، وجاءت مفاجأة أخرى أدعى للإثارة في مسلسل البحث عن الموت المتربص في كل زاوية، و﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾؟

تناقض الحياة المروع (الجنين والسرطان):

الجنين سرطان رهيب مضبوط، والسرطان تمرد على قوانين التآكل والموت، في عشق للعودة إلى حياة الطفولة بلا موت. كل هذه كشفته الدراسات الخلوية الحديثة، بمادة (التيلوميراز) المحشوة في دم الجنين (وخلايا السرطان) فكلاهما يستحمان في ترياق الحياة الزكي، فعند دراسة خلايا الأجنة وجد أنها تتكاثر على نغم هذه المادة السحرية التي تعمر الخلايا بزخم الحياة، وعند تأمل الأنسجة السرطانية فوجيء الباحثون بتدفق هذه المادة في مفاصل الخلايا السرطانية المتمردة، في جدلية فظيعة أمام مادة فيها الكثير من الأسرار والتحدي.

هنا بدأ العلماء يحومون حول هذه المادة الخطيرة يخطبون ودها لمعرفة كيفية تسخيرها. ولكن هل طول الحياة جميل؟ وهل الموت قنوط المقيم كما يرى الفيلسوف راسل؟! أم أن الفلسفة تعجز عن فتح كوة الأمل، ويتقدم الدين بترياقه المميز، حيث تقف خطى الفلسفة عاجزة؟ ويأتيها الدليل من عالم الشهادة على مراهناتها العديدة؟! من خلال الكمبيوتر وإحصاء الأعمال، والنسبية وتقريب معنى الخلود، والكوسمولوجيا والانفجار العظيم عن معنى ولادة الزمن وبداية خلق الكون؟!

بؤس الفلسفة وأمل الدين وشهادة العلم؟

كتب (كارل ماركس) كتاباً كاملاً يحمل عنوان (بؤس الفلسفة)، وتمنى اليهود أن يعمر أحدهم (ألف سنة)، ورأى الفيلسوف شوبنهاور

(SCHOEPENHAUER) أن الطبيعة تسحق (الفرد) بدون رحمة ولا تبالي، وتحافظ على (النوع) بعشق وضراوة وإصرار، فبقدر ما يتسلط الموت على قدر الأفراد بقدر ما تحافظ الحياة على النوع؟!

وتأمل الفيلسوف الرواقي (ابكتيتوس EPICTITUS) مائدة الحياة أنها دلالة إيجابية على أنه لا يوجد في الحياة شر إلا من خلال موقفنا منه، وبتغيير موقفنا لا يبقى شر، وبكى بحرقة الفيلسوف البريطاني (برتراند راسل) وهو يرى الموت يختطف كل عبقرية الإنسان المتألقة في رابعة النهار فكتب بنوع من الاختناق الفكري في كتابه لماذا أنا لست مسيحياً؟ في فصل عبادة الرجل الحر: (لأن يكون الإنسان نتاج أسباب لا تملك العدة اللازمة لما تحققه من غايات؛ ولأن تعجز أي حماسة مشبوبة أو بطولة أو أي حدة في التفكير عن الإبقاء على حياة فرد واحد فيما وراء القبر، ولأن يكون الاندثار هو المصير المحتم لكل عناء الأجيال، ولكل التفاني ولكل عبقرية الإنسان المتألقة تألق الشمس في رابعة النهار، لا يجعل بناء موطن الروح في أمان إلا في إطار من هذه الحقائق، على أساس راسخ من القنوط المقيم) وراهن الدين على خلود بلا موت، وشباب بلا شيخوخة، وعافية بدون نَصَب ولا لغوب، وسعادة لا يعكرها غل أو كِبْر، وتقرب البيولوجيا اليوم مفهوم امتداد الحياة بدليل من عالم الشهادة وآيات من عالم الآفاق والأنفس ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

وصف المؤرخ البريطاني (هـ. ج. ولز ـ H. G. WELLS) عبور الإمبراطور الفارسي (كزركسيس ـ XERXES) لمضيق الدردنيل (HELLESPONT) عام ٤٨٠ قبل الميلاد لاجتياح بلاد اليونان في كتابه (معالم تاريخ الإنسانية) على الصورة التالية:

«حتى إذا نظر فرأى الهلسبونت تغطيه السفائن ورأى كل شواطئ سهول

أبيدوس غاصة بالرجال، قال عن نفسه: إنه لسعيد، وما لبث بعد ذلك أن هملت عيناه بالدموع فسأله عمه أرطبانوس: فإنك قد وصفت نفسك رجلاً سعيداً تذرف الدمع الآن؟! فأجاب الملك: أجل إني بعد أن أحصيتهم عدّاً دار بخلدي إحساس بالشفقة والحسرة لتذكري كم حياة الإنسان قصيرة، لعلمي أنه من بين هذا الجمع الحاشد لن يكون أحد حياً بعد أن تمضي مائة من السنين».

قانون غذائي عجيب: (كلما أكل أكثر مات أسرع):

قام العالم ريشارد فاين درخ (RICHARD WEINDRUCH) بثلاث تجارب مثيرة كانت الثالثة منها عليه بالذات. كانت الأوليتان على فئران الحقل؛ فقد لاحظ أن الحيوان يميل إلى الموت أسرع كلما تغذى أكثر، وبمقارنة الحيوانات وكم تستهلك من الطاقة استطاع رصد قانون ملفت للنظر، فعمر الحيوان يحدد بمقدار ما يستهلك من الكالوري نسبة إلى وزنه؛ فجرذ الحقل الذي يستهلك ٢٥٠ كالوري لكل غرام من جسمه في اليوم يعيش ١٨ شهراً فقط، في حين أن الخنزير الذي يستهلك ١٢ كالوري يعيش ٢٥ سنة.

الإنسان يمثل استثناء في الطبيعة بعدد دقات قلبه:

كما لوحظ قانون آخر في علاقة دقات القلب مع فسحة الحياة؛ فكل حيوان عنده أربع مليارات من دقات القلب يستهلكها كيفما أراد، فالفأر والأرنب مشغولان بنهم في القرض والالتهام طول النهار تضرب قلوبهم حوالي ٥٠٠ ضربة في الدقيقة فينفقون بسرعة أكثر، في حين تعيش الفيلة والسلاحف أكثر من مائة سنة بسبب ضربات القلب البطيئة، وعرف في هذا الصدد أن قلوب الرياضيين تضرب ببطء أكثر، وأن الله قد منح للبشر فترة حياة مضاعفة، فقلوبنا نحن البشر تضرب حوالي ثمانية مليارات ضربة في متوسط الحياة.

تطبيق (نظام الصوم) على الفئران!!

قام العالم (ريشارد فاين درخ) بتجربة مثيرة على الفئران فجوعها بتطبيق (نظام الصوم) عليها ليرى مدى تأثيره؟؟ وكانت المفاجأة صاعقة لأن الفئران عاشت أطول عمراً وأطيب صحة، وكسبت ٥٠٪ زيادة في العمر، مما دفع العالم إلى تطبيق هذا النظام على نفسه: إذا عمرت الفئران أطول وأفضل بالصيام؛ فهو من باب أولى بتطبيقه على البشر، منذ ذلك الوقت خفض العالم كمية غذائه باعتماد ١٥٠٠ كالوري في نهاره، فيكسب كما كسبت الفئران زيادة ٥٠٪ في فسحة العمر؟!.

يقول العالم (فاين درخ) وهو هنا يتفق مع مدرسة البرمجة الجينية، إذا كانت الانقسامات الخلوية تمنحنا حوالي ١٢٠ سنة من فسحة العمر، فإنه باعتماد نظام التجويع المستمر (الصوم) يمكن أن يعيش الإنسان لفترة ١٨٠ سنة؟!.

لماذا يموت الناس في المجاعات؟

يمكن تطويق ظاهرة الموت من طرف آخر، ومد فسحة العمر عن طريق لجم السموم، وهذا ما فعله العالم (راجيندار سوهال RAJINDAR SOHAL وزميله (ميشال روزي MICHAL ROSE) برفع مستوى المواد المضادة للسموم المنبعثة من تفاعلات الخلايا بزيادة مواد (مضاد الأكسدة ANTIOXID ANTIEN) وكانت التجربة على ذباب الفاكهة، من خلال إقحام هذه المواد في نواة الخلية، وكانت المفاجأة قوية، عندما تم ملاحظة قوة الذباب المحقون بهذا الأكسير، نسبة للفريق الآخر غير المعالج بهذه الطريقة؛ فطال عمره، واشتد عوده، وعظمت مقاومته للأمراض والسموم والجوع والغازات القاتلة وصدمات الحرارة.

كان ابن خلدون يقول: إن الناس في المجاعات لا يموتون من الجوع

الجديد، بل من اعتياد الأمعاء القديم على فرط الرطوبات، ولذيذ المطاعم والمشارب، والتأنق في افتراس الطعام بدون توقف.

الفراعنة الجدد:

ومع الإعلان عن الكشف الجديد لأنزيم التيلوميراز مالت الكفة باتجاه (القدر الجيني) فتبرع (بارون البترول) المليونير في تكساس (ميللر كوارلس MILLER QUARLES) بمبلغ مائة ألف دولار تشجيعاً لاستحضار ترياق الحياة؛ فهو بلغ الثلاثة وثمانين عاماً ويرى الحياة جديرة بأن يتمتع بها المرء.

ويضع الأغنياء الأمريكيون اليوم (الفراعنة الجدد) أجسادهم في سائل النشادر (١٦٠تحت الصفر) عند الموت على أمل وصول الطب في المستقبل إلى إعادتهم إلى الحياة بشكل أكثر حيوية وشباباً؟!

وبدأت الشركات تشمر عن ساعد الجد في تطبيق أنزيم الحياة الجديد على العديد من الأمراض من العته ونقص المناعة، الضعف الجنسي وتساقط الشعر، الصدفية والصلع، وسجلت أسهم شركة (أبحاث الشيخوخة) (جيرون GERON CORPORATION) في سوق البورصة ارتفاعاً بمقدار ٤٤٪، واعتبرت شركات التأمين للشيخوخة والتقاعد أن ما يحدث بمثابة الزلزال للنظام التقاعدي لزبائنهم المرشحين أن يعيشوا قروناً.

ثورة بيولوجية تضاهي الثورة الزراعية:

اعتبر الطبيب (ميشيل فوسل MIHAEL FOSSEL) من جامعة ولاية ميشيجان (MICHIGAN STATE UNIVERSITY) أننا أمام التحول الأعظم في تاريخ البشرية لا يقارنه إلا الثورة الزراعية (CULTURE REVOLUTION) فإذا كانت الثورة الزراعية قد حررت الإنسان لأول مرة في تاريخه الإنثروبولوجي من الخوف من الموت جوعاً، فإن الثورة الحالية تراهن على مد عمره بالتلاعب بالساعة الداخلية لأجله المحدد.

تم هذا باستخدام قانوناً ضد قانون، فبواسطة القانون أمكن للحديد أن يخترق قانون الجاذبية فيطير في الهواء، وكما أمكن رفع متوسط عمر الإنسان الحالي، مد العلم يده للتداخل على أجل الفرد من خلال سُنَّة الله في خلقه، فبعد أن كان معظم الناس لا يعمرون أكثر من ثلاثين إلى أربعين سنة؛ يُعتبر من يموت في الستينات اليوم شاباً صغيراً.

مات الرسول ﷺ بعمر الثلاث وستين سنة بحُمى قد تكون تيفية، وقضى الإمام الشافعي نحبه في الخمسين بالبواسير، وهلك فيلسوف التنوير (سبينوزا) الهولندي دون الأربعين بالسل، ومات صلاح الدين الأيوبي وعمره ٥٢ سنة بالتهاب الطرق الصفراوية، وكان يمكن معالجة الحالة الأولى بالمضادات الحيوية، والثانية بعملية بسيطة، والثالثة بعقار الستربتومايسين والنيازيد، والرابعة بالمغذيات والعلاجات المناسبة بما فيها جراحة المناظير الحالية، وليس كما فعل (مجلس الحكماء) بمعالجة صلاح الدين الأيوبي حينما قضوا عليه بالفصادة؛ فأصيب بالتجفف (DEHYDRATION) والصدمة الكلوية؟!

أوقيانوس المجهول الإنساني:

يرى الطب الأمريكي الحديث أننا في أول الطريق لوضع يدنا على أسرار مذهلة في قهر السرطان ليس الأنزيم الحيوي (تيلوميراز) آخرها وتحقيق حلم الإنسان في معالجة الكثير من المشاكل المستعصية، فنحن نلج أوقيانوس المجهول الإنساني ببطء وحذر وجهل، ولعل الأحجية الكبرى هي معرفة الإنسان، كما وصف ذلك قديماً الكاتب والجراح (الكسيس كاريل) في كتاب (الإنسان ذلك المجهول MAN THE UNKNOWN) أن الإنسان حقيقة مجهولة تمشي وسط موكب من الأشباح.

تكنولوجيا للسلوك الإنساني:

نحن فهمنا أشياء كثيرة مما يحيط بنا ولكننا لا نملك (دليل معلومات

(MANUAL INSTRUCTION) عن أنفسنا كما يرى ذلك عالم النفس الأمريكي (براين تريسي) في أبحاثه عن أسس علم نفس النجاح، عن كيفية تشغيل هذه الآلة المعقدة المسماة بالإنسان، وهي كلمة غير دقيقة غير سليمة ولا تؤدي الغرض؛ فالإنسان يجمع داخله مختصر مضغوط لبرمجة الكون كله، فإذا كانت الكروموسومات تحوي ثلاثة مليارات من الأحماض النووية وتعتبر التجلي الأعظم في الخلق البيولوجي، فإن الجانب الروحي النفسي ما زال دغلاً لم نقطع بين أشجاره الملتفة سوى خطوات قليلة.

لو بُعث سقراط لصُعق مرتين:

هذا التصور المذهل جعل عالم النفس السلوكي (سكينر SKINNER) يعقب في كتابه المترجم إلى اللغة العربية تحت عنوان (تكنولوجيا السلوك الإنساني BEYOND DIGNITY AND FREEDOM) أن سقراط لو بعث في أيامنا الحالية لدهش من أمرين: اكتشاف نفسه طفلاً صغيراً لا يفقه شيئاً من الأبحاث الحالية. سوف يصعق من المعلومات الجديدة عن الفيزياء النووية بتركيب مضاد المادة، ورحلة المركبة (باثفليندر) إلى المريخ، وكشف التركيب الجيني في نواة الخلية، في جدلية فهم العالم الأصغر والأكبر بالتسلكوب والميكروسكوب (MACRO & MICRO) عند حواف الكون، ولكن المفاجأة الثانية لن تكون بحال أقل من الأولى؛ أن العالم لم يتغير كثيراً في الحوارات الفلسفية والعلوم الأخلاقية الإنسانية؛ فسيقتحم غمارها خوض المغامر الجسور؛ فليس هناك من تطور نوعي في المناقشات، فما زال السياسيون يتناقشون ويتعاركون كرجال الأدغال؟!

يعقب عالم النفس (سكينر) على كارثة إنسانية من هذا الحجم: لماذا لم تتطور العلوم الإنسانية بشكل نوعي انقلابي كما حصل مع التكنولوجيا؟ هل لأن هذه العلوم لا تملك بذرة التطور في رحمها؟ فيمكن للإنسان أن

ينمو تكنولوجياً ولكن لا يتطور أخلاقياً؟ هل تحتاج إلى تطوير أدوات معرفية نوعية، تسبر غور فضاء معرفي معقد من نوع جديد؟؟ وهل هناك ما أوقف تطوير الأدوات المعرفية هذه؟؟.

ويخلص من هذا إلى القول بوجوب وضع تكنولوجيا إنسانية تستطيع ضبط التعليم والصناعة، والانفجار السكاني، والسلام العالمي، كما نضبط مسير سفينة فضائية، أو نقترب من الصفر المطلق في الرياضيات؟!

موسى عليه السلام يصفع ملك الموت فيفقأ عينه!!

يتعامل الحديث مع جدلية الموت، بين رغبة الإنسان وحنينه إلى الخلود، والموت الراصد أمامه؛ فيعرضه على شكل قصة مثيرة مسلية تحوي الكثير من الترميز: يقول الحديث أن موسى فوجئ ذات يوم بملك الموت يقف جنبه مُسلِّماً عليه؟! فلم يكن من موسى عليه السلام، المعروف بحدة في طبعه، إلا أن صفع ملك الموت بقوة أدت إلى إصابته بعطب بالغ فخسر عينه؟! ولم يكن جديداً منه فقد عُرف عن موسى قبل هذا أنه وكز غريمه في مصر فقضى عليه، وهو الذي أخذ رأس أخيه يجُرُّه إليه؟! ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾!!؟! فرجع ملك الموت إلى ربه يشكو موسى: أي رب أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت!! قال رب العزة لملك الموت: ارجع إليه فقل له: ليضع يده على متن ثور فله بكل شعرة سنة!! قال موسى: أي رب ثم مه؟ أي ثم ماذا؟؟ قال: ثم الموت!! قال: فالآن؟!!.

في فلسفة الموت!!

عندما زارني صديقي الوفي (أبو طه) كان يمشي بعزم، ويتكلم بقوة، يشع بالحيوية، ويفيض بالكلمة والنكتة والتعليق والنقاش، كان عالماً كاملاً قائماً بذاته، ولم يخطر في بالي أنه خلال ساعات سينهار بشكل كامل، فيستسلم إلى الأرض، وينطفئ حديثه العذب وتتوقف إشاراته المفعمة بالقوة، ويغيب عالمه بالكامل، فيتحول إلى قميص تتلقفه يد الثرى. وتذكرت شعر أبي العتاهية:

دب السقام فيَّ سفلاً وعلواً   وأراني أموت عضواً فعضوا
ليس تمضي من لحظة بي   إلا نقصتني بمرها في جزوا

كان أشد ما أحزنني أنه جاء إلي بقدميه وقلبه يخفق، وحملته جثة إلى أهله في صندوق، يشيعه قلبي المحطّم وعقلي المذهول ودموعي.

أين ذهب؟ أين هو الآن؟ أين اختفى عالمه بالكامل؟ كنت خلال الطريق أرقب صندوقه الذي يحمل جثمانه الغالي وأنا بين الحلم والحقيقة، فالموت تلك الظاهرة التي تسبح بين اليقين واللايقين، ففيها اليقين من النهاية الحدية، التي تسلم الإنسان إلى عالم اللانهاية والأبدية واللاعودة، وفيها اللايقين من عدم إمكانية تصديق انهيار عالم بالكامل، بشكل مطلق ونهائي وفجائي إلى الصفر!!

كان يخيل إلي أحياناً أنه سيقوم من الصندوق الخشبي ويرفع عنه الأغطية المغلفة لبدنه، ويجلس، ثم ينظر إلينا مرتاعاً مستغرباً كيف حصل أن وُضع هذه الوضعة غير اللائقة، فمكانه كرسي داخل السيارة، ومنامه فراش

وثير وليس كفن وتراب، وطعامه هنيء، وحياته حافلة باللذات والراحة. وفجأة انحدر إلى الوحدة والوحشة والغربة والبعد السحيق. لن ينام بعد هذه الليلة في فراشه، لن يرى عائلته قط، لن يرجع إلى روتين حياته السابق، انطفأ الشعور وغاب الإحساس وودّع كل شيء على الإطلاق في رحلة لا رجعة منها:

ألا رب وجه في التراب عتيق ... ويا رب حسن في التراب رقيق
ويا رب رأي في التراب ونجدة ... ويا رب رأي في التراب وثيق
فقل لقريب الدار إنك راحل ... إلى منزل ناء المحل سحيق
وما الناس إلا هالك وابن هالك ... وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق

يا إلهي ما هذا الموت الذي كتبته علينا، أي جبروت فيه وقهر: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾.

عندما انتابني هذا الشعور لا أدري ما الذي حرك في ذهني فكرة بعث الموتى على يد المسيح عليه السلام، وعندها بكيت وأدركت أن صاحبي قد شبع موتاً، وجثته تمشي في طريق التعفن والتحلل والتفسخ، وسوف يهرب منه أقرب الناس إليه، ويبقى التراب أفضل ستر، وسالت دموعي مجدداً، فموعدي معه هو في الآخرة فقط.

بكيت في الواقع على نفسي، فعمره من عمري وهو من جيلي وعاصر نفس الأحداث التي عشتها، أما هو فقد انتهى حظه منها، وطوي ملفه من سجل الأحياء، وأما أنا فسألحقه ولو بعد حين.

إدراك الموت ووعيه الحاد:

إن فلسفة إدراك الموت ووعيه الحاد تولدت في الشعور الإنساني من

معاصرة ومعاينة فقد الصديق والحبيب. عندما دخلنا مدينته تعجبت من سهر قوم حتى الصباح الباكر في غاية السرور والفرح، كان عرساً حافلاً. قلت في نفسي: عجباً لهذه الأضداد! وتذكرت الآية ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣] ثم تداركت: كل من في هذا الاحتفال لهم موعد مثل موعد (أبو طه) صديقي الوفي، فكما تمتع وتزوج وعاش وكان على موعد مع الموت، كذلك كل من يدب على ظهر هذه البسيطة من الأحياء هم في حكم الزوال والوجود المؤقت والمعار.

بدأت أنظر إلى المارة والناس بغير العين السابقة وأخاطب نفسي: كلكم أشباح تنتظرون الموت. اسعوا ما تسعون وافرحوا ما شئتم ففي النهاية سيكون ظل الموت الباكي هو الذي سيغلفكم ولو بعد حين. إن كل لحظة لنا هي توديع للحياة باتجاه نقطة الموت التي نقترب منها. إننا نكبر مع كل لحظة ونقترب من الموت لحظة مقابلة فنصغر بنسبتها.

قانون التغير يمثل الحقيقة الأولى في الوجود:

إن الحقيقة الأولى في الوجود ـ كما قال حكيم من الشرق ـ هي قانون التغيُّر وعدم الدوام والزوال. إن كان شيء في الوجود من حيوان الخلد إلى الجبل، ومن الفكرة إلى الإمبراطورية، يمر خلال دورة الوجود ذاتها، أعني النمو والانحلال ثم الموت. والحياة وحدها هي الشيء المستمر، وهي دائماً تسعى إلى الإفصاح عن نفسها في صورة جديدة، والحياة جسر، ومن ثم فلا تُبنى البيوت فوق الجسور، والحياة عملية من عمليات التدفق والجريان، فمن يتعلق بأية صورة من الصور مهما يكن جمال هذه الصورة فسوف يقاسي، نتيجة لمقاومته لهذا التدفق والجريان، والحياة واحدة غير منقسمة وإن كانت أشكالها المتغيرة على الدوام لا حصر لها وهي قابلة للفناء. وليس هناك في الحقيقة موت وإن كان الموت مصير كل صورة من

صور الحياة. إن الرحمة وليدة إدراك وحدة الحياة وفهمها. وقد وصفت الرحمة بأنها قانون القوانين، وأنها التناسق الأبدي، وأن الذي يشذ عن هذا التناسق سوف يصيبه الألم والمكابدة، كما أنه يؤخر من تنويره وتثقيفه(١).

لحظة الوداع الأخيرة:

وخلال ساعات كان صديقي وأخي يصلى عليه ثم نودعه إلى التراب!! لم يكن ما بين حديثه العذب واستسلامه الكامل للحفرة وحيداً فريداً يذوب عضواً فعضواً، صديقه التراب والدود والتفسخ الكامل أكثر من ساعات قليلة. وقفت مذهولاً أمام جبروت الموت وضغطه الساحق، وعندما دخلنا المقبرة كان السكون والسلام يطوق عالماً جديداً، قلما ننتبه إليه، حيث تناثرت القبور، وبرزت بعض الحجارة تحمل رموز أصحابها. كانوا مثلنا تماماً وعاشوا بكل زخم الحياة. نحن الآن إذاً في عالم الأموات ودنيا المغيبين. كانت فوهات قبور جديدة جائعة تطل من بطن الأرض؛ فاغرة فاهها إلى مجهول قادم تستعد لالتهامه. تعجبت وسألت: لماذا؟ أجاب حفار القبور: السيل قادم من طوابير الموتى ويجب أن نستعد لاستقبال زبائن العالم الآخر!!

وتذكرت سنوات مضت حينما مات صديقي الشاب في الدمام بعاصفة مروعة من مرض عضال افترسه في أقل من شهر، عندما زرت قبره بعد حين كانت الساحة مفروشة بأعداد جديدة لا تحصى من زوار العالم الآخر، مشينا مسافة طويلة وبصعوبة اهتدينا إلى مكانه، كان قد دخل في عالم النسيان والإهمال.. ولا أشيء أدعى إلى الحزن من النسيان، حتى الأبناء لا يزورون قبور آبائهم إلا في المناسبات، وبقيت أماكنهم فقط في الذاكرة فقط.

في بلدتي التي نشأت فيها تناثرت دموعي في المقبرة وأنا أقرأ جملة

(١) الحكماء الثلاثة، أحمد الشنتناوي، دار النشر اقرأ، دار المعارف بمصر رقم ١٢٣، ص١٠٥.

لإحدى قريباتي، كانت في غاية الحيوية والجمال والنشاط ففارقت الحياة على موعد مبكر، كانت الفقرة تقول: أعرف أن المكان لا يدعوك ولا يشجعك للوقوف الطويل، كل ما أرجوه منك أن تقف لحظات وتتذكرني أنني كنت من عالم الأحياء مثلك.

أيها الزائر إلي قف عند قبري شوي
واقرأ السبع المثاني رحمة منك إليه
في زمان كنت مثلك أقرأ القرآن حي
عن قريب تبقى مثلي ليس بعد الله حي

نحن نودع الجثث التراب ثم ننصرف، وعندما تحركت في المكان كانت قدمي تطأ بقايا البشر من أمثالنا في أعداد لا تُحصى. تذكرت رثاء أبي العلاء المعري لصاحبه أبي حمزة:

غير مُجْدٍ في ملّتي واعتقادي ... نوح باك ولا ترنّم شاد
وشبيه صوت النعي إذا قيس ... بصوت البشير في كل ناد
أبكت تلكم الحمامة أم غنت ... على فرع غصنها المياد
صاح هذي قبورنا تملأ الرحب ... فأين القبور من عهد عاد
خَفِّف الوطءَ ما أظن أديم الأ ... رض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العهد ... هوان الآباء والأجداد
سر إن اسطعت في الهواء رويداً ... لا اختيالاً على رفات العباد
رب لحد قد صار لحداً مِراراً ... ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين ... في طويل الأزمان والآباد
إن حزناً في ساعة الموت ... أضعاف سرور في ساعة الميلاد

ولكن دموع الدنيا كلها لو تدفقت فتحولت إلى أنهار؛ لن تعيد الحياة لميت واحد ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١].

الدهشة والغرابة في ظاهرة الموت (الفردية ـ الديموقراطية):

يحمل الموت مزيجاً مدهشاً من الغرابة والتناقض والعجائبية. في الموت تبرز الشخصانية والفردية؛ فالموت فردي، فلا يوجد موت بالوكالة والنيابة، ويعاني الموت كل إنسان على حدة، ويدخل محنة الفناء مندثراً وحيداً لا يشاركه فيها أحب الناس إليه حتى ولو حاولت الزوجة حرق نفسها أو دفن نفسها معه، فالموت ذو اتجاه واحد فلا رجعة منه ولا مخبر بما حدث:

تفانوا جميعاً فلا مخبر ... وماتوا جميعاً وهذا الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى ... وتمحو محاسن تلك الصور
فياسائلي عن أناس مضوا ... أليس لك فيمن مضى معتبر

فهو باب يفتح فيمتص ويشفط الكائن مثل الثقب الأسود باتجاهه ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٥٠].

وأعظم ديموقراطية تتحقق على وجه هذه الأرض هي ديموقراطية الموت، حيث تذوب الفروق تماماً، فالموت لا يحابي ولا يرتشي ولا يشفع ولا يفرق بين الجنسين، فهو ديموقرطي صارم إلى أبعد الحدود. وعندما ترتفع الأضرحة والنصب والتماثيل لشخص ما فإن هذا لا يغير في واقعه، أنه يعاني ويذوب ويتفسخ ويتحلل مثل أي صعلوك آخر، ومن هنا تسطع حقيقة إيجابية رائعة للموت، فمع موت الجبارين تتنفس الأرض وترتاح:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم ... فأودعوا حفراً يابئسما نزلوا
ناداهم صارخ بعدما قبروا ... أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمة ... من دونها تضرب الأستار والكلل

فأفصح القبر عنهم حين سائلهم تلك الوجوه عليها الدود يقتتل[1]

ومع موت الصالحين تبكي الأرض والسماء عليهم. جاء في الحديث الصحيح (مستريح ومستراح منه. قالوا: **يا رسول الله، ما المستريح وما المستراح منه؟!** قال: **العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله ﷻ. والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب)**[2].

الموت: السر الأكبر في الحياة:

الحديث عن الموت مزعج وكريه وحافل بالتناقضات، ولكنه مع كل دافع الهرب منه في الشعور أو التفكير؛ قدر مطوق لكل البشر، بل لكل أنواع الحياة، فأوراق الشجرة تتهاوى، والنبات يذبل، والعشب يجف، والطير والحيوان يضمر ويستسلم، والإنسان ينهار في لحظة واحدة إلى الصفر، في ظل مأساة مروعة، يقف فيها المرء مذهولاً مندهشاً محتاراً في التفسير، لا تصدق عيناه أن هذا الإنسان المليء بالحيوية والنشاط، الذي يضج بالتعبير والأفكار، المشحون بالآمال والرغبات والأهداف والبرامج والعمل، الذي يشع بالأنس والوجود؛ قد تم اجتياحه وبشكل كامل ومطلق، يطوقه جبروت السلبية الكامل، وظل الفناء، وعالم الاندثار والتحلل والتعفن، ليرجع إلى العدم من حيث خرج منه.

---

(١) تنسب هذه الأبيات إلى واقعة حدثت في عهد المتوكل حينما اقتحم الجند منزل رجل من آل البيت بدعوى أنه يجمع السلاح؛ فرأوه قائماً يصلي في جوف البيت؛ فحملوه إلى دار الخلافة، وكان الخليفة في مجلس أُنس وطَرَب وشراب، فدعاه إلى الشراب فاستعفى، فقال له: أنشدني، فأنشده هذه الأبيات في قصيدة أطول، فبكى الخليفة وأمر برفع الشراب وصرفه بدون أذى. يراجع في هذا كتاب أحمد أمين (ضحى الإسلام) العصر العباسي.

(٢) مروي في الصحيحين، يراجع في هذا كتاب زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم للشنقيطي.

نحن نأتي إلى الحياة بغير رغبة وإرادة ووعي منا، من عمق الظلام ومن حيث لا ندري من العدم، كذلك نودع الحياة بغير رغبة منا ولكن تحت منظر الوعي الكامل، المفعم بالمعاناة والألم، على الأقل لمن حول الإنسان ممن يحبه، لنرجع إلى جوف العدم الذي سُحبنا منه.

أسئلة محيرة في معنى الموت وجدلية الموت والحياة:

إن الفلسفة تجنّبت الحديث عن الموت، وفضّلت الحديث عن الحياة، فالحياة وجود وحضور، وينفع فيها التأمل والكلام، والموت عدم، والعدم ليس فيه فضاء للكلام، فالعدم يعني العدم والسلبية الكاملتين لا أكثر ولا أقل؛ ولكن ضغط الموت الساحق، والانهيار المريع للوجود الإنساني المطلق؛ يولد في الواقع كل الفلسفة.

فما معنى الموت؟؟ ولماذا كان الموت؟؟ ولماذا نخاف من الموت؟؟ وماذا خلف الموت؟؟ ومتى تَوَلَّد وعي الموت عند الإنسان؟؟ بل لماذا جئنا بالأصل من العدم، ليدفع بنا الموت في النهاية إلى عالم الأبدية واللانهاية؟؟ فالذي يموت لن نراه مطلقاً، فهو ليس مسافراً سيعود، ولا غائباً فيظهر، كل ما تبقى منه ذكرياته وبقايا صوره المادية الميتة!! كيف نفهم جدلية الموت والحياة؟؟ وهل أصل الوجود يقوم على الموت أو الحياة؟؟ وكيف نرى صورة الموت في الحياة، والحياة في الموت؟؟ وكيف يتجلى التناقض المدهش والمحير بين سحق الطبيعة للفرد، بدون أي رحمة وبين المحافظة على النوع الإنساني بكل إصرار، على حد تعبير الفيلسوف شوبنهاور (SCHOEPPENHAUER)؟ وتدخل الغريزة الجنسية في هذه اللعبة كأداة مسخرة، تضحك فيها الطبيعة على الإنسان، بإغراء ملح لا يعرف التوقف، من أجل المحافظة على دفعات الإنجاب؛ فمع ظلال الموت الكئيبة، تنكفئ النفس إلى الخلف والسلبية، وتزول البهجة وتتوقف دوافع الحياة الأصلية،

وتستسلم النفس إلى كل مشاعر الإحباط والقنوط والشعور بعبثية الحياة.

الفلسفة الوجودية والعبثية:

إن الفلسفة الوجودية رأت في الموت عبثية الحياة، فما فائدة كل زخم الحياة، وروعة عبقرية الإنسان المتألقة؛ إذا كانت نهايته كعشب جاف وحيوان أعجم؟! ويبقى كل تأمل في ظاهرة الموت حسير عاجز، فهناك شيئان لا يمكن التحديق فيهما: الشمس والموت.

لقد عبّر الفيلسوف البريطاني (برتراند راسل) عن هذا الشعور بكلمات مغموسة بالألم والقنوط فقال: «وَلأن تعجز أي حماسة مشبوبة أو بطولة أو أي حدة في التفكير أو الشعور عن الإبقاء على حياة فرد واحد فيما وراء القبر، وَلأن يكون الاندثار هو المصير المحتوم لكل عناء الأجيال ولكل التفاني ولكل عبقرية الإنسان المتألقة تألق الشمس في رابعة النهار، كل هذه الأمور إن لم تكن حقاً غير قابلة للجدل فإنها مع ذلك تقترب من اليقين إلى حد يستحيل معه على أي فلسفة ترفضه أن يُكتب لها البقاء، وعلى ذلك لا يُمكن بناء موطن الروح بأمان إلا في إطار هذه الحقائق وعلى أساس راسخ من القنوط المقيم»[1].

أسباب الخوف من الموت؟

ولكن لماذا يخاف الإنسان من الموت؟ هل هذا الأمر طبيعي وهناك ما يبرره؟

لقد انكب علم النفس على هذه الظاهرة فحصرها في أربع مخاوف رئيسية، وأمكن استخراج أربعة أبعاد مستقلة لقلق الموت هي: ١ ـ الخوف من

(١) كتاب العلم في منظوره الجديد، سلسلة عالم المعرفة رقم ١٣٤، تأليف روبرت أغروس وجورج ستانسيو، ترجمة محمد الخلايلي، ص١٦.

المجهول. ٢ ـ الخوف من المعاناة. ٣ ـ الخوف من الوحدة. ٤ ـ الخوف من التلاشي الشخصي، واختصر هذه المخاوف الفيلسوف الإسلامي ابن مسكويه في كتابه تهذيب الأعراق وتطهير الأخلاق في فقرة متألقة على النحو التالي:

خلاصة مخاوف الموت عند ابن مسكويه:

يعد الموت أعظم غموض وأكبر سر يواجه الإنسان، وبديهي أن يصاب الإنسان حياله بضرب خفي من القلب الممض الذي لا حل له؛ فذكر الفيلسوف (ابن مسكويه): (أن الخوف من الموت ليس يعرض إلا لمن لا يدري ما الموت على الحقيقة؟ أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه، بطلان عدم ودثور، وأن العالم سيبقى موجوداً وليس هو بموجود فيه، أو لأنه يظن أن للموت ألماً عظيماً غير ألم الأمراض التي ربما تقدمته وأدت إليه وكانت سبب حلوله، ولأنه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت، أو لأنه متحير لا يدري على أي شيء يقدم بعد الموت، أو لأنه يأسف على ما يخلفه من المال: وهذه كلها ظنون باطلة لا حقيقة لها. أما من جهل الموت ولم يدر ما هو على الحقيقة؛ فإنا نُبيّن له أن الموت ليس بشيء أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها وهي الأعضاء التي يسمى مجموعها بدناً، كما يترك الصانع استعمال آلاته، وأن النفس جوهر جسماني وليست عرضاً، وأنها غير قابلة للفساد»[(١)].

حديث موسى مع ملك الموت:

كراهية الموت هذه وعدم الترحيب بها وصلت إلى درجة أن نبي الله موسى لم يرحب بمَلَك الموت، بل وَجّه إليه صفعة أطارت عينه، مما جعل مَلَك الموت يرجع إلى ربه ليقول: أي رب أرسلتني إلى عبد لا يريد

---

(١) قلق الموت، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١١١، تأليف أحمد عبد الخالق، ص٢١٣، منقولة عن كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق.

الموت!! حسناً ماذا يريد إذاً؟ إذا كان يريد المزيد من فسحة العمر فلا بأس ولكن ليس للخلود في هذه الدنيا، فهذه الحياة مركبة على أساس الزوال والتغير والتحلل والفساد. ارجع إليه فقل له: ليضع يده على متن ثور فله بكل شعرة سنة؟!! كان جواب موسى: ثم مه؟ أي ثم ماذا؟ أي ما الذي سيعقب رحلة العمر الطويلة الجديدة هل تحمل الخلود في تضاعيفها؟ أم في النهاية الموت والاندثار؟ كان جواب المَلَك واضحاً صاعقاً: ثم الموت!! فهو الجبروت الساحق الماحق!! قام موسى بما قام به علماء النفس في تحليل النفس الإنسانية وكيف تمر بخمس مراحل في صراعها تجاه الموت قبل الاستسلام إليه، فاستسلم فأجاب: فالآن!![1].

آليات النفس الخفية في مواجهة قبضة الموت:

بينت الباحثة (اليزابيث كوبلر روس) بدراسة مئات من المرضى المسنين على فراش الموت، فلاحظت انزلاقهم النفسي تجاه حلقة الموت التي تحكم قبضتها عليهم بالتدريج، في خمس حقول نفسية، تبدأ برفض الاعتراف بالحقيقة المزلزلة أنه في اتجاهه إلى الفناء النهائي، وتلاشي الشخصية وفساد البدن (الإنكار والعزلة) لتتطور بعد ذلك إلى الغضب وعدم الشعور بالعدالة، فلماذا تم اختياره هو بالذات؟ (حالة الغضب والسخط) فإذا تيقن أن لاوزر، بدأ مرحلة المساومة عسى أن يتحرر من القبضة الرهيبة للموت (مرحلة المساومة) لينهار بعدها في اتجاه الاكتئاب كمحاولة للتعبير عن الحزن والأسى للنفس (مرحلة الاكتئاب) ليختم النهاية بالاستسلام الكامل (القنوط)

---

(١) الحديث مروي في الصحيحين في كتاب زاد المسلم المصدر السابق ونصه أن ملك الموت عندما زار موسى ﷺ (صكه ففقأ عينه!! فرجع إلى ربه فقال: أي رب أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت؟! فقال: ارجع إليه فليضع يده على متن ثور فله بكل شعرة سنة. فقال: أي ثم مه؟ قال: الموت. قال: فالآن. فلو كنت ثَمَّ لأريتكم قبره بجنب الكثيب الأحمر.

وتنحية الأمل، عندما يشعر أن لا فائدة من أي مقاومة، فيتقبل حقيقة الموت بشكل هادئ، والتقبل الهادئ لا يعني السعادة بالموت، ولكنه يعني بكل بساطة أن لا فائدة من المقاومة، وأن الوقت آت للراحة الدائمة[1] ولكن في ظلمات الاندثار يبرز الدين كأكبر عزاء، وفي حديث موسى عليه السلام انعتاق ضخم من الاكتئاب والتمرد والحزن، والاستسلام بحب للإرادة الإلهية تجاه هذا التحدي الكوني، وتلمع أسماء فلاسفة في هذا السجل على نفس الاتجاه القرآني الذي يبني الإيمان على رفض القنوط وتنحية اليأس الوجودي ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

رأي الفيلسوف الرواقي (ابكتيتوس):

ذهب ابكتيتوس إلى أنه ليس هناك شر في الكون (كما أن العلامة لا تقاوم لكي نضل الطريق إليها، فكذلك ليس هناك شيء شرير بذاته في العالم.. هات ما تشاء وسأحوله إلى خير: المرض الموت العوز اللوم الكدح من أجل الحياة وستتحول تلك الأمور جميعاً بإشارة من عصا هرمز إلى مزايا[2] ما الذي ستصنع من الموت؟ أي شيء غير حلية تزدان بها، أي شيء غير إظهارك من خلال الفعل الذي يتبع إرادة الطبيعة. إن الأشياء كافة تخدم قانون الكون وتذعن له، وجسمنا بالمثل يذعن كذلك للقانون نفسه في حالات المرض والعافية والشباب والشيخوخة، وفي غمار مروره بكل

---

(١) الإنسان وعلم النفس، تأليف الدكتور عبد الستار إبراهيم، سلسلة عالم المعرفة رقم ٨٦، ص١٦٠، ١٦١.

(٢) حسب الأساطير اليونانية هرمز هو ابن زيوس وهو إله التجارة والحظ والمسابقات الرياضية ورسول الآلهة ومرافق الأرواح إلى عالم الموتى. الموت في الفكر الغربي، تأليف جاك شورون، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة وتقديم الدكتور إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة رقم ٧٦، ص٧٨.

التغيرات الأخرى المعلنة، ومن ثم فإنه من المعقول ألا يكون ما يعتمد على ذواتنا، أي فهمنا الخاص هو المتمرد الوحيد، ذلك أن الكون قوي ومتميز ويقدم لنا الأفضل من خلال حكمه لنا في اتحاد مع الكل، أضف إلى ذلك أن المعارضة فضلاً عن كونها غير معقولة ولا تقدم شيئاً إلا صراعاً لا طائل وراءه تلقي بنا في غمار الألم والحزن).

ويجعل ابكتيتوس المسألة ليست في تحقيق اللامبالاة بل توليد روح الهدوء والسكينة الداخليتين (ويمكن تحقيق هذا الهدوء وتلك السكينة من خلال الاستخدام الصحيح للانطباعات، الأمر الذي يتضمن تمييزاً دقيقاً بين الأمور الواقعة في نطاق قدرتنا وتلك التي لا تقع في هذا النطاق، وتلك مهمة الفلسفة التي تغدو مجردة من القيمة إذا ما كانت تأملاً نظرياً محضاً، منبت الصلة وغير قابل للتطبيق على شؤون الحياة)[1].

ويبدو أن خوف الإنسان من الموت هو أشد من ظاهرة الموت بحد ذاتها حسب ابكتيتوس (ليس الموت شيئاً مفزعاً وإلا لبدا كذلك لسقراط، لكن الفزع يكمن في مفهومنا عن الموت، أي أن هذا المفهوم هو المفزع، فليس الموت أو الألم هو الشيء المخيف وإنما خشية الألم أو الموت) ولكن هل يجدي الفرار من الموت شيئاً (أسألكم أين يمكنني الهرب من الموت؟ حدّدوا لي المكان؟ أشيروا إلى الناس الذين يتعين أن أمضي بينهم، والذين لا ينقض عليهم الموت؟! حددوا لي رقية تحجبه؟ إذا لم يكن لدي شيء من هذا فما الذي تريدون مني أن أصنعه؟ ليس بمقدوري الهرب من الموت: ألا ألوذ بالهرب من خشيته؟ أتراني أموت في خوف وقد أخذتني الرعدة).

وينظر إلى الحياة أنها هبة من الله ودورنا في هذه الحياة لا يتجاوزو

---

(١) نفس المصدر السابق، ص٧٧.

الممثلين في المسرح وعندما تنتهي أدوارنا يجب أن نودع شاكرين الله الجليل الذي منحنا فرصة الوجود كما ينصرف المدعوون عند انتهاء المأدبة (إن على المرء أن يفكر في الحياة باعتبارها شيئاً أعارنا الله إياه للاستخدام المؤقت فحسب، وهي تشبه في هذا مأدبة يحتل المرء فيها مكانه المتواضع، وحينما يُقبل الموت فإن علينا أن نُسلم أنفسنا لقدرنا وأن نقوم حتى النهاية بالدور الذي عهد الله لنا به كأفضل ما نستطيع، علينا أن نغادر مأدبة الحياة في هدوء ولباقة معربين عن شُكرنا لله لدعوته لنا للمشاركة فيها والإعجاب بأعماله)[1].

ولكن متى نشعر بالحزن في الموت تماماً؟

نظرية لاندسبيرج وقصة جلجميش:

إن الوعي بضرورة الموت لا يستيقظ إلا من خلال المشاركة، ومن خلال الحب الشخصي الذي تصطبغ به هذه التجربة تماماً، لقد شكلناه، (نحن) ذاتاً مشتركة مع الشخص المحتضر، ومن خلال تلك (الذات المشتركة) ومن خلال القوة النوعية الخاصة لهذا الكيان الجديد والشخصي تماماً نسير نحو الوعي الحي بأننا لا بد أن نموت).

ولقد تم اكتشاف حتمية الموت في أقدم الوثائق المعروفة لنا حول الموت من خلال مثل هذه المشاركة في موت صديق نحبه في ملحمة جلجميش[2].

(١) نفس المصدر السابق، ص٧٩.

(٢) جلجميش ملك أوروك، كان طاغياً أسرف على الناس بقسوته حتى دعا الناس الآلهة لإنقاذهم فأرسلت الآلهة انكيدو الذي صارعه بشدة ثم تحولا إلى صديقين، ثم غضبت الآلهة على انكيدو فحكمته بالموت، وعندما رأى جلجميش صديقه يذوب في الموت بكاه بحرقة لأنه أدرك وعي الموت تماماً مع موت صديقه.

إلى أين مضيت يا صديقي أبو طه؟؟

في هدوء مقبرة صغيرة في حي الميدان في دمشق وقعت عيني على أبيات قصيرة من الشعر:

دفـن الـجـسـم بـالـثـرى   لـيـس بـالـجـسـم مـنـتـفـع
إنـمـا الـنـفـع بـالـذي   كـان بـالـجـسـم وارتـفـع
أصـلـه جـوهـر نـفـيـس   وإلـى أصـلـه قـد رجـع

الحياة أقوى من الموت.. والحياة أصل الوجود لأنها تتغذى من الحي الذي لا يموت.. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾... والحياة تتدفق وتستمر في أشكال لانهائية، سواء أدركناها أو غابت عنا فهي تعمل وفق قانونها الخاص.

القواعد العشرون

فهذه قواعد حرصتُ على استخلاصها من تجارب الحياة وصروف الدهر وتقلبات الأيام، قد يكون بعضها خيالي ولكن الأيام علمتني أنها واقعية أكثر مما نتصور، قد تكون بعض أحكامها قاسية ولكنها الحياة بين الليونة والصرامة.

تأملها واقرأ ما تحت السطور كما يقول المفكر اللبناني علي حرب (قوة كل نص هي في حجبه لا في إفصاحه وبيانه.. من هنا يقوم التعامل مع النص على كشف المحجوب.. وكلما ازدادت الحجب ازداد إمكان الكشف وتنوعت احتمالات القراءة). نقل لنا التاريخ أن كل مصلح أو مفكر أو فيلسوف بدأت تتكشف أمامه مع الوقت بنى فكرية ومعالم على الطريق، يسكبها في عبارات من خبرة الحياة، وهكذا نقلت لنا الوصايا العشر لموسى والطريق الثماني لبوذا وأعمدة الحكمة للورانس والتعاليم للبنا.

ليست هذه الأفكار عشرين على وجه الدقة بل تزيد، وما زالت تزداد مع خبرة الأيام وفي جو المعاناة. كل فقرة مما وردت أنصح قارئي بتأملها جيداً، والغطس لقاع النص في محاولة للإمساك بقانونه، والبدء بتطبيقه على أرض الواقع حتى يتحول مع الوقت إلى مفاهيم مهضومة مستساغة معبأة في اللاوعي. اللاوعي هو الذي يتحكم بمعظم تصرفاتنا ويمثل البنية الضخمة لجبل الجليد الغاطس في الماء البارد، ولا يطل الوعي كرأس جبل إلا في خمسة بالمائة فقط منه.

هذه القواعد هي كم تراكم في مدى خمس عشرة عاماً وبعضها يعود

إلى ثلاثين عاماً، سجلته في كراسة مستقلة حسب التجلي والمعاناة ووضوح الفكرة. عندي من المذكرات والدفاتر ما أسجل فيه اليوميات والخواطر منذ ما يزيد على الربع قرن، وأنصح قارئي باعتماد هذه العادة الجيدة، وأنصحه بشكل ملح أكثر أن يسجل ذكرياته وأفكاره عن كل وسط جديد يدخله، أو عالم يتعرف عليه، أو كتاب يثيره وتحز أسطره في قلبه، أن يسجله قبل أن يفترسه غول النسيان أو تقتاته تفاهة الروتين. حاول أن تأخذ القانون وتخط تحته سطراً أما الشرح فيمكن قراءته مستقلاً عن القانون الأساسي:

١ ـ **لا يوجد مشكلة بدون حل**.. المشكلة عادة ليست فيها؛ بل بالأحرى بموقفنا منها.

٢ ـ كَرّس قاعدة الفيلسوف «ابكتيتوس»: **ليس هناك شر مطلق في العالم الذي نعيش فيه**، فالكون لا يقوم على الثنائية أبيض وأسود، شر وخير، بل على الوجود الطيفي.

تذكر القرآن في سورة النور عن قصة الإفك: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. أي شيء يحدث خاصة ما يخيل إلينا أنه شر وسيء يجب أن نتأمله بصورة جديدة لاكتشاف الخير والإيجابية فيه.

هذا القانون ترسخ عندي بمذاق يصعب نقله عبر الكلمات. قليل من الشر في العالم ضروري كملح الطعام. ما يهيء لنا أنه شر قد لا يكون كذلك وفيه كل الخير ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾. يجب أن نتدرب على الصبر تجاه عاديات الأيام حتى نكتشف الحكمة من ثناياها. كل شيء يحدث معي الآن أراه في إضاءة هذا الفيلسوف الذي يراهن البعض على أنه لقمان الحكيم.

٣ ـ **النطق بلا مسؤولية**:

هكذا لاحظت في بيئتنا وسببه عدم تنظيم العقل وعدم التعود على

الدقة؛ فالكلام هواء خرج من حيث خرج!! التصويت ليس هواء يخرج بل اعتصاراً للأفكار تحملها أمواج الفيزياء.

٤ ـ لا تستبد بك اللحظة:

في الوقت العصيب واللحظات الصعبة تذكر: إنها ليست نهاية العالم.. فهناك دوماً ما قبلها وما بعدها.

٥ ـ اعتمد قاعدة: مجتمع مضخة الماء:

وتذكر قانون الدفش المتتابع في المعاملات الرسمية، فأنت تعيش في العالم العربي في أشباح مجتمعات.. لذا اعتمد بناء العلاقات الشخصية والتلفون الخاص.. لأن التلفون لا يؤدي خدمة عامة، بل هو للإزعاج والمعاكسة.

٦ ـ يُعرف دِين الإنسان من دَينه، وصموده في التعامل المالي وليس العكس:

فعمق التقوى من النزاهة المالية أكثر من شيء آخر. كان عمر ﷺ في غاية الحكمة حينما أراد تعريف الإنسان هل سافرت معه؟ هل عاملته بالدرهم والدينار؟ أم رأيته يهمهم ويدمدم في المسجد!! عند منح الدَّين يجب اعتباره غير مردود، فإذا رجع بعد سنوات فهو غير طبيعي، لأن الطبيعي أن لا يعود ويؤكل، واسأل حسرات المعذبين وزفرات المعانين تعطيك الخبر اليقين، ويزداد هذا بشكل طردي مع اقتراب السلسلة العائلية، فكلما كان المستدين أقرب، أكل مالك أكثر، ويجب عدم نسيان قاعدة جحا في الدَّين بين تقبيل اليد والرجل.

٧ ـ كل إنسان قابل للبيع والشراء إلا المتقين، وقليل ما هم:

وحتى تعرف تسعيرة إنسان ما فخلّ بينه وبين كمية من المال تزيد

وتنقص بدون رقيب إلا الضمير. مع العلم أن ثمن الإنسان لا نهائي، على قاعدة أن ثمن أي شيء يعادل ساعات العمل المبذولة فيه، وشعرة تسقط من رأس الإنسان، تعجز عنها كل ساعات العمل في مصانع العالم أجمعين.

٨ ـ في مواجهة أي مشكلة تعوَّد أن لا تلوم أحداً:

إذا كنت جاداً في اللوم فتوجه به إلى نفسك فقط، لأنها مجال التغيير، ومنها يمكن تغيير العالم.

٩ ـ أن نزهد في (الممكن) ونحلم في (المستحيل) يجعلنا عملياً في إجازة مفتوحة:

بإلغاء آلية الجهد، في حين أن استخدام الممكن يقرب فجوة التباعد من المستحيل.

١٠ ـ الكلمة ملك لك قبل أن تنطقها، فإذا تكلمتها ملكتك هي:

فاحرص على إطفاء الغضب والانفعال، لأنها هي الطوفان المفجر لسدود الكلمات، واعلم أن أعظم قوة يصل إليها الإنسان هي ضبطه لنفسه، أكدته تجربة الأيام وحكمة الصالحين، ونتيجته دوماً عافية وخير.

١١ ـ لا تشتري ما لست في حاجة إليه، لأنك ستبيع غداً ما أنت في حاجة له!!

١٢ ـ تمسك بقانون (لا أزهد) و(لا أرغب) في التعامل مع الأشياء والأشخاص والوظيفة والعمل والأحداث.

عش في علاقاتك في حالة وسط بين الزهد والرغبة، فلا تذهب نفسك حسرات على فوات شيء، ولا تطير فرحاً من تحصيل أي شيء ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ فهي الوسط الذهبي الأخلاقي ولا تبني أو تعلق توقعات ضخمة على أشياء بعينها، فالحياة أعقد وأفسح

مما يتصور الإنسان، وعند خسارة أي شيء يجب الثقة بالتعويض بشيء أفضل، ولعل أقلها ترسيخ قيمة هذا الاتزان النفسي.

١٣ ـ نحن نعيش في عالم سحري فكل شيء ممنوع، وكل شيء مسموح، وكل شيء ضبابي، كل شيء مباح وحرام بنفس الوقت في جدلية غير قابلة للتفسير.

والمستقبل بيد العفاريت من كل أصناف الجن الأزرق والأحمر، فإذا قفز الكرسي من الأرض إلى الأعلى، ضد قوانين الجاذبية فلا تتعجب؟!!.

١٤ ـ ما الفرق بين الأعمى والبصير؟؟ البصير يرى الجدار فلا يصطدم به، والأعمى لا يرى الجدار فيصطدم به!!

وكذلك المجتمعات العمياء فلا تحس بالمشاكل إلا حين الاصطدام بها؟!! وعند ذلك يكون البكاء وصرير الأسنان ونتف الشعر وسيطرة الرعب ولوم القدر.

١٥ ـ العالم العربي في حالة مرض قريبة لا يُستبعد أن تكون حالة سرطان:

تشخيص هذا يرجع إلى علماء الاجتماع، فلا ضمانة لأي شيء أو إنسان في أي مكان أو زمان، وبينه وبين الديموقراطية سبعين خريفاً.

١٦ ـ حتى نعرف وضع المجتمع ومكانه من التخلف فهناك (مؤشرات قوية) وكواشف نوعية و(مشعرات INDEX) تدل على الوسط:

علينا أن نخاطبها لنعرف مكاننا على الجدول في عشرة أسئلة ضخمة فهل الأصل في الأشياء الحرمة؟؟ هل الأساس في الإنسان الإدانة وعدم الثقة في أزمة مستحكمة؟؟ هل الأصل في العقل الجهل والخوف من التفكير؟؟ هل التعامل مع المكان في عدم البيان؟؟ هل الأساس في التعامل

مع الوقت هو الإضاعة والهدر؟؟ هل في الأصوات القباحة ورفع الصوت ونكره والصخب يستولي على الساحة عندما يلتقي الناس؟؟ ما هي مؤشرات اللباس والأناقة هل تحكمها في اللباس القذارة؟؟ لا نريد الثوب الجديد بل النظيف!! ما هو وضع المرأة هل نتعامل معها على أساس الدونية والإهانة؟؟ كيف تجري المخاطبة وهل محورها عدم الاحترام؟؟ وفي المشي الزحام وخبط الآخرين؟؟ وفي قيادة السيارات عدم الذوق وعدم وضع اعتبار للآخرين؟؟ وفي التعامل مع الآخرين آلية الإعدام والإلغاء المتبادل؟؟

١٧ ـ لا تتطوع بنقل الأخبار السيئة والحزينة والمنفرة والمقبضة ما لم يكن فيها إنقاذ نفس أو دفع خطر عظيم:

إذا شكل المنعكس الشرطي الإيجابي بحيث يكون ظهورك مقترناً بخبر مفرح وفكرة جيدة وريح طيبة وخلق سامي.

١٨ ـ احرص على حمام يومي ولو لثوان، وريح طيبة ولو رخيصة، وثوب نظيف ولو كان قديماً:

فليس العيب أن تلبس قديماً بل قذراً، وليس العيب أن تكون جاهلاً ولكن ألّا تتعلم، فالله خلق الناس جميعاً من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً.

١٩ ـ إذا شرحت فكرتك عشرين مرة وظننت أنه فهم عليك فأنت جداً متفاءل؛ لأن العقل يعمل على آلية عجيبة، فهو يكرس ما عنده أكثر من تغيير ما عنده.

٢٠ ـ النفس رهيبة وعندها قدرة تملص عجيبة من الواجب، وتعمل بحيث لا يفطن لها نفس صاحبها إلا بجهاد كبير، ولا يقوم أو يصل إلى تطويع النفس إلا من كان ذو حظ عظيم من الصبر والوعي والتدريب المكثف اليومي.

٢١ ـ في مواجهة أي مشكلة درب نفسك على أسوأ الاحتمالات بما فيها الموت:

فكل ما عدا ذلك سيكون دون هذا التوقع، وفي العادة يلعب المزاج والوساطة والمفاجآت السلبية الدور الكبير في مصير الأحداث، فنحن على ما يبدو نعيش دون إحداثيات في الزمان والمكان، وخارج الجغرافيا والتاريخ، مثل القطار الذي تعرض لنكبة رهيبة، فسقط من القضبان إلى الرمال، فركابه بين مقتول ومصاب، أو من استفاق من الكارثة فهو يحاول استيعاب إعصار الحداثة وصدمة الاستعمار والخروج عن قضبان خط التاريخ، فيحاول إفهام من حوله حجم الكارثة وهل هناك من سبيل للخروج منها؟

٢٢ ـ لا تربط نفسك بمن حولك، فالمسؤولية يوم القيامة فردية، وكسب الإنسان مما عملت يداه:

وعندنا تتضاءل قيمة الوقت والإنسان والفكر؛ لذا تعود على حمل المعرفة معك في صورة كتاب أو بحث أو شريط صوتي حيثما ذهبت وراجعت، حتى في قبض الشيك في البنك، لأن القاعدة أنك ستضيع الكثير من الوقت حيثما توجهت، فلا تربط مصيرك بمن حولك ممن هم خارج التاريخ والجغرافيا وإحداثيات الزمان والمكان.

٢٣ ـ الكون يقوم على قاعدة التغيّر وعدم الدوام فهي الحقيقة الأولى، وكل شيء في هذا الوجود من حيوان الخلد إلى الجبل، ومن الفكرة إلى الإمبراطورية، ومن الإنسان إلى الحضارة، يمر من خلال دورة الوجود ذاتها أعني النمو والانحلال ثم الموت، والحياة وحدها هي الشيء المستمر، وهي دائماً تسعى إلى الإفصاح عن نفسها في صورة جديدة، والحياة جسر، والجسر هو للعبور وليس لبناء بيت فوقه، والحياة عملية من عمليات التدفق

والجريان، فمن يتعلق بأية صورة من الصور الزائلة مهما تكن جمال هذه الصورة، فسوف يقاسي نتيجة مقاومة هذا التدفق والجريان.

٢٤ ـ ليس أعظم من مفاهيم السلام، فالله هو السلام، وهو يدعو إلى دار السلام، وتحية أهل الجنة السلام:

احرص أن تتشرب مفاهيم السلام مع كل نسمة وعبر كل لحظة. إذا أصبحت جندياً سلامياً تصبح غير قابل للاختراق (INVINCIBLE) تتحرر من الخوف وتتخلص من الحزن وتشع منك السعادة والاتزان الخلقي والأدبي. وفي الأزمات يجب أن تبني عندك الاستعداد أن تموت ولا تقتل أي إنسان تحت أي شعار أو مقولة أو إكراه.

٢٥ ـ مع كل غروب شمس اسأل نفسك وبدون ملل: هل ازددتُ علماً:

يقربني إلى الله تعالى؟ ويفتح أمامي المطلق؟ ويقربني من فهم العلاقات الخفية؟ ويعمرني بالاطمئنان؟ ويطهرني من الانحراف والزلل؟ ويحررني من الغضب والانفعال والشهوة والحزن والحرص؟ هل يغمرني بالسعادة الشاملة التي لا تغور ولا تزول ولا يعتريها الصدأ والنقصان؟ هل أنا أمشي في طريق الشيخوخة والضعف والتآكل والزوال والتوقيت؟ أم في درب الكمال والتكامل؟ هل أنا أتطهر كل يوم وألتمع أم أتلوث وأنطفئ؟ هل أنا أتماسك وأنمو أم أنحل وأتفانى؟ هل أنا سراج منير وقوده داخله؟ أم طين لازب وحمأ مسنون وكفى؟ هل سأمتزج بالتراب أم ألتحق بالسماء؟ هل أنا كيان صغير محقق أم قصتي لا تزيد عن حلقة دخان؟

موقفنا من المشاكل
(سبعة قوانين في بذل الجهد)

عندما فاجأ نابليون فرسان المماليك عند سفح الأهرام كانت مصر كما تركها الفرعون بيبي الثاني قبل ألفي سنة، كأنها ظل الهرم الخالد، وبين عامي ١٧٩٨ و١٩٩٨ بعد مرور قرنين يبدو أن العالم العربي يراوح مكانه، لم يخرج بعد من عنق الزجاجة، التي جاءت عن وصف الذبابة عند الفيلسوف (فتجنشتاين WITTGENSTEIN) فما زالت تطن في الفضاء المحبوس.

وضعنا يدعو إلى اليأس ولا فائدة من بذل أي جهد، ووضع العالم العربي ميؤوس منه، والتربة العربية عقيمة، وكل جهد محروث فيها نقش على سطح الماء، وحراثة في البحر، في مجتمع مكتوب عليه وأهله أن يمشوا إلى الوراء، في حالة تفسخ لا نهاية لها في الأفق. هل هناك من فائدة من مريض السرطان؟

أنا غير متفاءل وغير متشاءم؛ بل هو واقع موضوعي، والعالم العربي منذ الخمسينات حتى اليوم في حالة تدهور.

بذور الديموقراطية وحرية الصحافة والتعددية الحزبية أجهضت، وفكرة الوحدة العربية تم دفنها بعاصفة صحراوية، وريح صرصر عاتية، على ساحل الخليج. هل تنفع حبة أسبرين لمريض مصاب بالسرطان؟

هذا الكلام لم أقله أنا؛ فعندي تنظير مختلف، كما لم يقله رجل

الشارع البسيط، بل أسمعه أحيانا من رجال مهمين في الفكر والقلم، في شهادة صاعقة عن الإحباط واليأس الذي يتخندق فيه الفكر العربي، على الأقل في شريحة منه.

علاقة السلطة بالمثقف:

يجب أن نقرر في ثلاثية هامة أن وضع المجتمع العربي مريض، وهذا المرض ثقافي قبل أن يكون سياسياً، والسياسي هو حفيد المثقف، وإصلاح أمور العالم العربي لن تأتي عن طريق الإطاحة بالحكومات، بما فيها أشرس حكومات العالم العربي؛ بل وفق المبدأ القرآني بـ(تغيير ما بالنفوس)، ويجب أن لا نفرح باغتيال أو قتل أي حاكم، فالمشاعر تنقلب على نفسها، وأفكار الاغتيال تغتال نفسها، فالتغيير العنيف لن يغير الأمور إلا إلى العنف، والتغيير السلمي هو الذي يولد الأحداث في المنحى السليم.

هذا المرض ليس جديداً بل مزمن يعس في مفاصل الثقافة العربية عبر القرون، مثل الروماتزم المعند الميبس المؤلم، وهذه الثقافة كتبت وتشكلت في ظروف مشبوهة، وأمام أي مشكلة فكرية علينا أن نقوم بحفريات (أركيولوجية) فكرية لنبش طبقات الأرض الثقافية.

الحقل المغناطيسي النفسي:

لا يمكن للإنسان أن يتحرك إلا في ساحة مغناطيسية بين قطبين من الشعور من (الأمل) و(اليأس). هذا الحق يتسم بالدينامية أكثر كلما اشتد تنافر القطبين وشحنة امتلائها. معنى هذا أن الفكر يولد الشعور، وهذا يهيج الحركة.

يرى عالم النفس البريطاني (هادفيلد) أن (المنبه المناسب) لتنشيط الإرادة هو مقدار التشكل في (المثل الأعلى). من يخاف يتحرك فيهرب،

ومن يطمع يهجم فيتحرك. كلا المنخسين أو الشعورين إذا سيطرا على الإنسان يدفعانه للحركة. أعظم طاقة تشحن عزم الحركة التي تأخذ قوة شد من جهة، وقوة دفع من الجهة المقابلة. الدفع يحرك إلى الأمام والشد يسحب باتجاهه؛ فتتضافر كلا القوتين على نفس مسار الحركة. اجتماع القوتين يضع ـ كما في علم ميكانيكا النفس ـ الكتلة النفسية على مسار الحركة بعزم ممتاز واتجاه لا يخيب.

هل يمكن شن هذين القطبين (POLARIZATION) من خلال تهييج الطاقة الفكرية فيهما؛ فيدفعا ويشدا الإنسان في اتجاه الحركة، من خلال حقل الحركة بينهما؟

قطبا اليأس والأمن:

حذر القرآن من الاستسلام لهذين الشعورين المَرَضيين، بل السباحة بينهما في حقل نفسي مغناطيسي حركي. اليأس في مصطلحات القرآن رديف الكفر ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، والقنوط أخو الضلال ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، كما حذر القرآن من الاستسلام للشعور المخدر اللذيذ للأمن، في الليل مع النوم، وفي الضحى مع اللعب ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ إن الله ليس غادراً ولا مكاراً، ولكن الاستسلام والارتخاء يعملان ضد قوانين الطبيعة، التي لا تعفو عن الكسالى والحمقى ولا المغفلين.

الوقوع في مطب وحقل هذين الحقلين والاستسلام لكامل شحنتهما مؤذي، والحركة والسباحة تحت ضغط مزيج متوازن من الشعورين مفيد إلى أبعد الحدود، هذا المزيج والعصارة من هذين اللونين يعطي ترياقاً ممتازاً ضد لدغات ثعابين الزمن.

نموذج تطبيقي لقانون حركة النفس في حقل بين قطبين:

إذا تمت مطاردة إنسان من مجموعة تسعى لإيذائه يهرب منها خوف الخطر ولكنه إذا أيقن بعدم جدوى الركض، عندما تتقارب المسافة بينهما، دخل قطب (اليأس) النفسي فتوقفت حركته، كما أنه إذا ابتعد كفاية، أو قفز إلى مركب ما يؤمنه شر المطاردة؛ توقف عن الحركة لأنه دخل قطب (الأمل) والشعور بالأمان والنجاة.

مع دخول قطب اليأس يستولي على الإنسان مزيج مختلط من مشاعر الإحباط والحزن والعدوانية والتفكير بالانتقام، ومع دخول قطب الأمل يضحك ويتندر ويسخر من بلاهة خصومه وغباءهم في تسجيل خفي غير مباشر لذكائه؟

القرآن ينبه على التحرر من هذين الشعورين الإمراضيين ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾. جرعة التوازن مهمة للتعامل مع الحياة.. النفس تعيش في حالة مخطط بياني لا يكف عن الحركة. هبوط النفس إلى الصفر ضار للغاية، كما أن قفزها في لحظة لاحقة إلى القمة انتحار. حركة القلب ومخططه الكهربي إذا وصل إلى الصفر توقف عن الحركة بحالة استرخاء، كما إنه إذا تقلص للمدى الأعظم توقف بحالة انقباض. الأطباء يحذرون للغاية من هذين التظاهرين. وفي الجسم يقوم كل من (البوتاسيوم) و(الكلس) بهذين الأثرين إذا تصرفا بحماقة من هذا النوع؛ فإذا ازدادت جرعة البوتاسيوم إلى الحد الحرج توقف القلب بحالة الاسترخاء، والعكس في كثافة جرعة الكالسيوم فينقبض بدون فكاك.

جرعة التوازن بين شعور الامتلاء الفارغ، أو الإحباط المقيم، يبنى بالفكر، والاستحضار الدائم والشحذ المستمر لآليات الوعي، واستنفار النفس للمواجهة ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾.

من أجل تحرير الجهد لا بد من تهييج هذا الحقل المغناطيسي الحركي بمجموعة من سبعة أفكار.

القانون الأول (فكرة القانون أو السنة):

المشاكل لها حلول قطعاً. يجب أن نفترض أن كل مشكلة لها حل، سواء انكشف لنا سرها أو غاب؛ فالمشكلة ليست في ذاتها بل في موقفنا منها.

أهمية هذا القانون هو استنفار الجهد لمعرفة قانون حدوث الأشياء. الكون يقوم على (السنة أو القانون) ويمتاز القانون بأنه قابل للفهم. وفهمنا للقانون يمنحنا السيطرة عليه، وفهمه أو (تسخيره) والتي تعني الخدمة المجانية، لا علاقة لها ببطاقة (تعريف) الإنسان، من جنس ولون، أو عرق ولغة، أو ثقافة ودين، أو طبقة وعائلة، أو حزب وشريحة. القانون مثل مغارة علي بابا سرها في كلمة افتح يا سمسم، من انكشف غطاء القانون أمام عينيه تسخر له، هكذا ارتفعت أمم وهوت أخرى بموجب هذا القانون. الأمم التي ظنت أن التاريخ سُجِّل كممتلكات لها، أو أنها خارج القانون، ثبت أنها وقعت في خطأ قاتل، من لا يعترف بهذه الحقيقة يدفع الثمن مضاعفاً هو وذريته؛ حتى يعترفوا ويتوبوا ويصححوا أخطاءهم. التاريخ لا يحابي أحداً، ولا يتقدم فيه إلا من كان دؤوباً متواضعاً صبوراً ذا حظ عظيم، وكما يقول النيهوم: (ولعل التاريخ يخبيء للعرب أكثر من مفاجأة غير سارة. إنّ تجاهل التاريخ خطيئة عقابها أن يتجاهلك الواقع).

القانون الثاني (قانون بذل الجهد):

كل بذل للجهد (يقلص) من حجم المشكلة، باعتبارها تراكم معقد للأشياء، والأشياء تسبح في العادة بين ثلاث مواقع: ممكنة.. صعبة.. مستحيلة.. من المهم جداً معرفة الحدود الثلاثة؛ فبموجبها تتوقف الحركة، أو تنشط من عقال.

كلنا مرت عليه لحظات من الاستسلام حتى انقدحت بعض الأفكار الأساسية فدفعته للحركة. (ذهان) الاستحالة والسهولة وقع فيها العرب تجاه فهمهم للصراع العربي الإسرائيلي، وانتبه لها المفكر الجزائري (مالك بن نبي) مبكراً، فهي كانت دولة (شذاذ الآفاق) و(دويلة العصابات) وهي الآن (التنين النووي). إسرائيل ليست تنيناً وليست دويلة، إسرائيل هي (مضاعفات) المرض العربي، وأهم من الصلح العربي الإسرائيلي هو الصلح العربي العربي، يمكن مواجهة غطرستهم بحركة داخلية بدون مواجهة خارجية معهم، مثل إيجاد سوق عربية مشتركة.. إلغاء التأشيرات بين الحدود.. رفع المقاطعة بين بعضنا البعض.. إسرائيل تمثل تحدياً رائعاً، ومنخساً حضارياً، وجيباً استيطانياً غربياً، ومصرفاً عبرانياً مسلحاً بمؤسسات البحث العلمي والصواريخ النووية. داود القديم واجه العملاق المدرع جالوت بمرقاع وحجر. وبعد ثلاثة آلاف سنة تنقلب الأدوار فنحتاج داود عربي جديد.

ذهان الاستحال والسهولة (الثنائية).

المفكر الجزائري (مالك بن نبي) اعتبر أن (ذهان) الاستحالة والسهولة يعطل الجهد في كلا الحافتين، والمفكر المصري (الجراح) محمد كامل حسين أشار في كتابه (وحدة المعرفة) إلى مرض عقلي قديم في رؤية الكون على أساس (ثنائية) وليس طيفاً، والفقهاء قديماً أرسوا نظاماً ذو (ميكانيزم) خاص في فهم الأحكام؛ فليست كلها حراماً وحلالاً، في لونين ثابتين؛ بل ضمن طيف متحرك من الواجب إلى المستحب فالمباح فالمكروه وانتهاء بالحرام.

الأشياء ليست حارة وباردة، حامضة وقلوية إلا من خلال تأثيرها على الإنسان، الحرارة ٤١ عند الإنسان قاتلة وهي طبيعية عند الدجاج، ودرجة الحرارة عشرين في جسمنا مهلكة وتستعمل في جراحات القلب، ولكنها من أطيب وألذ ما يمكن عند التماسيح والأسماك، الحرارة هي حركة

الجزئيات، وتبدأ من درجة كالفن ٢٧٣ تحت الصفر؛ لتصل في النجوم إلى ملايين الدرجات، والحموضة والقلوية هي مقدار تركيز أيونات الهيدرجين. والألوان هي الموجات التي تفسرها عيوننا، وعيننا لا ترى إلا شقاً محدوداً للغاية من طيف من الأمواج رهيب.

غلطنا الرئيسي كما في نظرية بطليموس القديمة عندما اعتبرنا الأرض مركز الكون، وغلطنا من جديد هو اعتبار مشاعرنا أساسية في تفسير الكون.. القرآن لا يأبه كثيراً لمشاعرنا ولا يعتبرها صادقة ومعبرة بدقة. ما بدأ العلم الطبيعي في الفيزياء والكيمياء يدركه تقترب منه الفلسفة حالياً لإدراكه في تصنيف الخطأ والصواب والخير والشر. كان القرآن حكيماً للغاية حينما أرانا وجوهاً مختلفة للشر والخير في قضية واحدة، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. الفيلسوف الرواقي القديم وابن سينا وابن خلدون أدركوا معنى نسبية الشر، وأنها الملح الذي يملح به الخير، ما هو في لحظة وعند إنسان وفي ظرف شر قد يكون خيراً عميماً لآخرين، وانتبهت الحكمة القديمة أن مصائب قوم عند قوم فوائد، ووضع الغزالي فلسفته الصوفية في فهم عدم التعلق بالأشياء؛ فالمال الذي يطير من يد يقع في يد أخرى، فوجب أن لا تعلق القلوب بالتبر والتراب.

يجب أن نكف عن وضع أنفسنا مركزاً للكون، و﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

لم يتحرر علم الفلك إلا عندما طرح فكرة مركزية الأرض، ولن نتحرر من الذاتية إلى الموضوعية إلا حين نتخلص من ذهان فكرة الثنائية إلى فكرة الطيفية (SPECTRUM).

العمل يهب الصحة:

يذكر الروائي الروسي (ديستوفسكي) قصة ذلك الذي عصى الله فكانت عقوبته لتصحيح بنيته النفسية عقوبة (المشي) لألف مليون ميل.. تضايق وفكر بالرفض فلا يتصور أن يكون ذنبه بحجم هذه العقوبة، ولكن لم يكن بد من الاستعجال في تنفيذ العقوبة. يقول ديستوفسكي: إنه بعد أن أنجز المشوار الطويل ودخل الجنة؛ فرأى ما لم يخطر على قلب بشر صاح بعد خمسة دقائق بالضبط: إن هذه النعمة لتستحق عشرة أضعاف ما مشيته.. هل يمكن تصور بركة الجهد ونعمته على القلوب في مثل هذه القصة الرمزية؟ الألمان يستخدمون عبارة (العمل يهب الصحة... ARBEIT MACHT GESUND).

لغز اللامنطق:

جرت عادة في الصين أن توضع قدم الفتاة في حذاء حديدي؛ فإذا كبرت أصبحت في جسم امرأة وقدم طفل. يمكن قلب الصورة فيحشر الرأس في قالب ثقافي، فتتقدم الأمة في السن، ويبقى عقلها طفولي، لا يتجاوز حجم المراهقة بحال. في العالم العربي يسود القانون الميمي الثلاثي (ما في.. ما يصير.. ممنوع) في حالة مجتمع أخرس، محروم من روح المبادرة، ينتظر الخوارق، لا أحد عنده قدرة اتخاذ القرار وتحمل مسؤوليته. كل شيء مسموح، وكل شيء ممنوع، في لغز خارج المنطق والعقلانية، وفي قسم كبير من العالم العربي لا توجد أية ضمانة، لأي شيء، أو إنسان، في أي زمان أو مكان أو ظرف، خارج التاريخ والجغرافيا، وسكة قطار الحضارة، يتعجب فيه الإنسان كيف تتابع الخدمات الأساسية عملها. المواطن العربي يلبس بذلة أنيقة، وتلمع في صدره ربطة عنق جميلة، ويضع على عينيه نظارة مصنوعة في إيطاليا، شكله الخارجي كفرد لا ينقصه شيء عن أي مواطن أمريكي، بفارق أنه أخرس ولد بدون لسان، لا يفتح فمه إلا عند طبيب الأسنان، وهو فارق من شأنه أن يجعل الصورة في حجم

كاريكاتور، تجعل الإنسان يضحك بدون صوت، ومواطن يمشي على رأسه بدون أن يشعر بالدوار.

القانون الثالث (قانون المبادرة):

موقفنا من المشاكل يخضع لجمود أو حركة، إما بانتظار عنصر خارجي يحل المشكلة، أو القفز للتدخل فيها ولو لم يطلب منا ذلك.

الشكل الأول الأفراد فيه مسحورون، ينتظرون الأوامر، ويشكلون مجتمعاً مسحوب الإرادة، مشلول الوعي، آلي سلبي منفعل الحركة، والثاني مجتمع أفراده مسلحون بالوعي، وحسن الانتماء، وروح الدفاع، والأخذ بزمام المبادرة.

المجتمع الأول آلي معدني ميت بارد، بموت المادة وبرودتها، والثاني مجتمع عضوي حي ساخن له مستقبل مبشر بالنماء.

المجتمع ليس (كومة) أفراد بل (شبكة علاقات) تزدحم فيه فعاليات الأفراد والنشاط الاجتماعي في حوض واحد، إذا نما أحدهما لم يكن أمام الثاني إلا التقلص. إذا أردت معرفة أي نشاط هو المسيطر اسأل التلفون والمخاطبة والعلاقات الشخصية.

الإسلام يبني مجتمع العدل، ولا يولي اهتماماً لتعليق الشعارات، بل يعتبرها كلمات ليس لها قوة (لم ينزل بها سلطاناً).

القانون الرابع (الممكن والمستحيل):

هناك علاقة جدلية بين الممكن والمستحيل، فعندما نزهد في الممكن ونحلم في المستحيل، تصبح عملياً في إجازة مفتوحة بإلغاء آلية الجهد. المستحيل يعني أن لا فائدة من بذل الجهد والصعب يتطلب الجهد المكافئ.

الأطباء عندما يواجهون حالة توقف قلب يعالجونها بالصدمة الكهربية

وحركات تمسيد القلب والإنعاش الهوائي بما فيها التنفس من الفم للفم. عندما ييأس الفريق الطبي من استفاقة القلب من الصدمة ينفضون أيديهم من القلب الميؤوس منه؛ فيتقبّلوا الموت كحقيقة لا مفر منها، ويتوقف بذلك الجهد لإيقاف القلب من كبوته.

من المهم جداً تصور الأشياء ودفعها إلى حيز الممكن لتحرير آلية الجهد. الوعي الحاد هو الذي يمثل مبضع التشريح لسبر غور الأشياء ومعرفة مكانها بين الممكن والمستحيل. اعتبر الحديثُ أن هناك حدوداً ميؤوس منها للأشياء مثل الهرم المفنِّد أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر، واعتبرت الثقافة العربية القديمة أن المستحيلات هي ثلاث: الغول والعنقاء والخل الوفي، فكل ما جرى مجراهم هو (رابع المستحيلات)!!

من المفيد تعلم ثلاث قواعد هامة في هذا الحقل: فصل الممكن عن المستحيل، والتأكد من المستحيل أنه مستحيل، إعادة النظر في المستحيل دوماً تحت قاعدة الكون المتغير و﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. إن أعظم إحباط يصاب به الإنسان عندما يضع لنفسه هدفاً لا يستطيع الوصول إليه!! وأفظع منه أن يعيش بقية عمره على هذا الحلم؟ وأشد تدميراً منه عندما ينتظر أن تولد المصادفة هذا الواقع الذي يحلم به!! فكلها سلسلة من الأخطاء الرهيبة التي تلغي آلية الجهد. يحمل الإنسان جدلاً رهيباً؛ فهو يسبح في اللحظة الواحدة بين العدم واللانهاية.. بين الممكن والمستحيل، فهو لا يستطيع الخلق ولو كانت ذباباً تافهاً ولكن يستطيع تغيير واقعه بتغيير ما بنفسه. نحن نرى في اللحظة الواحدة السهل والصعب والمستحيل؛ فمن الممكن (حمل) الكتاب، ولكن يصعب حمل الطاولة الكبيرة، ويستحيل قلب النظام الشمسي؛ فتشرق الشمس من مغربها، وهي الحجة التي آتاها الله إبراهيم على قومه؛ فبهت الذي كفر. نحن لا نستطيع تغيير قوانين المرور، ولكن

بإمكاننا أن لا نخالف إشارة المرور، حتى لو كنا وقت صلاة الجمعة والشارع فارغ.

الإنجاز حصيلة تراكم القليل:

إذا دخل في روعنا هذا وجب أن ندخل عنصراً آخر هو عدم الاستخفاف بأي إنجاز (ممكن) مهما كان زهيداً وصغيراً، فالكل يفكر بالأشياء الكبيرة، وينسى الأشياء الصغيرة، التي هي مكونات الأشياء الكبيرة، وعناصرها الأولى. أكبر الأرقام هو تجمع رقم الواحد فوق بعضه البعض مهما بلغت ضخامة الرقم، والإنجازات العظيمة هي محصلة تراكمية للإنجازات التافهة الصغيرة، والجبل تجمع هائل للحصى الصغيرة، والهرم تركيب ملايين الأحجار الصغيرة، والإنسان هو محصلة تراكمية بطيئة للجهد الواعي المتشكل عبر وحدات الزمن، ومعركة بدر التي سماها القرآن فرقاناً كانت إمكانيات تشكلت فيما سبق، وليست إنجازاً برز فجأة إلى السطح.

خمس نتائج للإنجاز:

عند وضع اليد على المفتاح السحري: (أن بإمكاننا أن ننجز شيئاً) تتولد سلسلة من الأمور الإيجابية:

الأمر الأول: (النجاح يقود إلى النجاح) فالنجاح يولد الشعور بالثقة بالنفس والعكس بالعكس؛ فالفشل يخلق الإحباط والخوف من المحاولة الجديدة، والمشاكل تنبع من (مواقفنا) غير السليمة منها.

الأمر الثاني: (النجاح يعطي قدرة «تَمَكُّن» أعلى) فبعد انتهاء العملية الناجحة فإنه يخرج منها بغير حصيلة الخبرة قبلها بل زيادة الخبرة الجديدة، وكل ضربة لا تكسر الظهر تقوي أكثر كما يقول المثل.

الأمر الثالث: ينعكس النجاح على النفس فيمنحها السعادة؛ في حين أن الفشل يُدخل الإنسان في دوامة الحزن. السعادة تنعكس على البيولوجيا

إيجابياً أو بالعكس؛ فالغضب يقود إلى جفاف الفم، وانحباس البول، وخفقان القلب، والحزن يولد الوهط والكسل والكآبة والميل للعزلة والانسحاب، والسبب تلك العلاقة الخفية التي لم نفهمها ولم يماط اللثام عنها حتى الآن كيف تؤثر الحالة النفسية على البيولوجيا، فوالد يوسف ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، كما ارتد إليه بصره مع بشارة العثور على يوسف ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾.

الأمر الرابع: (التراكم الكمي يقود إلى التغير النوعي): هناك علاقة بين الكم والنوع؛ فرفع درجة حرارة الماء إذا زادت بشكل تراكمي قادت في النهاية إلى تغير نوعي في طبيعة الماء فيصير بخاراً، كما أن انخفاض درجة حرارته إلى الصفر تقود إلى تجمده وزيادة حجمه وتحوله ثلجاً، وهذا يعني أن التراكمات (الممكنة) ستقود في النهاية إلى شق الطريق لكسر المُسَلَّمات والحتميات، فالكثير منها نحن الذين نصنعها ونمنحها الحتمية فتتحول هذه الأفكار مع الوقت إلى (أصنام)، وهكذا تم كسر الكثير من المُسَلَّمات عبر التاريخ، في النظام الفلكي، وتحطيم الذرة، وقلب المعادن الخسيسة إلى ذهب؛ فيتحول الزئبق ذهباً أو بالعكس؛ بسحب أو زيادة بروتون واحد عليه.

الأمر الخامس: إن أخطر مرض عقلي يهدد التقدم الإنساني هو عقدة الآبائية ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ أي التقليد، فبقدر ما يجعلنا المجتمع بشراً (من خلال العادات واللغة وسواهما) بقدر ما يشكل الطوق الاجتماعي خطراً يغتال العقل الإنساني، وهذا هو السر في بطء نمو مجتمعات وتطور أخرى، والمجتمع الياباني ما استطاع الطيران للعصر لو لم يتحرر من العادات العقلية المفرملة، وأول قفزة له كانت باتجاه الاستفادة من إضافات المعرفة الإنسانية الجديدة، وكان إدراك اليابان حاداً في أهمية الخلاص من الحذاء الصيني الحديدي.

القانون الخامس (قانون التغيير بالتدخل):

يعتبر الضغط الدموي منذراً بارتفاع حده الأعلى وافتراق حديه؛ مثل ١٨٠ على ٨٠ فيجب تقريب الحدود وضغط الرقم الانقباضي إلى أسفل؛ كذلك في القانون النفسي الاجتماعي؛ فيجب تقريب حدي الممكن والمستحيل من خلال معادلة عكوسة، الأمور فيها ذات طبيعة انقلابية حركية؛ فقد يكون الشيء ممكناً ليصبح مستحيلاً وبالعكس. هبوط الضغط يمكن رفعه ليرجع الإنسان إلى حدود السلامة. وارتفاع الضغط يمكن إنزاله ليستقر ضمن الأرقام الصحية. استمرار هبوط الضغط يقود إلى صدمة غير قابلة للتراجع (IRREVERSIBLE SHOCK) وكذلك الموت؛ فهو بحكم المستحيل العودة منه؛ فمن دخله ما عاد من رحلته.. يدخله وحيداً، ويذوق معاناته منفرداً، يثقب جداره فلا يصحبه أحد مطلقاً، ولا يعود ليخبرنا بما عاني؟ وماذا رأى؟ فهو طريق واحد لا عودة فيه، وكانت معجزة المسيح عليه السلام هي في تحويل المستحيل إلى ممكن من خلال إحياء (اليعازر) من قبره بعد تفسخه في اليوم الرابع. آية من الرحمن الذي يملك مفاتيح الوجود ويقول للشيء كن فيكون.

القانون السادس (قانون التركيز):

(عمل واحد في وقت واحد ـ قانون القلب الواحد). اعتبر القرآن أن الله لم يعط للمرء إلا قلباً واحداً ليفكر في قضية واحدة في وقت واحد ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾.

لاحظت ذلك في ألمانيا في رحلة تخصصي، الواقف على صندوق المحاسبة في المحل كل قلبه للزبون، ومن بعده غير موجود عنده حتى يفرغ من الأول ويتفرغ للثاني، في ثلاث قوانين فرعية: كل الوقت والاهتمام والوجه للزبون الأول، لا شيء على الإطلاق للآخر، الفرع الثاني: يجب أن يمشي الزبون الأول سليم الحساب منبسط الأسارير ويجب إنهاء عمله

على الوجه الأكمل (قانون إتقان وحدة العمل)، الفرع الثالث: ليس العبرة تمرير عدد ضخم من الزبائن بنتائج غير مرضية، يجب تمرير عدد سليم أياً كان رقمهم، مسواة أعمالهم على الوجه الأكمل. ليس العبرة في كثرة العمل بل في حسنه وإتقانه. يعتبر القرآن أن الموت والحياة خُلقا لهذا الهدف ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

إماطة الأذى عن الطريق من الإيمان:

نحن نقرأ الحديث والقرآن بعيون الموتى ولا نستفيد مما فيهما بشيء.. الحديث يقول: إن من يرفع القاذورات من الأرض ويحافظ على البيئة الإسلامية نظيفة مرتبة، أنها مسؤولية فردية وهي من شُعَب الإيمان.. **(الإيمان بضع وسبعون شُعبة، فأعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شُعبة من الإيمان)**... العالم الإسلامي اليوم في مجموعه باستثناء جزر محدودة بثقافة انقلابية خاصة، أو بتوظيف جيوش كاملة مستنفرة من عمال النظافة.. ما عدا ذلك يسبح في القذارة.. وأي بلد إسلامي تدخله تقرأ الذلة والقلة والقذارة.. وتتنفس جزيئات الهواء ممزوجة بالأجهزة الأمنية.

القانون السابع (قانون الإنجاز):

هناك علاقة جدلية عكسية متصاعدة متنامية في الإنجاز؛ فيجب أن ينجح الإنسان وينجز العمل في جو من الأناقة والنظافة. ويتولد عن الإنجاز أمران: صعود في مستوى الطاقة؛ فمع كل إنجاز تصبح الطاقة في خروجها من العملية غيرها عند بداية العملية. الثاني: الثقة بالنفس والسعادة؛ فليس أطيب للنفس من النجاح، ولا أيأس من الفشل.

النجاح يقود إلى السعادة ومزيد من النجاح، والفشل يقود إلى الإحباط مثل المرض الذي يقود إلى المضاعفات وتدهور الحالة وهكذا..

الدوائر اليزيدية:

في جبل سنجار الممتد بين العراق وسوريا، تعيش طائفة (اليزيديون) تعبد الشيطان وتسميه طاووساً، ولا يتجرأ أمامهم أحد على لعن الشيطان، وتعتبره الطائفة مستخلفاً في حكم الأرض لمدة عشرة آلاف سنة ما زالت سارية المفعول، ولا تستخدم مفردات لفظة الشيطان في النطق خوفاً من غضبه فلا تلفظ (مشط وطشت وشاخط وشط وشريط وشباط؟) وتعف عن أكل الملوخيا والباميا والخس واليَخنا، ولا تلبس الأزرق، وتتطير من استعمال اللون الأزرق في أي استخدام، وتقدس الحية فهي التي حمت طوفان نوح عندما اصطدم بتيتانيك قديم فانثقبت السفينة؛ فكورت الحية نفسها في الثقب فحمتها من الغرق في موج كالجبال، ولا تتزوج في نيسان فمن حملت في الربيع أنجبت أبلهاً، وفي ليلة العرس يجب أن يضرب الرجل زوجته بحجر دليلاً على الفحولة، كما يحتفلون يوم ميلاد يزيد بن معاوية ويوم تتويجه، ويحجون إلى قبر عديّ الأموي مؤسس الحركة؛ فالحركة أخذت اسمها من ابن معاوية يزيد، في أعجب اتفاق، وأكثره مدعاة للتحليل، عن سخرية التاريخ، ونشوء الدعوات، وولادة الحركات السياسية.

إذا طُوِّقَ اليزيدي بدائرة تُرسم على الأرض حوله انحبس فيها؛ فلا يفتك منها إلا من آخَرَ خارج الحلقة، يأتي فيكسر الإشارة المرسومة على التراب. هذا المثال قد يكون عجيباً لنا، ولكن هل يمكن أن نتصور أن كل ثقافة أسيرة لدوائر من هذا النوع، بفارق أنها غير مرئية للمنتسبين إليها. كل ثقافة تشكل عمى لوني خاص بها، معظم الناس يزيديون من نوع مختلف. وكل ثقافة تضحك على الأخرى أنها بلهاء عمياء.. تعجَّب الإنكليزي من الصيني، وهو يضع صحن الطعام عند قبر الميت، فسأله متعجباً: وهل الميت جائع فيأكل؟ أجابه الصيني ببرود: وهل مريضكم يشم رائحة الزهور التي تنصبونها فوق قبره؟.

هل يمكن تصور فكرة الممكن والمستحيل من وسط الثقافة اليزيدية؛ فليس أنفع من الأمثال الفاقعة، ولو كانت حرية الرأي متاحة تماماً لرأينا من يأتي فيدافع عن الشيطان، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾. من يعبد الشيطان يجب أن يدافع عنه، ولا يقوم المجرم بجريمته قط وهو يظن أنه مخطئ. المجرمون يُلقى القبض عليهم فيُحبسون، والمجانين يرسي مصيرهم في المصحات العقلية، ولكن أفظع جرائم القرون يقوم بها السياسيون فَيُخَلَّدون وتُنصب لهم التماثيل، عبرة عبر القرون لمن يعتبر في صورة مقلوبة جداً.

قصة الديك والنسر

من الضروري أن يتعلم الإنسان في حياته ثلاثة أمور: التواضع، وأن لا يكبر كلماته، وأن يعلم أن الكون يقوم على التراتبية والاختلاف والتنوع.

فأما التراتبية ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾. وأما الاختلاف فقد رُكِّب الكون على الاختلاف ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾. وأما التنوع فهو التباين في الألوان والأحجام والقوة والفائدة. وكل من عليها له دورٌ صغر أم كبر، وكل من عليها يتكامل مع غيره ولو كان بعوضة. و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾.

وأما التواضع فهو خصلة الصالحين. و﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾.

وأحياناً أتعجب من البشر وكيف يقتل بعضهم بعضاً وهم لا يعمرون في هذه الأرض إلا قليلاً، بحيث أننا لو وضعنا البشر على منحنى الزمن لشعرنا أنهم ماتوا بدون فروق زمنية. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

وأما أن لا يكبر الإنسان كلماته فهو لا يعرف ماذا يكسب غداً ولا يعرف في أي أرض يموت. والمهم فمن ينظر في هذا الوجود بعين الحكمة يرى أن الكائنات موزعة بحيث يأكل بعضها بعضاً ويخاف بعضها بعضاً ويخدم بعضها بعضاً. وإذا كانت الخرفان تقضم الحشيش فإن اللبوة تتغذى مع صغارها على لحم الماشية، وإذا كان الفأر يرتعش خوفاً من منظر القط المتربص، فإن القط بدوره يذعر من مواجهة الكلب، وتبقى مبارزة الكلب

مع ذئب الغابة مشكلة مصيرية، والذئب بدوره ليس له حظ في مواجهة النمر، وهكذا يقوم الكون، والإنسان هو الذي يقف على سلم الكائنات فيغلبها جميعاً وهو لا يملك منقار البازي ولا سن الفيل ولا أنياب السبع أو قرن الخرتيت.

وهذه الحكمة تغيب عن بعض الناس أن يعتبروا أن التراتبية قائمة أيضاً في المجتمع بلون جديد، ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ (من التسخير).

وتروي القصة أن ديكاً أصابه الغرور فبدأ ينفض جناحيه ويصيح، وبينما هو كذلك إذا بديك آخر بدأ يتحداه ويطلب مبارزته، وذُعرت الدجاجات من حمى الوطيس الوشيك. وعندما اشتبك الخصمان وعلاهما الغبار وتناثر الريش كالعهن المنفوش وسال الدم انقشع غبار المعركة عن فوز صاحبنا وهزيمة الثاني مدحوراً بنقاط كثيرة. انتفخ الديك على الرغم من جراحه وبدأ ينفخ صدره ويصيح بصوت أشد، وبدأت الدجاجات في التصفيق له بأجنحتها وتهنئه على هذا النصر الساحق، فعلته النشوة وركبه الزهو وانتفخ أكثر فقفز إلى رأس صومعة غلال قريبة وبدأ منها يعلن انتصاره، فسمعت به ديكة المنطقة أجمعين وخافت منه، وبينما هو في مكانه إذا بنسر أبيض ينقض عليه فيقتله ويطير به لحماً طرياً وعشاءً فاخراً لفراخه.

فهذه هي حال الدنيا، وعلى المرء أن يتعلم التواضع، وأن لا يكبر كلامه، وأن يتعلم التراتبية والتنوع والاختلاف في هذا الكون، ويحترم هذه القواعد الثلاث. سنة الله في خلقه ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

عدالة شيلم

تقول الرواية أن مدينة (شيلم) وقعت بها يوماً جريمة، فقد قام الإسكافي بقتل زبونه الذي أزعجه عندما ألح عليه بإصلاح حذائه في وقت قصير، وعندما مثل أمام القاضي لم يكن أمامه سوى أن يحكم بقتله شنقاً جزاء ما اقترفت يداه، وعندما صدر الحكم قام رجل في القاعة فصاح بالقاضي: سيدي القاضي لقد حكمت فعدلت ولكن من يصلح أحذيتنا بعده وليس عندنا سوى مصلح أحذية واحد في البلدة. انتشر الخبر في شيلم فصاح أهل البلدة جميعاً: نعم من لنا بعده وهو الإسكافي الوحيد؟ هز القاضي رأسه وتمتم قائلاً: ما الحيلة؟ ثم فكر وانتهى إلى حل. قال القاضي: يا أهل شيلم الطيبين نعم إن ما تقولونه حقاً فكيف نفعل بقتل رجل لا تعويض عنه، وأنا فكرت لكم في طريقة، فماذا تقولون وعندنا اثنين من الحدادين فنشنق أحدهما بدلاً عن الإسكافي، صاح أهل شيلم: نعم هذه المرة حكمت فعدلت. هكذا تقول الأسطورة.

ولكن الواقع الإنساني يروي فضائح من حجم أكبر. وروى لي صديق قصة شبيهة بهذه في ظروف الاضطرابات السياسية فقال: كان رجل يمشي في الفلاة خارج البلدة وإذا به يرى جملاً مشتداً في الهرب فلم يعد يرى ما حوله من شدة الخوف، أوقفه الرجل وقال له: ما الذي أفزعك إلى هذا الحد وأقض مضجعك؟ قال: إنهم يعدون الآذان في البلدة، فمن عثروا عليه وهو يحمل ثلاثة آذان قطعوا الأذن الثالثة، قال الرجل: وما الضير في ذلك فأنت بحمد الله تملك أذنين اثنتين كبيرتين لن يخطئ في عدها أحد. قال

نعم: صدقت لو كان الأمر كذلك؛ ولكنهم يقطعون الآذان أولاً ثم يعدونها بعد ذلك. وهذا يعني أن الأحكام صدرت وهناك استكمال للإجراءات الشكلية الروتينية.

وفي بلاد الشام اعتاد الناس إطلاق كلمة (حكم قراقوش) على تلك الأحكام العجيبة التي تنتهي بوقائع غير متوقعة وتصطدم مع كل منطق.

وعندما جاء المسيح عليه السلام لبني إسرائيل اصطدم بعقليات من هذا النوع تتعلق بالقشور وتترك اللب وتتورط في تناقضات بدون أن تشعر. وفي يوم السبت كان عيسى ابن مريم عليه السلام يعظ قوماً فمر به الكتبة والفريسيون فتعجبوا من ذلك وقالوا: كيف تعظ قوماً يوم السبت ونحن محرم علينا أي نشاط؟ قال لهم المسيح وكان يكلمهم بأمثال دوماً: أترى لو أن خروف أحدكم سقط يوم السبت في النهر هل يتركه يغرق أم يُنقذه؟ نظر القوم في وجه بعضهم، ثم نكسوا رؤوسهم وقالوا: بل نُنقذه. قال: ويلكم فهؤلاء الخطاة غرقى في الذنوب أشد من غرق الخروف في الماء أفلا ننقذهم في أي لحظة أم نتركهم يهلكون؟

ومعنى هذا الكلام أن القوانين وُضِعت لخدمة الإنسان وليس بالعكس، ولكن المرض اليهودي ليس جينات في دمهم بل هو مرض ثقافي يمكن أن تصاب به أي أمة ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.

قصص العيارين والحرافيش

في مطلع القرن لمع رجل في المكسيك أخذ اسم (بانشوفيا) نشأ من الفقر والبؤس ثم بدأ يحارب من أجل نصرة الفقراء والمساكين، ومن المكسيك ظهر رجال من هذا النوع مثل (زورو) ذو القناع الأسود الذي قاوم الاحتلال الأسباني، وكذلك (زاباتا) زعيم الثوار، ومع الوقت أصبح (بانشوفيا) الشقي بطلاً شعبياً، ونعرف هذا من تراثنا، ولقد اطلعت على كتاب كامل في تاريخ العيارين والحرافيش والأشقياء الذين اشتهروا في بغداد.

بل ذكر الرئيس الإيراني (خاتمي) في كتابه الجديد (الفكر في شراك الاستبداد) في مطلع الكتاب أن أحدهم واسمه (أبو ليث الصفار) استولى على خراسان وبدأ يحلم بالاستيلاء على دار الخلافة. ويروي عنه أن هناك من حذره فقام وأمر أحد أتباعه بإحضار السيف وقال: جلس الخليفة بهذا السيف فعهدي وعهده واحد.

فهذه قصص الأشقياء والقراصنة وهم ينشأون عادة من ظروف القهر فيحلمون بتغيير الأوضاع فلا يستطيعون، كما يقول ابن خلدون: لافتقادهم العصبية على حد تفسيره.

بل وقرأت كتاباً عن القراصنة النساء، وبثت قناة ديسكفري حلقة عن تاريخهن فالتاريخ مليء بالعجائب. ومن الحرافيش والعيارين (علي الزيبق) من مصر، ولقد تمتعت بقراءة الكتاب وأنا فتى مراهق، وفي تراثنا يوجد العديد من الكتب التي تحض على هذا النوع من البطولات، ويبدو أن أمثال

(بانشوفيا) أو الأميرة ذو الهمة أو حمزة البهلوان تظهر في أوقات تضعف فيها الأمة وتبحث عن منقذ في أجواء الظلمات السياسية.

بعد فترة من التماع اسم (بانشوفيا) رجع الرجل إلى سيرته الأولى وانطفأ متروياً في قريته حتى كان يوماً عجيباً وانقلابياً في تاريخ الرجل فقد خطر في باله أن يهاجم أمريكا بشكل مغامرة فدخل المناطق الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية، وكما نعلم فالحدود بين البلدين طويلة جداً وهي مشكلة لأمريكا حيث يهاجر الكثير على نحو غير شرعي. قتل (بانشوفيا) عدداً من الأمريكيين وسلب ونهب مثل أي شقي، وكان في الحكم يومها رئيس أمريكي مشهور هو ويلسون صاحب أفكار عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى عندما أعلن حقوق الأمم في فترة أثارت يومها آمال الكثيرين في تحقيق عدل عالمي. احتار ويسلون فيما يفعل مع هذا الشقي؟ ونصحه البعض وكانت نصيحة خاطئة أنه يجب على أمة عظيمة مثل أمريكا أن لا تسكت على إهانة الشقي ويجب تتبعه ولو تعلق بغمام السحاب أو اختفى في كهوف الجبال، وبدأت حملة عجيبة كان تعدادها أولاً عشرة آلاف جندي مهمتها تتبع الشقي والقبض عليه، والذي حصل أن أمريكا تورطت في المستنقع كما حصل معها لاحقاً في فيتنام وإن كانت على حجم أصغر حيث وصل عدد الجنود الذين يتعقبون آثار (بانشوفيا) ١٢٣ ألفاً من الجنود، وكانت حملة خائبة عانى فيها الجنود من الحر والقر والغبار وفي النهاية جر الجيش العرمرم أذيال الخيبة وهو يبحث بدون جدوى في الصحراء عن شبح لا يمكن الإمساك به. وتحول الشقي من جديد إلى بطل قومي.

قصة الضفدع والعقرب

جاء في الأساطير الإنكليزية أن عقرباً وضفدعاً حوتهما الأجمة فكان الضفدع يحذر منه ويعرف أن اللدغ شيمة العقارب؛ حتى كان يوماً اشتدت فيه الريح وهطلت الأمطار مدراراً فامتلأت بها الوديان وتدفقت سيول كبيرة على شكل أنهار وأحدق الخطر بالعقرب والضفدع، فلما أراد الضفدع السباحة هرباً من التيار هتف به العقرب متوسلاً أن ينقذه من شر الغرق، قال له الضفدع: ولكنك يا صاحبي خطير المعشر سيء السيرة، والكل يعرف عنك أنك غدار تلدغ الصديق قبل العدو، قال العقرب: مدافعاً عن نفسه: إننا معشر العقارب أثيرت علينا دعاية سيئة وإنما نحن من حشرات الغابة نقتات لنعيش، وقد أعطى الله كل كائن سلاحاً يدافع به عن نفسه وبه يقتات.

قال: صدقت ولكن صحبتك مردية للمهالك وسُمّك يعطب، قال العقرب: غفر الله لك يا صديقي وهل لسانك الطويل أدعى للرحمة والأمور نسبية فأنت تطلق لسانك بأشد من طلقة مدفع فتصطاد الحشرات الهائمة على وجه الماء، وهكذا فأنت عندك سلاح من لسان بتار، وأنا أعطيت زعنفة أضرب بها من يعتدي علي فأرتاح وأحمي أولادي، قال له الضفدع: ويلك ولماذا يخافك الإنس والجان وذهبت مثلاً في سوء الطوية، قال له: أخطأت يا صاحبي الضفدع وهل بدر مني حتى الآن ما أسأت به جوارك. وكان العقرب أثناء هذا يهرب من الماء الزاحف ويشتد في لهفته كي ينقذه الضفدع. قال له الضفدع: وماذا أستطيع أن أفعل لك حتى تنجو من الهلاك، قال العقرب: بلغنا عنكم معشر الضفادع. أنكم تجيدون النقيق

وتحسنون السباحة وأنكم جداً بارعون في القفز فلو قفزت إلى جانبي فحملتني على ظهرك ثم اخترقت لجج هذا الماء فنقلتني إلى ضفة الماء من الجانب الآخر فلسوف لن أنسى لك إحسانك مدى الدهر، قال الضفدع مرتاباً: لا أظن ذلك، قال العقرب: اطمئن يا صاحبي فكيف تظن أني سأغدر بك وكلانا يعلو ثبج الماء المتدفق فهل يعقل أن أقضي عليك بسمي وحياتي كلها مربوطة بنجاتي على ظهرك، فلو قتلتك مت معك في اليم وأنا مليم.

فكر الضفدع في نفسه وقال: حقاً لو رابني منه شيء ألقيت به في الماء ولا أبالي فهلك وتخلصت منه وإلا عملت هذا المعروف حتى مع العدو، ولقد قال المثل فيمن سبق: ابذل المعروف لمن عَرَفت ومن لم تعرف وللعدو مثل الصديق فإنك لا تعلم متى ينفعك صديقك أو يضرك عدوك. ثم إن الضفدع حرك نفسه وقفز قفزة هائلة كان بجانب العقرب الذي سُرَّ للبادرة واعتلى ظهر الضفدع فاقترب من لجة الماء ثم سبح ببراعة. قال له العقرب: حقاً إنكم معشر الضفادع تهنئون على هذه اللياقة البدنية فأنتم تسبحون كالسمك وتقفزون أفضل من الجراد وتفزعون أعدائكم بنفخ أفواهكم.

ابتسم الضفدع للإطراء وسبح ببراعة أكثر حتى إذا اقترب من الشاطئ قال للعقرب: ها قد بلغت مأمنك فاستعد للنزول. ولما بدأ العقرب يزحف بمدرعته من ظهر الضفدع الأملس أدخل رأسه إلى الشاطئ ثم سحب زعنفته حتى إذا اطمأن على وصوله بالسلامة لدغ الضفدع بنهاية الزعنفة المملوءة بالسم. ارتعش الضفدع وانتفض مسموماً محموماً مقتولاً، وقال: ويلك و﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾؟ قال نعم: ولكن لا أدري فلم يكن باليد حيلة، ونحن معشر العقارب لا نرتاح إلا بتفريغ أجسامنا المحتقنة بالسموم بلدغ الآخرين فلا تؤاخذني على ما بدر مني ولا ترهقني من أمري عسراً.

قصة التاجر والببغاء

اشترى تاجر ببغاء هندياً جميلاً بريش بديع الألوان فأغرم به وكان يخاطبه من حين لآخر بحب وتعلق، ولكن الطير كان يريد حريته والتاجر متعة النظر إليه؛ حتى كان ذلك اليوم الذي أزمع فيه التاجر أن يقصد الهند لتجارته فقال له: يا عزيزي الببغاء هل لك من حاجة أقضيها لك قبل أن أفارقك؟ قال: حريتي يا سيدي التاجر. قال له: تعلم مدى تعلقي بك وحرصي عليك وما من سبيل لما تقول، فهلا طلبت شيئاً آخر في بلاد هندستان؟ قال: حسناً فإن لم تعطني حريتي فاذهب إلى أرض كذا وكذا فلسوف تجتمع بقومي فأخبرهم بخبري وأنني في الأسر عندك، فإن أردت شيئاً تحب قضاءه لي فانقل لي خبرهم وانقل أخباري لهم. قال: حسناً حاجتك مقضية.

ثم إن التاجر حزم حقائبه وركب سفينة نقلته إلى بلاد الهند، فسأل عن موطن الببغاء الأخضر فدلوه عليه، فلما وصل اجتمعت إليه الطيور تريد أخبار عجائب البلدان فقال لهم: إن أخاً لكم في ضيافتي وهو في قفص ذهبي في الأسر معززاً مكرماً وهو متعتي بالنظر إلى ريشه الجميل، قالوا له: ومتى كان المرء في السجن كريماً بعد أن سُلِبَ من أهم شيء وهو حريته، فاسترسل بالحديث وقال: إنه أخبرني أن أنقل لكم أخباره.

وبينما هو يتحدث سقط طير يشبهه من نفس العائلة على ما يبدو، حزن التاجر لسقوط هذا الطير ميتاً من الحزن فقال في نفسه: وما يدريني لعلها حبيبته انتظرته فلما أُسقط في يدها أغشي عليها فماتت من الحزن وهي

كظيمة، وبعد أن قفل التاجر من بلاد الهند عائداً دخل إلى بيته فاستقبله الببغاء بصوت عالي: ما هي أخبار تلك البلاد؟ قال صديقي الببغاء: أخشى أنني لا أحمل لك هذه المرة أخباراً جيدة. قال: حسناً أخبرني بها ولو كانت سيئة فما يهمني هو معرفة أخبار الأحباب والأصدقاء، قال التاجر: أيها الببغاء الغالي لقد قصصت خبرك لقومك فهوى أحدهم ميتاً من الحزن فهو كظيم، فلما سمع الببغاء الأخضر الخبر شهق شهقة وقال: ويلاه لقد علمت أن هذا سيحصل.. ثم سقط على الأرض لا حراك به.

بكى التاجر من جديد على موت الببغاء وتذكر قصة روميو وجولييت وأخبار الحب العذري في بلاد العرب عن قيس وليلى، وقال: لهف نفسي عليك أيها الببغاء الوفي فلقد ذاب قلبك كمداً على الحبيبة فمت من أجل موتها. ثم إنه أخرج جثمانه من القفص فلفه بخرقة طرية وتوجه به إلى الحديقة فلم يعرف أين يضعه. ثم وضعه تحت جذع شجرة مورقة وبدأ في تأمله.

ولكنه صعق فقد انتفض الببغاء الأخضر فجأة فقفز ثم طار فحلق واستقر على غصن الشجرة، ثم التفت إلى التاجر فقال له: أيها الأحمق إنها لم تكن أخباراً سيئة يا صديقي بل كانت رسالة من حبيبتي كيف أنقذ نفسي من براثنك ومن ذل المحبس إلى الحرية ومن ضيق القفص إلى سعة السماء، والجميل في الخبر أنك نقلته أنت بيدك ولسانك أيها المغفل، ثم ما لبث أن حلق في كبد السماء والتاجر يحملق مذهولاً.

قصة الوزة والحصان

جمعت الأجمة يوماً حصاناً ووزة فضحكت الوزة من الحصان وقالت له: أنا خير منك خلقني الله أحمل صفات الطيور والحيوانات والسمك،-إن أردت المشي مثلك على الأرض خطوت بغنج ودلال، وإن أحببت الطيران عانقت سحب الغمام وتأملت أمثالك المربوطين في الأرض بعين تحلق من علو، وإن أحببت الانتعاش في الماء البارد نزلت فكان لريشي طابع الانزلاق فلا يصيبه البلل، وغطست رأسي وداعبت بعنقي لجج الماء ونثرته فوق رأسي ولا أبالي.

نظر الحصان إليها باستخفاف وامتعاض وقال: ويلك أيتها المخلوقة أمثلي تعيرين وعلي تضحكين فلا مشيك مشي، ولا طيرانك بذي بال، ولا تزيد سباحتك عن عبث، إن مشيت كنت أضحوكة في عين من يريد القفز والمشي، وإن طرت كنت ضعيفة لا تملكين التحليق وتتعبين أسرع من كل طيور السماء، فلم تكوني مثل القبرة والسنونو فضلاً عن الطيور مثل الفرقط الذي يطير بسرعة الطيارة بسرعة ثلاثمائة كيلومتر ويزيد في الساعة، وأما السباحة فقد تعومين ولكن لا تصمدين أمام أي موجة، ولا تزيد سباحتك عن عبث ولعب على سطح الماء، وهكذا يا عزيزتي فأنت ضعت بين عوالم ثلاث، ولم تتركز سماتك في عالم واحدة فتتفوقين وتفوزين، ولم تغني عنك أجنحتك شيئاً، ولم تزد سيقانك عن أخشاب ضعيفة وحملت جسماً مترهلاً تنوئين بحمله، ولكن انظري إليّ وعضلاتي ورشاقتي التي مجّدها الأبطال، وحلم بها الفرسان، وعندما أراد اليونان تصوير كائن غريب لم يجمح بهم

الخيال أكثر من تصوير إنسان على ظهر حصان قد التحما قطعة واحدة في كائن خرافي مخيف، أنا الحصان الرائع أنا من قهر بي الهكسوس الحضارة الفرعونية، أنا من هزم به المغول إمبراطوريات الأرض، أنا من دمر بي الإسبان ممالك أمريكا الوسطى، بل بلغ بهم الأمر أن أخفوا خبر موتي، فكان الإسبان يدفنون الخيل إن ماتت، كي يظن أهل الأزتيك من حضارة المايا أن الموت لا ينالني، فماذا بقي لك من مناقب وخصال؟ إنك لست بشيء والأفضل لك أن تخفي خبرك ولا تنفثيه تنفيثاً فهو أفضل لك.

وكان أثناء هذا الحديث قُبَّرة تسمع الحديث بينهما فقالت لهما: هلا سمحتم لي بالتدخل. نظر الاثنان لها بغرابة وقالا: تفضلي. قالت: أظن أن فيّ من الخصال ما أتفوق به عليكم جميعاً، ثم بدأت القُبَّرة في سرد حسبها النبيل وخصالها المتميزة، فصعق الاثنان وهما لا يصدقان مائة صفة ترويها القبرة عن مناقبها الحميدة.

وأثناء هذا سمع الضبع حديث الثلاثة فقال: كفى كفى فأنا من اختلفت قوائمه وفاحت رائحته وأسناني تطحن الحجر ويخافني الطير والبشر وأنا وأنا.

وهكذا فمن أراد التفاخر اكتشف الكثير، ومن أراد كشف الأخطاء عثر على أكثر، ولكن العين عادة لا ترى بل الدماغ، وأعظم شيء يتحلى به المرء نقد ذاته وليس التفاخر، والشيطان قديماً قال عن نفسه مقارناً بآدم ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ولكن آدم قال ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ فهذا هو سر تفوق الإنسان.

ملحق
بأهم الأفكار الواردة في الكتاب

بقلم: أ. عبد الرحمٰن بن صالح بن حلي(*)

(*) عبد الرحمٰن بن صالح بن حلي:
باحث وكاتب إسلامي، نُشر له العديد من المقالات والدراسات في المجلات الدولية، مقيم حالياً في المملكة العربية السعودية، ويعمل مشرفاً على بعض مواقع الأنترنت الإسلامية. مدير موقع التاريخ www altareekh.com .

الحمد لله رب العالمين، الرَّحمٰن الرّحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام التامان الأكملان، على صاحب الرسالة العصماء نبينا وسيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، وبعد.

فلقد سعدت بقراءة هذا الكتاب للأستاذ الدكتور خالص جلبي الطبيب المفكر، واستفدت منه معلومات وأفكاراً كثيرة. وربما برغم عدم موافقة كثيرين على بعض الأفكار التي أوردها الدكتور إلا أنه ـ وبجرأة يُحْسد عليها ـ عالج نقاطاً أخرى سكت عنها كثيرون من أصحاب الأقلام الشرعية.

والقارئ للكتاب لا تخطئ عينه أن الكتاب يتناول مقالات متفرقة ربما كتبت في أوقات متباعدة نسبياً، وذلك لما يمكن أن يجده من تكرار لبعض الأفكار والمعاني صيغت بألفاظ متقاربة جداً.

ويمكن تقسيم موضوعات الكتاب الاثنتين والستين إلى ست مجموعات رئيسة، وهي:

الفكر.

التربية السلوكية والاجتماعية.

السياسة.

قضايا المرأة.

ظاهرة العنف.

الاكتشافات العلمية.

وكان نصيب الموضوعات الفكرية نصيب الأسد؛ إذ وصل عددها إلى

سبعة عشر مقالاً، تليها التربية السلوكية والسياسية وقضايا المرأة، ونصيب كل قسم منها عشرة مقالات، في حين كانت تسعة مقالات في ظاهرة العنف، وستة أخرى عن الاكتشافات العلمية والطبية الحديثة.

وبعض هذه المقالات طويلة ربما تصل ست عشرة صفحة كموضوع (موقفنا من المشاكل) بينما لا يتجاوز بعضها الصفحتين فقط، وبين هذا وذاك يتفاوت عدد صفحات كل مقال إسهاباً أو اختصاراً، وربما كانت الموضوعات العلمية أكثرها طولاً في الأعم الأغلب.

وفي الجانب الفكري كتب المؤلف المقالات التالية: جدلية الشيعي والسني، العلم والإيمان والإلحاد، اختلاط الإلهي بالبشري، ديكتاتورية الأوهام، الاستعمار والقابلية للاستعمار (مدخل لفهم السيكولوجية الاستعمارية)، الغذاء الفكري، الأصول العشرة للتخلف، ما الفرق بين الآلة والحشرة والإنسان، حفظ القرآن أم فهم القرآن؟ التفسير الخوارقي للأحداث، قانون التحيز والتشدد، جدلية الممكن والمستحيل، سيكولوجية النقد الذاتي، في فلسفة الموت، القواعد العشرون، موقفنا من المشاكل.

وموضوعات التربية السلوكية والاجتماعية العشرة هي: قصة الثعبان والهدهد والفلاح (الغدر وعاقبته)، مذهب الغدر، تبرئة الذات واتهام الآخرين، لعبة الكذب، أصل نفسك حرباً لا هوادة فيها، معادلة الحقوق والواجبات، نوادر جحا ومغزاها الاجتماعي، قصة الديك والنسر، عدالة شيلم، قصة الوزة والحصان.

وفي نفس العدد (عشرة) كان نصيب المقالات السياسية، وهي: مجتمع الخوف، التحرر من الخوف، التربية الديمقراطية (قصة النمر والبوم والأرنب)، مشكلة الإنسان المريض والانتخابات، المرض العضوي والمرض السياسي، امبراطوريات الأجهزة الأمنية، جنون الجماهير، قصص العيارين والحرافيش، قصة الضفدع والعقرب، قصة التاجر والببغاء.

وكان حظ قضايا المرأة من الكتاب عشارية ثالثة، وكانت عناوينها: قصة المرأة، لكونها أنثى (قصص عالمات كافحن في جو التمييز الجنسي)، علاقات القوة والجنس، نساء مكافحات للسلام، قصة روسية، مشكلة المرأة، دماغ الرجل والمرأة، ألف ليلة وليلة (كيف تعالج المرأة المريض النفسي بالقصة)، هندسة الثقافة الجنسية، الغريزة والإنجاب.

وتسع مقالات في ظاهرة العنف في العالم عموماً والوسط الإسلامي خصوصاً، تكلَّم فيها بمرارة واضحة في المقالات التالية: اليوم الأشد سوءاً في تاريخ ألمانيا الحديثة (مذبحة إيرفورت)، الكراهية تربة العنف (المذبحة الأعظم في مدرسة ليتلتاون)، المناضلة البورمية من أجل الحرية، ما هو الجهاد؟ الاغتيال في الإسلام، الأفكار الصادقة والأفكار الفعالة (وكيف نفهم على ضوئها أحداث سبتمبر)، عندما يصبح التدين ضد الدين، حقيقة القوة أم قوة الحقيقة (تفكيك سيكولوجي «الميكانيزم» استخدام القوة في المجتمع ونتائجها)، قانون الحب وقانون العنف.

وست مقالات في الأبحاث والاختراعات العلمية والطبية جاءت تُترجم تخصص المؤلف واهتماماته الأكاديمية، وهي: القرآن والتاريخ (قصة الطوفان ـ أحدث اكتشاف «أركيولوجي»)، الثورة الكيميائية الحديثة، أسرار الطاقة النووية والجنسية والتاريخ والكرموسومات، الإعجاز العلمي في القرآن، الكون هذا السر العظيم، لماذا نشيخ؟ لماذا نموت؟ نظريتا الموت (بين الاهتراء والبرمجة).

وهذا التقسيم نسبي وقد تعوزه الدقة أحياناً، فبعض الموضوعات قد تحتمل تصنيفاً آخر، فموضوعات الإعجاز العلمي وقانون الحب وقانون العنف وتبرئة الذات واتهام الآخرين تصلح لتُدرج في قائمة المقالات الفكرية أيضاً، بينما موضوع المناضلة البورمية قد يكون سياسياً، وهكذا. وذلك لتداخل المجالات الطبيعي وصعوبة الفصل الدقيق بينها.

المقالات الفكرية

○ (جدلية الشيعي والسني) أول المقالات الفكرية ذكر المؤلف أن الناس يولدون من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً وعندهم قدرة التشكل على قالب أي ثقافة بأفضل من الحديد الصلب، ومع هذا يسخر كل واحد من ثقافة الآخر، مع أنه كما يرى المؤرخ (توينبي) أننا لو أخذنا طفلين: الأول من عائلة لوردات بريطانية وجعلناه يتربى بين قبائل الزولو وأخذنا الطفل الأسود وربيناه في كنف عائلة أرستقراطية لخرج الأول يرقص بالحربة على قرع الطبول في الاحتفالات الليلية ولكان الأسود أكاديمياً يدخن السيجار وينطق الإنكليزية بلهجة «ويلز».

○ وفي مقال (العلم والإيمان والإلحاد) يقول: ليس أكثر من المسلمين ادّعاء بأن الإسلام هو دين العلم والتفكير وليس هناك أكثر من المسلمين خوفاً من العلم والتفكير.. وليس في الإسلام من يُقتل من أجل آرائه كائنةً ما كانت. ومع أن القرآن يمنح وكالة عامة للإنسان عن الله حينما ينصبه على عرش الاستخلاف في الأرض في حفل مهيب تحضره الملائكة شهوداً على هذه الترقية فإن المسلمين يريدون أن يستلبوا هذا التاج من رأس الإنسان، ومع أن القرآن يقول: إن الكون مبني على القوانين فإن المسلمين يفضلون أن يعيشوا بعقلية خوارقية خارج السنن.

ثم ضرب أمثلة على مجموعة من الاكتشافات العلمية في هذا الزمن ولكن بقدر الانفجار العظيم في الكون بقدر انفكاك المسلمين عن مركبة الحضارة العالمية.

○ (اختلاط الإلهي بالبشري) فيه ذكر أن الإنسان يتشكل بشكل

جوهري في مرحلة ماقبل المدرسة في سجن من أربعة أدوار: البيولوجيا والتاريخ والثقافة والجغرافيا. والإنسان مكون من ثلاث طبقات: ما فوق الوعي وهي جداً رقيقة، والوعي وتمثل ٥٪ من كياننا النفسي، واللاوعي وتمثل ٩٥٪ من المحيط الذي يضمنا، وفيه مستودعات الخبرة والعواطف والأخلاق والعُقَد النفسية. والجسد ـ كذلك ـ فيه تداخل ثلاث مستويات بنفس اللحظة من الإرادة ونصف الإرادة واللاإرادة.

نحن نظن أننا نتصرف بوعي كامل ولكن علم النفس التحليلي كشف أننا نملك هامشاً ضئيلاً من الحرية وبذلك نمتص ديانة المجتمع الذي نلد فيه ونحن نظن أن هذا حدث بكامل الوعي والاختيار، وهو شعور يمارسه جميع أصحاب الديانات والأيدلوجيات، وكما يقول مالك بن نبي رحمه الله: إن حظوظ الإنسان في هذه الدنيا مرتبطة بالمجتمع الذي يعيش فيه الإنسان بما فيها الدين الذي يعتقده.

○ الوهم لا يعني الحقيقة ولكن هذه الحقيقة وهم فليس هناك أكثر استبداداً من الأوهام بعقول الناس، بهذه العبارة بدأ المؤلف مقال (ديكتاتورية الأوهام)، وقال: عندما لا نفهم كيف يعمل المجتمع في صناعة الفرد تزيغ عنّا الحقيقة فتغتالنا الأوهام فالمجتمع يعطينا اللّغة فيحجرنا فيها ويعطينا الجينات فتصبغنا بصبغتها ويخلقنا بشراً فنتعلم النطق ومن المجتمع نمتص الدين وتلبسنا العادات لبساً وتتشكل التقاليد وفق آليات تدمدم في ظلمات اللاوعي، ومن يولد في طهران يجب أن يكون شيعياً أو شيوعياً ومن يوجد في نجد ربما كان سلفياً أو علمانياً فحيث التطرف يولد التطرف المضاد..

○ (الاستعمار والقابلية للاستعمار) مقال ركّز فيه الإشارة إلى أن الشعب الذي يعاني من مرض القابلية للاستعمار يحمل متلازمة ثلاثية من الأمراض وهي: قد يُستعمر من الخارج وقد لا يُستعمر حتى تتهيأ ظروف

انطوائه تحت جناح الاستعمار، وهو ثانياً مرض عام يتخلل كل المستويات الاجتماعية يظهر بين الموظف والمراجع والمرأة والرجل والطفل والأستاذ، وقصة الأحكام العرفية رواية بئيسة مترجمة عن قصة الاستعمار، وهو ثالثاً تشظي وتركيب في الفرد في نفس الوقت، فالمستكبر هو مستضعف في أعماقه ويمكن أن ينقلب المستضعف إلى مستكبر حال وضع يده على القوة، فمن ملك القوة تحول إلى إله ومن فقد القوة تحول إلى عبد.

○ (الغذاء الفكري) مهم جداً، فليست العبرة أن يقرأ الإنسان مائة كتاب أو ألف كتاب بل ماذا يقرأ؟ فمن يقرأ في الفكر القومي يخرج متعصباً مغلق الاتجاهات، ومن يواظب على قراءة الكتاب الأحمر يعبد (ماوتسي تونغ)، ومن يقرأ في (الكتاب الأخضر) يعتقد جازماً أنه وصل إلى الحل النهائي لكل مشاكل الجنس البشري.

وصلاة الجمعة في هذه الأيام تم اغتصابها من ثلاث مجموعات: وعاظ السلاطين وجماعات المتشددين وفرق التقليد، ويبقى بين هذا وذاك من نجا من دوائر القتل الثلاثة فتكلم بالحق ووعى العصر ودعا بالمغفرة وتفاهم الناس.

كيف يمكن أن نُغذّي الفكر إذن؟ فالعروبة وقفت أمام الانفتاح على اللغات العالمية، والتشدد المجنون أغلق العقول أمام الانفتاح على الثقافات الكافرة بزعمهم، وفي أتون الاستبداد السياسي تبقى قائمة الكتب المحرومة والممنوعة لا نهاية لها.

○ (الأصول العشرة للتخلف) هي:

الأصل في الإنسان الإدانة.

في الوقت الإضاعة.

في الأشياء الحرمة.

في الأصوات القباحة.

في اللباس القذارة.

في العمل عدم الإتقان.

في العقل الجهل.

في المكان عدم البيان.

في المعاملة المقاتلة.

في المرأة العزل والإهانة.

مشكلة التخلف أنها مثل القِصَر علة وراثية لا توجع صاحبها ولكن هناك من يعالجها بلبس بدلة طويلة.

○ إذا طُلب من الإنسان العربي أن يفعل شيئاً ضارّاً وحراماً ومخالفاً لضميره نفَّذه بدون تردد قائلاً: إنها الأوامر من سيدي، وإذا طُلب منه أن يُصفق ويهتف سابَقَ بحركاته القرود.. لم نسمع في يوم أن السِكِّينة ناقشت صاحبها أن ما يفعله حرام أو ضارٌّ أو لا يجوز؟.. النباتات تحرّك نفسها ولكنها لا تدري إلى أين تمضي؟ والحيوانات تدرك إلى أين تمضي ولكنها لا تعرف السبب؟ ونحن البشر لا نعرف إلى أين نمضي ولماذا نمضي؟.. الإنسان يملك الإرادة فإذا فقدها مات فوجب إحياؤه من جديد بتوليد الإرادة عنده، وإلَّا فما الفرق بين (الآلة والحشرة والإنسان)؟

○ حفظ القرآن مع عدم الفهم لن يزيد أوضاعنا إلا خبالاً، والقرآن مبني على الفقه والفهم، والذي غَيَّر العرب لم يكن شِعراً بل قرآناً عربياً لقوم يعقلون، قرآناً يقلب أوضاعهم السياسية رأساً على عقب.. إن الحفظ دون الفهم لا يزيد على آلة حديد تسجل مثل أي مسجلة تباع في السوق، والعقل الإنساني يقوم على الفهم الذي يغير السلوك، ولكننا من خلال الكارثة

الثقافية التي حلّت بالعالم الإسلامي ظننا أن الحفظ يعني الفهم، هذا ما ذكره المؤلف في مقال (حفظ القرآن أم فهم القرآن).

○ العقل العربي اليوم مُغتال عشر مرات بعشر سموم منها (التفسير الخوارقي للأشياء) والفهم المقلوب للتاريخ وتعطيل الجهد الإنساني وانتظار الزعيم المُلهم، وعندما انفجر (شالينجر) مكوك الفضاء اعتبره البعض عقوبة إلٰهيَّة ونظر إليه الأمريكيون أنه خطأ فني وأرسلوا بعده العشرات.. فمن يبني عقله على العلم ينمو ومن يبنيه على الخرافة ينحبس في خانة المجهول، ونحن اليوم نعتقد في زعمائنا أنهم خارقون ونبني مجالس شورى ونيابية لا تنفع ولا تضر لأنها نقلت بغير شروطها النفسية والفنية كمن يضع في بيته كمبيوتر وهو لا يحسن القراءة والكتابة.

○ كلٌّ مِنَّا مُتحيّز ومُتعصّب وعنصري بقدر، وقد يكون أقلّ تحيزاً عندما يتنبه إلى هذا القانون (قانون التحيز)، هذا إذا سَلَّم به واعترف، وقليل من يعترف أو يتصف بالنزاهة، والله وصف الخلطاء أنه ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾، وعندما تحدث توينبي عن المؤرخين في مطلع كتابه مختصر دراسة التاريخ قال: إن المؤرخين في معظمهم ينزعون إلى توضيح آراء الجماعات التي يكدحون في محيطها منهم إلى تصحيح تلك الآراء.

○ في مقال (التشدّد) أوضح الكاتب أن الكون يقوم على التوازن، وأفضل شيء يتحقق في المجتمع هو العدل، وخير حالة تعيشها النفس هي الصحة النفسية، بتوازن الغرائز والعواطف في حالة وسط بين بين، والشجاعة هي حد الوسط بين الخوف والتهور.. ومن هذه المعاني وصل الفلاسفة إلى شيء سموه الوسط الذهبي، وكل خُلُق هو وسط بين حدين، وبتعبير أرسطو أن كل فضيلة هي وسط بين رذيلتين.

نحن نواجه اليوم مسألتين خطيرتين: الأولى التشدّد كما نسمع عن مذابح الجزائر، والثانية أن هذه المشاكل لا نقترب من فهمها على الوجه الصحيح إلا بفتح باب الحوار، وهؤلاء المتشدّدون لا يتحمّلون الحوار وبمجرد الاختلاف معهم يبدؤون في صب التهم ومن النوع الخطير ضد الآخر لحرق أوراقه عند الرأي العام.

○ في حديثه عن (جدلية الممكن والمستحيل) استفتح بقوله: في مواجهتنا للأشياء نحن حيال ثلاث معادلات: أشياء يمكن أن ننفذها وأشياء يستحيل أن نحققها وبين الممكن والمستحيل هناك طيف من الإمكانات، فضمن الممكن هناك أشياء يسهل فعلها وهناك أشياء يصعب إنجازها ولذا يجب أن نسأل أنفسنا دوماً هذا السؤال المحوري: هل الأمر الذي يواجهنا مستحيل أم صعب؟

ثم انتقل بعد ذلك ليذكر أثر بعض الأمثال الشعبية في إيقاف روح المبادرة الفردية، واستحالة صنع شيء. ثم ضرب تصرفات يمكن للفرد المسلم أن يعملها ولكنه يمتنع عنها وكأنها من المستحيلات كالدقة في المواعيد والابتسامة في وجوه الآخرين.

والأهم في حديثه هنا ذكره أنه عند وضعنا اليد على المفتاح السحري أنَّ بإمكاننا أن ننجز شيئاً تتولد سلسلة من الأمور الإيجابية وهي: النجاح يقود إلى النجاح، والنجاح يعطي قدرة تمكُّن أعلى، وينعكس النجاح على النفس فيعطي السعادة، وقانون التراكم الكمي يقود إلى التغير النوعي، وأن أخطر مرض عقلي يهدد التقدم الإنساني هو عقدة التقليد.

○ النقد الذاتي يعني أن لا نلوم أحداً عند وقوعنا في الخطأ مع كل إدراكنا أن الآخر مشترك في توليد الحدث، وفائدة هذا المبدأ الحرص على مبدأين: توفير الطاقة فاللوم يشل طاقة الاستنفار للعمل والإصلاح، والثاني توجيه الطاقة للعمل في الحقل المفيد.

النقد الذاتي هو استبدال الآليات العقلية القديمة بجديدة فيتحول الفرد إلى كائن يميل إلى المغفرة والتسامح مع الآخرين، وإيجاد العذر لهم وتبرير تصرفاتهم وقبولهم كما هم وحبّهم مع كل الاختلاف معهم، وبتوليد هذه المعاني الراقية يكتشف الإنسان جوهره باكتشاف هذه القيم المخبأة داخل كل واحد منّا فيتخلص من مشاعر الرثاء والشفقة الذاتية واحتقارها ويصبح الإنسان بالتالي عظيماً، والآثار المباشرة العقلية من هذا النوع هو الإيمان بالاختلافات والتعدّدية.. وغير ذلك من معاني مهمة سطرها المؤلف في مقاله (سيكولوجية النقد الذاتي).

○ إن فلسفة إدراك الموت ووعيه الحاد تولّدت في الشعور الإنساني من معاصرة ومعاينة فقد الصديق والحبيب، وإن الحقيقة الأولى في الوجود هي قانون التغيّر وعدم الدوام والزوال، والحياة وحدها هي الشيء المستمر، والحياة جسر ومن ثم فلا تُبنى البيوت فوق الجسور، والحياة عملية من عمليات التدفق والجريان فمن يتعلق بأية صورة من الصور مهما يكن جمال هذه الصورة فسوف يقاسي نتيجة لمقاومته لهذا التدفق والجريان.

أعظم ديمقراطية تتحقق على وجه هذه الأرض هي ديمقراطية الموت، حيث تذوب الفروق تماماً، فالموت لا يُحابي أحداً ولا يرتشي ولا يشفع ولا يفرّق بين الجنسين، فهو ديمقراطي صارم إلى أبعد الحدود.

إن الفلسفة تجنبت الحديث عن الموت وفضلت الحديث عن الحياة، فما معنى الموت؟ ولماذا كان الموت؟ ومتى تولد وعي الموت عند الإنسان؟ كيف نرى صورة الموت في الحياة والحياة في الموت.. أسئلة محيرة في معنى الموت وجدلية الموت والحياة.

يخاف الإنسان من الموت لأربعة مخاوف رئيسية: الخوف من المجهول، والخوف من المعاناة، والخوف من الوحدة، والخوف من التلاشي الشخصي.

آليات النفس الخفية في مواجهة قبضة الموت: رفض الاعتراف بالموت، ثم الإنكار والعزلة، ثم الغضب وعدم الشعود بالعدالة، ثم حالة الغضب والسخط لماذا اختير هو بالذات؟ ثم مرحلة المساواة، ثم مرحلة الاكتئاب.

○ (القواعد العشرون) من أمتع مقالات الكتاب، ففيه قواعد حرص المؤلف على استخلاصها من تجارب الحياة وصروف الدهر وتقلبات الأيام، وقد يكون بعضها خيالياً ولكن الأيام علمتني ـ الكلام للمؤلف ـ أنها واقعية أكثر مما نتصور. وهي كمٌّ متراكم في مدى خمس عشرة عاماً وبعضها يعود إلى ثلاثين عاماً سجلته في كراسة مستقلة حسب التجلي والمعاناة ووضوح الفكرة.

ومن هذه القواعد باختصار:

لا يوجد مشكلة بدون حل.

ليس هناك شر مطلق في العالم الذي نعيش فيه.

النطق بلا مسؤولية.

لا تستبد بك اللحظة.

اعتمد قاعدة: مجتمع الماء مضخة.

يُعرف دين الإنسان من دَينه وليس العكس.

كل إنسان قابل للبيع والشراء إلا المتقين.

في مواجهة أي مشكلة تَعوّد ألّا تلوم أحداً.

أن نزهد في الممكن ونحلم في المستحيل يجعلنا عملياً في إجازة مفتوحة، الكلمة ملك لك قبل أن تنطقها فإذا تكلمتها ملكتك هي.. وزد

على هذه العشرة خمس عشرة قاعدة أخرى سطر فيها المؤلف تجارب تستحق التأمل فيما بين سطورها وداخل خباياها من معاني ومعاناة.

○ (موقفنا من المشاكل.. سبعة قوانين في بذل الجهد) هو كذلك من المقالات التي تعبر لك عن طريقة تفكير المؤلف وتجاربه الفكرية والحياتية، وهو جدير بالاطلاع العميق والتمعن الشديد، وسطر فيه الدكتور مقدمة عن العلاقة بين اليأس والأمن وحركة النفس بينهما في حقل مغناطيسي حركي لا بد من تهييجه بسبعة أفكار أو قوانين هي:

فكرة القانون أو السنة.

قانون بذل الجهد.

قانون المبادرة.

قانون الممكن والمستحيل.

قانون التغيير بالتدخل.

قانون التركيز.

قانون الإنجاز.

وهي سباعية شرح كل واحدة منها بالأمثلة والتوضيحات اللازمة.

مقالات التربية السلوكية والاجتماعية

o (قصة الثعبان والهدهد والفلاح.. الغدر وعاقبته) قصة رمزية عن ثعبان هرب من الصيادين إلى بيت فلاح فخبأها في بطنه منهم ولما رجعوا ولم يعثروا عليها طلب منها الفلاح أن تخرج فرفضت الخروج واحتار الرجل فيها، ولما لقي الهدهد في طريقه وشكى له قصته أشار عليه بحيلة خلصه بها من الثعبان ولكن الفلاح غدر بالهدهد وحبسه، ثم بحيلة من الهدهد خرج من الكيس وانقض على الفلاح وفقأ عينه وطار.. إن الذي يغدر بالآخرين يجب أن ينتظر عاقبة أعماله في فاتورة مريعة من المصائب مع فوائدها المركبة.

o إذا كان المؤلف قد ساق في المقال السابق قصة عن الغدر ففي هذا المقال تحدث عن (مذهب الغدر) السياسي عبر التاريخ القديم والحديث وضرب له أمثلة كالغدر في المواثيق الدولية التي توقع ثم تنقض كما بين العراق وإيران عام ١٩٧٥م ونقضها صدام، وكما حصل لعديد من الخلفاء العباسيين الذي قُتِلُوا غيلة وغدراً، ولحكام المماليك في مصر كذلك. ثم ختمه بقوله: إنها أزمة ثقافية وأخلاقية تروي روح الغدر المتفشية، وإذا استطاع الطب فك كامل الشيفرة الوراثية بحيث يمكن معالجة الأمراض التي كانت في حكم المستحيل فإن جراحة اجتماعية متقدمة هي بحكم الضرورة للتخلص من هذا المرض الاجتماعي.

o إن اتهام الآخر هو وجه العملة المقابل لتبرئة الذات، وهناك علاقة متبادلة بين الحقلين، واتهام الآخر يحمل آلياً صك براءة للذات، والعقل حينما يمشي إلى الخارج لاكتشاف سبب الانهيارات يقوم بثلاثة أخطاء

قاتلة: أولاً في التحليل المنهجي، وثانياً: في ممارسة خطأ علمي، وثالثاً: في إحداث مرض نفسي. فأما خطأ المنهج فلا يمكن أن يولِّد أي حدث بدون تضافر حزمة من العناصر، وأما أنه غلط في العلم فهو في نقل الهامشي إلى مركزي والأساسي إلى عنصر مغيب، وثالثاً تخلق الحالة النفسية أثناء زحزحة المسؤولية عنها ودفعها باتجاه الآخرين إلى انفراج نفسي مترافق بتعطيل آلية الجهد الذاتي فطالما وجدنا فاعل الجريمة فإن كافة أنشطة التحريات عن المجرم الحقيقي تتوقف.

○ كلنا يكذب بقدر وأكثر من مرة في اليوم الواحد ولأكثر من إنسان، هذا ما يقوله المؤلف في (لعبة الكذب)، ويفسرها بأن كثيراً منها بسبب اللغة فنبالغ ونجامل ونكذب ونظن أننا لا نكذب، هذا ما كشفته الدراسات النفسية الحديثة، وهذا أمر معروف ومكرر وخاصة على لسان القياديين والسياسيين.

وذكر أن الطفل في سن الثالثة لا يفرق كثيراً بين نفسه والآخرين، وفي سن الرابعة يبدأ في التمييز بأن فلان أخذ من فلان ولكنه يحتاج لتمييز الخداع والكذب إلى الوصول إلى سن السادسة والسابعة.

ويبدو أن المخادعين الكذابين هم الذين يتسنمون مقاعد قيادية ويؤثرون في الناس ويقررون مصائر العباد، وساق لذلك أمثلة معاصرة لرؤساء دول مارسوا الكذب وأتقنوه.

○ (أصْلِ نفسك حرباً لا هوادة فيها) دعوة من المؤلف لأن يحارب الإنسان نفسه التي بين جنبيه، بمحاربة شهوة الطعام، وشهوة الفم في النطق، وشهوة الجنس وملك الغرائز، إذاً محّص الأفكار والمشاعر التي تداعب مخيلتك دوماً وانتقدها، ولكن من يفعل هذا؟

○ المجتمع المتفوق حضارياً عنده تكون الواجبات فيه أكبر من الحقوق، أما تساوي الحقوق مع الواجبات فهي تعطي فكرة عن مجتمع

متوازن، وعندما تتفوق حركة المطالبة بالحقوق في المجتمع عن تأدية الواجبات اليومية فإن المجتمع يبدأ في الانهيار.

ومعظم أبنائنا ـ كما يقول المؤلف ـ الذين يذهبون للغرب لا يفهمون سر الفعالية فيه ويحصل ما سماه مالك بن نبي الارتماء في مزابل الحضارة ويعني بكلامه رؤية الحضارة الغربية من ثقبين: الفساد الأخلاقي والأجواء المهنية، والحضارة ليست هذا ولا ذاك، لكنها مجتمعات لديها فائض في العملة الاجتماعية (الواجب) مما يجعل أمراضهم مسيطراً عليها.

هذا جوهر ما ذكره الدكتور في (معادلة الحقوق والواجبات).

o تحليل نفسي واجتماعي متميز في مقال (نوادر جحا ومغزاها الاجتماعي)، حلّل فيه المؤلف بعض النوادر المنسوبة لجحا وربطها بثقافة المجتمع وأمراضه الاجتماعية وكأنها ـ أي هذه النوادر ـ تسجيل لاعتراضات وملاحظات على المرض الاجتماعي، ومن هذه الملاحظات: نموذج الصمت الاجتماعي، اللامعقولية في المجتمع، ثقافة المبالغة وفخامة الألفاظ، عندما ينتفي التفاهم لا يبقى سوى التمرد، عند الشعور بالانهيار الاجتماعي يبقى السقف أفضل تعبير. وجعل المؤلف يستنتج هذه الملاحظات من بعض النوادر الجحوية ـ إن صحت النسبة ـ.

وفي آخر المقال خمس عشرة قاعدة ذهبية هي في حقيقتها حقائق جحوية ـ استنبطها المؤلف من قصة لجحا ـ يجب أن يعلقها أمامه كل من يبدأ رحلة الدِّين ويريد استرداده، راجعها في مكانها من الكتاب ففي قراءتها متعة وأي متعة!

o من الضروري أن يتعلم الإنسان في حياته ثلاثة أمور: التواضع، وأن لا يكبر كلماته، وأن يعلم أن الكون يقوم على التراتبية والاختلاف

والتنوع. فأما التراتبية (ففوق كل ذي علم عليم)، وأما الاختلاف فقد رُكِّب الكون على الاختلاف، وأما التنوع فهو التباين في الألوان والأحجام والقوة والفائدة، وأما أن لا يكبر الإنسان كلماته فهو (لا يعرف ماذا يكسب غداً ولا يعرف في أيِّ أرض يموت).

ذكر ذلك المؤلف واستشهد له بـ(قصة الديك والنسر) في دلالة لها عجيبة على المعاني الثلاثة الواردة سابقاً.

○ الواقع الإنساني يروي فظائع عجيبة عن عدالة منقوصة وظلم يلبس عباءة العدالة، قص علينا مثلها المؤلف في (عدالة شيلم)، وهي قصة رمزية ذات دلالة واقعية عن الوقائع غير المتوقعة والتي تصطدم مع كل منطق.

○ (قصة الوزة والحصان) شارك فيها بالإضافة إليهما القُبَّرة والضبع، حيث صار كل واحد من الأربعة يذكر محاسنه ومفاخره على الآخرين.. والخلاصة من القصة أن من أراد التفاخر اكتشف الكثير، ومن أراد كشف الأخطاء عثر على أكثر، ولكن العين عادة لا ترى بل الدماغ، وأعظم شيء يتحلى به المرء نقد ذاته وليس التفاخر، وهذا هو سر تفوق الإنسان.

المقالات السياسية

○ (مجتمع الخوف) أول موضوعات الكتاب السياسية وفيه ذكر الكاتب أن الخوف مخزون غريزي جيد ولكن الخوف من النظام السياسي ثقافي نصنعه بأيدينا ندشن فيه مواطناً منافقاً يُتقن فن الخرس والكذب والتآمر في حزمة إمراضية واحدة، إن تحدَّث مدح مولاه بدون مبرر إلى درجة القرف، وإن نطق كذب حتى يُصدّق نفسه.

وقال: ونحن نبتنا في بيئة مكتوب علينا الخوف بختم على الحبل السري، مدانين بدون ذنب، نخاف فيها من صيحة الأب وعصا الأستاذ وسجن الحاكم، لا نشعر فيها بلحظة أمان من المهد حتى اللحد ودخول القبر. . .

وتحكم دائرة الخوف قبضتها إغلاقاً على الأنثى، فالرجل يهدد المرأة من أول ليلة يدخل بها أنها بضاعة مسجلة انتقلت إليه بالبريد المضمون من يد الأب إلى الزوج، والفتاة ليس لها اسم بل هي بنت فلان، الزوجة معدومة الكنية فهي حرم فلان في ملكيات لا تنتهي للذكر. . إن مجتمعاً بهذا القدر من التشوه تنقلب طبيعته فيصبح ذكورياً توضح فيه كل المفاتيح بيد الرجل المكين الأمين. .

○ وتحت عنوان (التحرر من الخوف) يعتبر المؤلف الخوف عامل طرد كما أن الأمل يعتبر قطب الجذب المقابل، فأفضل حقل تتحرك به النفس هو السباحة بين قطبي الخوف والأمل. . . وعندما يبدأ شعور الخوف بالازدياد والإحساس بالأمل بالتلاشي وتتوقف الحركة تماماً عند استيلاء أحد الشعورين بالكامل على الإنسان، من هنا نبّه القرآن أن لا يستولي علينا هذا الشعور المخدر بالأمن.

ويوضح أنه إذا بقي الإنسان في تردد عادي مع مخططات هبوط وصعود بين الخوف والرجاء كان ضمن الحلقة العادية، فإذا زادت جرعة الخوف تحولت إلى رهاب (فوبيا) تدفع الروح إلى الانزلاق إلى عتبة دنيا لتدخل دائرة خطيرة من القلق المدمر، فإذا تكثف شعور الخوف وازدادت جرعته تحول إلى سم.. وتقود المجتمع إلى شلل.

مع أن القرآن أراد بناء ثقافة يحيد فيها الخوف والحزن ليعيش في مجتمع نطعم فيه من جوع ونأمن من خوف.

○ (التربية الديمقراطية) مقال ثالث عرّف فيه الديمقراطية كما عرَّفها (آلان تورين) في كتابه: ما هي الديمقراطية حكم الأكثرية أم ضمانات الأقلية؟ إنها ثلاثة أشياء: قواعد أولية في حق اتخاذ القرارات الجماعية، وأكبر قاعدة من المشاركة، وأن تكون فعلية لا صورية.

إن رصيد الديمقراطية هو وعي الأمة أكثر من صناديق الاقتراع، الديمقراطية ثقافية وتربية يجب أن يتشربها الطفل مع رضاعة الحليب ومنذ الأيام الأولى من حياته.

قصة النمر والبوم والأرنب الرمزية تعطينا المفتاح لفهم الديمقراطية، وتعطينا السر في فهم: لماذا تنبت الديمقراطية في غابات كندا وتعجز عن النهوض في منطقة أرض الحضارات.

○ قصص حصلت للمؤلف تحكي (مشكلة الإنسان المريض والانتخابات)، الإنسان الذي يصوت بنسبة ٩٩٪ كما يجري في عدة دول لتغيير الدستور والتصويت الرئاسي، ويقف الإنسان حائراً يفكر في طبيعة المرض الثقافي الذي ينتج مثل هذا الإنسان المشوه في الوقت الذي يتقدم العالم فيه إلى تحديد الملكية الدستورية ومحاسبتها، وأن يتأخر الإنسان عن موعده أو لا يتقن عمله أو يرمي بالقاذورات على الأرض مع وجود الحاوية

على بعد أمتار يعني أن هناك مرض مستفحل يضرب في أرض عطنة تفوح برائحة كريهة.. هذا الإنسان المريض هو الذي شكل الاستعداد الخفي لوقوع مأساة حرب حزيران.

○ (المرض العضوي والمرض السياسي) استطاع المؤلف أن يجمع بينهما في هذا المقال فيحلل العلاقة بين استعداد الجسم للمرض ومقاومته له، ثم يربط ذلك بالوضع السياسي في العالم العربي، ويتساءل: في بلد عربي يترافق الاستبداد مع المرض العشائري، وفي بلد ثاني تلتحم العسكرية مع الطائفية، وفي بلد ثالث يتعانق الجبت مع الطاغوت في زيجة حرام، فلماذا يحدث ما يحدث في وطن يمشي إلى الخلف؟!

○ (إمبراطوريات الأجهزة الأمنية) تشبه قبائل البدو بثلاث فوارق: فشيخ القبيلة الأمنية يلبس نظارة إيطالية ويزين صدره بربطة عنق أمريكية وتحته سيارة مرسيدس ألمانية، وثانياً من يدخل في جوار شيخ القبيلة لا أمان له لأن مضارب القبيلة غير مرتبطة بالجغرافيا وكل الوطن هو مضرب شيخ أي قبيلة، وثالثاً أن هذه القبائل الأمنية في حالة حرب دائمة بينها والكل يتنافس في اعتلاء ظهر مواطن لم يعد فيه مكان للركوب.

وهناك ثلاث مفارقات في تركيبة الأجهزة الأمنية: يظن الحاكم أن خلاصه بالإغداق عليها، وأنها تمسك الناس بالرعب، وهي مرعوبة أكثر منهم، والثالثة أن حماية شخص يحتاج إلى فرق حراسة شخصية ولكن حماية الحاكم من كل الشعب تحتاج إلى جيش كامل.

ولفك سحر هذه الإمبراطورية لا بد من كيمياء خاصة من ثلاثة عناصر، ارجع إليها في خاتمة الموضوع فهي جد رائعة تستحق تأملك.

○ (جنون الجماهير) مرض اجتماعي سياسي فالفرد حين يكون بين الكتلة يتحول إلى كائن جديد أشبه بالوحش بلا رأس تضيع فيها معايير

العقلانية وينكمش النقد ويخضع الأفراد في هذا الوسط إلى الانقياد الطوعي ويتحول الفرد من كائن مستقل إلى نكرة في كتلة تتحرك بفعل قوانينها الخاصة، هي كتلة تعمل بشكل آلي مثل أي جهاز فقد السيطرة عليه أحد إلا قائد يبرز في هذه اللحظة أو مفاهيم مغرقة في التعصب تشد القطيع إلى بعضه.

تستطيع فهم هذا الأمر بعمق أكبر لو رجعت لكتاب (سيكولوجية الجماهير) الذي أشار إليه المؤلف في بداية المقال.

○ (قصص العيارين والحرافيش) والأشقياء والقراصنة، من مثل (بانشوفيا)، و(زورو) ذو القناع الأسود، وأبو ليث الصفار، وعلي الزيبق، وغير هؤلاء لهم قصص في التاريخ الشعبي لكثير من الدول في العصر الحديث والقديم فيها متعة وفائدة لمن يعتبر.

○ نحن معاشر العقارب لا نرتاح إلا بتفريغ أجسامنا المحتقنة بالسموم بلدغ الآخرين فلا تؤاخذني بما بدر مني ولا ترهقني من أمري عسراً.. هكذا قال العقرب لصديقه الضفدع في (قصة الضفدع والعقرب) فهل فهمت ما يقصده المؤلف؟

○ وأما في قصة (التاجر والببغاء) فالحيلة في التخلص من شباك الآخرين وأقفاصهم، للخروج من الضيق إلى السعة، في حادثة جميلة ورمزية.

في قضايا المرأة

○ (قصة المرأة: يذكر فيها المؤلف أن الاعتراف بمكانة المرأة في حياته وفي كثير من المجتمعات مرت بمراحل نضج، فعلى صعيده الشخصي منع أخته من متابعة التعليم بينما ابنته الصغرى الآن تدرس في كلية الحقوق. وعلى صعيد المجتمعات الغربية في ألمانيا سمح للمرة الأولى عام ١٨٩٩م للفتاة بأن تدخل كلية الطب وقد كان ذلك عليها محرماً، وفي بريطانيا لم يسمح للنساء بالإدلاء بأصواتهن إلا في عام ١٩١٢م، وهكذا يصبح التاريخ رحلة على جسر المعاناة فوق نهر من الدموع.

○ (لكونها أنثى.. قصص عالمات كافحن في جو التمييز الجنسي) ذكر الدكتور فيه قصص مجموعة من النساء ممن ساهمن في أعظم إنجازات الثورة العلمية الحديثة، ومع هذا رُفِضن ولم يُعترف بهن، وهن ثلاث نسوة عبقريات كان لهن الدور الكبير في اختراقات نوعية: إحداهن كشفت النقاب عن تركيب الشفرة الوراثية، والثانية طورت تقنية معرفة التركيب الذري للبنسلين والأنسولين، والثالثة طرحت فكرة ثورية عن طفرة الجينات وتغيير صفات الكائن مع الزمن.

○ (علاقات القوة والجنس) مقال انتصف فيه الدكتور للمرأة من الرجل بطريقة نسب فيها القوة والحروب والبطش للذكور، وبناء الحضارة إلى بَرَكة يدي المرأة، في استعراض تاريخي واجتماعي مرَّ فيه بتاريخ الصين والهند واليابان على عجل، واستشهد فيه بآراء بعض المفكرين والنفسيين انتصروا فيها للمرأة من المجتمعات الذكورية الظالمة لها لأنها مصدر الحب والحياة والرحمة والوفاء والمؤمنات منهن قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله

ولديها ذكاء عاطفي ليس للرجال. ونظراً للظلم الذي عانته المرأة في الغرب جاءت ردة الفعل لتساوي بينها وبين الرجل وخرج كثير من النساء وتدفقت أمواج الإباحية وتحطمت كل البنى القديمة، وبدأت أفلام الجنس في الغرب، وأصبح جسد المرأة المسرح السياسي لطغيان الرجل.. إنه طغيان الرجل على المرأة يتجلى في صور عديدة ذكرها المؤلف فليرجع لها هناك.

○ (روزا باركس) الأمريكية السوداء صاحبة القصة الشهيرة عام ١٩٥٥م، و(بيرتا فون سوتنر) الألمانية عام ١٨٨٩م صاحبة قصة تخلصوا من السلاح، و(أرند هاتي روي) داعية السلام الهندية، و(إيميلين بونكهرست) البريطانية، و(لوزا لوكسمبرغ) الألمانية أيضاً، و(قرة العين) الإيرانية، ست (نساء مكافحات للسلام) لكل واحدة منهن قصة عجيبة وجهاد سلمي ـ ضد العنف ـ بديع يستحق الدراسة والإجلال، ذكرهن المؤلف بمواقف وكتابات لهن جديرة بالقراءة والاهتمام، فاقرأها هناك.

○ القرد في عين أمه غزال.. كلنا نعرف هذا المثل، ولكن الكثيرين منا لا يعرفون (القصة الروسية) المعروفة في التراث الروسي والتي تجسد هذا المثل، فليقرأها كما يرويها المؤلف في هذا الكتاب.

○ استطاع المؤلف في سبع صفحات أن يجسد (مشكلة المرأة) في مجتمعاتنا ـ كما يراها ـ في سوء فهم الآية ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] وتُفهم على أنها تعني الأفضلية على أنها في الحقيقة لا تعني سوى الغيرية، والبعض يمنع المرأة من التعليم بينما وافق البعض على تعليمها ويقف بها في مرحلة الابتدائية أو المتوسطة أو الثانوية، وساق كلاماً لمالك بن نبي ذكر فيه أن الذين يطالبون بإبعاد المرأة عن المجتمع يختفي وراء مطلبهم مغزى التمسك بالأنثى!

○ هل هناك فروق بيولوجية بين دماغ الرجل والمرأة؟ وما هو المدلول

العلمي لذلك، سؤال أُرسل للمؤلف فأجاب عنه بقوله: نعم هناك فروق بيولوجية بين دماغ المرأة ودماغ الرجل فقد ثبت أن تكوين دماغ المرأة أفضل من الرجل من عدة جهات، فهو أشد كثافة في الجسر الذي يربط بين نصفي الدماغ وهذا يعني أنها أفضل في التعليم والامتلاء الثقافي والحديث والتفوق الدراسي، كما أن المرأة تتفوق على الذكر بتحملها، وكان هذا الرد البوابة التي فتحت مجالاً لحوار بين المؤلف وبين أحد المحامين عن حقوق الذكور المهضومة كتب عنه في مقال بعنوان (دماغ الرجل والمرأة).

○ (ألف ليلة وليلة) قصة مشهورة في التراث العربي، بدايتها تعبر عن مشكلة المرأة المركزية في المجتمع، وبالأخص عن خيانتها لزوجها، وكيف استطاعت زوجة الملك شهريار أن تعالج فكرة زوجها عن المرأة واستحقاقها للقتل بالقصة، هذا ما ذكره المؤلف عن المغزى المستفاد من القصة بغض النظر عن مناقشة صحة هذه الروايات من عدمها، فلذلك مجال آخر وحديث مختلف.

○ (هندسة الثقافة الجنسية) موضوع خطير، وفيه عناوين جانبية مثيرة مثل أوركسترا الجنسية، والطاقة النووية والجنسية الاجتماعية، وهرم الحاجيات النفسية ومكان الإشباع الجنسي، والحضارة والجنس، والجنس ومفاصل حركة التاريخ، وانشطار في الثقافة.

الحاجة الجنسية طاقة يجب الاعتراف بها وإشباعها، أو التسامي بها إلى حين، كي يحقق الإنسان توازنه، فالعطش الجنسي غريزة تتطلب الإرواء والتلبية تماماً مثل العُطاس والتبول والجوع، ولا تهدأ الروح بدون صرفها بالتفريغ.

كل الحضارات خلدت نفسها من خلال رموز عن أعضاء الخصوبة والتكاثر، الحضارة الهلينية خصصت (الآلهة أفروديت) بالحسن والجمال

الذي لا يضارع، وفي (بريتاني) في فرنسا خلدت الشعوب البدائية قبل أربعة آلاف سنة عموداً من الحجر بارتفاع تسعة أمتار عضو التكاثر، وخلد (حمورابي) قوانينه على حجر أسود على شكل عضو ذكري.

○ في مقال (الغريزة والإنجاب) ناقش الدكتور خالص فصل الجنس عن الإنجاب، بوضع قدرة التحكم في الغريزة تقديماً وتأخيراً أو منعاً، وكيف أن ثورة الفياجرا تدفع لنفس اتجاه تطوير المتعة الجنسية مفصولة عن الإنجاب، فالدواء يقوي الباه والانتصاب عند الرجال، ولا علاقة له بالإنجاب، ومانعات الحمل حرّرت الإنسان مرتين، فهي وضعت يد الإنسان على سر الحمل بالإمساك بالإباضة والتلقيح وهي أعطت حقنة المتعة الجنسية بدون خوف الحمل.

وعن الانكسار في المخطط الديموغرافي في مستقبل الإنسان ذكر المؤلف أنه بقدر انتشار المتعة للمتعة فإن هذا يقود إلى أمرين خطيرين: الأول: اضمحلال العائلة، والثاني: تفسخ الخلق وولادة الانحرافات الجنسية.

مقالات حول ظاهرة العنف

○ (اليوم الأشد سوءاً في تاريخ ألمانيا الحديث.. مذبحة إيرفورت): إنه يوم ٢٦ (أبريل ـ نيسان) من عام ٢٠٠٢م، الذي اقتحم فيه الطالب (روبرت شتاين هويزر) ثانوية (جوتنبرغ) وعلى ظهره كيس مليء بالأسلحة والذخائر وحمل مسدساً وبندقية قصيرة وجعل يصطاد الأساتذة والمعلمات مثل العصافير وكان حصاد الهشيم ستة عشر قتيلاً ثم لما حوصر أطلق النار على جمجمته وقتل نفسه.

وفي ٢٠ نيسان عام ١٩٩٩م قتل كل من (إيريك هاريس) و(دايلان كليبولد) ثلاثة عشر إنساناً وجرحا ٢٨ آخرين بين مدرس وتلميذ ثم انتحرا. وفي عام ١٩٩٧م تواترت تسعة حوادث مزلزلة كان أشدها حادثة طفلان لا يزيد الكبير منهما عن ١١ سنة قتلا في مدرستهما المعلمة وأربعة من التلاميذ..

القتل الجماعي مرض يصاب به ثلاثة أصناف من الناس: جماعة (الشيزوفرنيا) الانفصام، والمصابون بالاكتئاب، وأخيراً ذو الشخصيات المضطربة. ويمتاز مريض القتل الجماعي بست صفات: أنه رجل في حدود ٣٥ سنة، والأقرب أن يكون مثقفاً وبقدر ثقافته بقدر بطشه، وعادة يقع في ظروف الحادثة تحت انهيار نفسي من البطالة على الرغم من كفاءته المهنية، ويمتاز بأنه خامل جنسياً أو خجول لا يعرف الحب أو الجنس، وفي النهاية مستعد للقتل بسرعة وأعصاب باردة وقسوة الحديد، وفي العادة يكون قد انتقى سلاحه واستعد ليوم الفصل ويمارسه على شكل طقوس مثل لبس القناع، وفي النهاية ينتحر.

○ (الكراهية تربة العنف.. المذبحة الأعظم في مدلسة ليتلتاون): لهذا المقال اتصال قوي بالذي قبله، وقدم له بأن: العنف شجرة خبيثة تربتها الكراهية وثمرتها الخوف والجريمة، تتبرمج في النفس من خلال دورة حضانة للأفكار تترسخ في اللاوعي لتطفح في النهاية على السلوك مثل المرض الفيروسي في إنتاجه مرض جنون البقر والبشر.

في ٢٠ نيسان ١٩٩٩م يقتل كل من (إيريك هاريس ١٨ سنة) و(دايلان كليبولد ١٧ سنة) في كافتيريا المدرسة لمدة ساعة ثلاثة عشر إنساناً من المدرسة هم من السود والإسبان والرياضيين، وبأعصاب باردة، وجرحا أكثر من ثمانية وعشرين آخرين، ثم انتحرا. وكانت هذه الجريمة وأشباهها تصب على حقل إنساني محدد من السود أو البنات أو الأطفال.

يبدأ العنف في الصدور، ويحتل العنف طيفاً عريضاً من مشاعر النفس فتعبر عنها قسمات الوجه بالحقد واللسان بالتعبير السام واليد بالبطش والمجتمع بالحرب، العنف يبدأ من البرمجة الذهنية واستيلاء مشاعر الكراهية كمرض ثقافي يتشربه اللاوعي فيفرز السلوك. وتقوم مشاعر الكراهية بنفي الآخر والارتداد على الذات فلا تتوحد مع الآخرين ولا تعترف بهم أو يبقون.

○ (المناضلة البورمية من أجل الحرية) السيدة (أوانج ساسو كايا) البالغة من العمر ٥٦ سنة، وكفاحها نموذج على الكفاح السلمي والتخلي عن القوة وعدم رد الأذى بالأذى، وفي المقال مناقشة للعمل المسلح الذي يرى صاحبه فيه أنه سيد الأحكام، وذكر المؤلف أمثلة للثورة والعنف وما صنعته في مجتمعات كثيرة وكيف كانت نهاية هذه الثورات والأعمال العسكرية، وكيف استطاعت هذه السيدة الضعيفة بدنياً بمنهجها الكفاحي السلمي أن تنال احترام العالم ونالت جائزة نوبل للسلام، وكيف استطاعت هذه المرأة أن

تعلمنا ثلاثة أفكار في قصة كفاحها مهمة ونافعة لقوم يعقلون!

○ يظن البعض أن الجهاد هو استخدام القوة المسلحة ضد الحكومات التي لا تحكم بالشريعة الإسلامية، وهذا خطأ في اختزال الجهاد إلى قتال مسلح، فليس الجهاد بيد فرد أو حزب أو تنظيم سري مسلح تحت الأرض أو في جبال الجزائر أو كهوف تورا بورا، وهو ارتكاب خطأ منهجي فَليْ التغيير الاجتماعي عن طريق القوة المسلحة، واستبدال الإقناع بالإكراه، وهو من باب خفي عبادة للقوة وارتهان لها.

وهنا ثلاث حقائق جوهرية ـ يذكرها المؤلف في مقال (ما هو الجهاد؟) ـ: الأولى: إن تغيير الإنسان والمجتمع يتم بطرق سليمة وليس بالسيف أو الانقلاب المسلح.

الثانية: إن القتال أو استخدام القوة المسلحة محصور في الدولة وليس في الأفراد أو التنظيمات.

والثالثة: إن القتال المسلح مسخَّر ليس لنشر الإسلام في الأرض بل لرفع الظلم عن الإنسان مهما كان.

○ قال أحد المتشددين للمؤلف: لقد مارس الرسول ﷺ الاغتيال السياسي فماذا تقول؟ كان السؤال باباً لحوار حول المنهج التفجيري والاغتيالي الذي تتخذه بعض الجماعات منهجاً لها، وكان الرد واضحاً من خلال مقال (الاغتيال في الإسلام)، الذي فنَّد فيه المؤلف هذا المنهج ووضع ضوابطه وشروطه ومن يمارسه وضد من، وكيف تفهم تصرفات الرسول ﷺ مثل إعدام ثمانمائة شخص من اليهود بعد معركة بني قريظة بتهمة الخيانة العظمى.

○ (الأفكار الصادقة والأفكار الفعالة) نبّه فيه المؤلف إلى أن فعالية الأفكار لا يعني صدقها والتحمس في الكلام لا يعني الحقيقة كما أن صدق

الأفكار لا يعني فعاليتها. وتوظيف حدث الحادث عشر من سبتمبر ـ أيلول ـ لا يدخل في باب صدق الأفكار بل فعاليتها وكيف توظف، ولا يختلف اثنان أن ابن لادن كان خلف الحدث. وأحداث سبتمبر يجب أن تفهم أنها وظفت ضد المسلمين وتضرر منها الأمريكيون، وزادت شراسة إسرائيل، واشتدت قبضة الأنظمة الدكتاتورية في العالم فزجت بالمزيد في السجون، وتعرضت الحريات العامة والشخصية لنكسة لحساب الأمن.

والسؤال: ما هي المستقبلات أو الأرضية أو القابلية التي تنجح فيها تهمة دون تهمة في الالتصاق؟ والجواب هو الاستعداد الخاص، وما حدث في أمريكا يسهل على أمريكا أن تلصق التهمة بابن لادن وليس بِ نلسون مانديلا.

○ إذا أخذ التدين بجرعته المناسبة أنعش الكيان ومنح الإنسان زاد التقوى ومعين الصبر وألغى عبادة الأشخاص، وإذا زادت الجرعة انقلب الوعي إلى تعصب، والعلاقات إلى عداوات، والحياة إلى جحيم لا يطاق من المحرمات، وبرمجت الحرب وانقسم الناس إلى شيعتين: من يؤمن بالقتل وسيلة لحل المشاكل، ومن لا يبسط يده بالقتل ولو هدده أحدهم بالقتل، والتشدد في الدين تطرف وجنون بدون مصحات عقلية، فهذه القيمة الجدية للأشياء ضمن وسطها المناسب الذهبي تعطي الحياة نكهة ومعنى وجرعة توازن، ولن يخرج الدين عن هذا القانون الذي هو أسمى شيء في الوجود ويعطي الحياة معنى، ولذا فإن التشدد هو ضد قوانين الحياة وهو يدمر نفسه ومن حوله، ومن هنا فإن التحذير والحذر مهم (عندما يصبح التدين ضد الدِّين).

○ لا يتم العنف بدون استخدام آلته من التهديد بالتصفية الجسدية بالمسدس أو الحرمان من الحرية بالسجن أو العزل الاجتماعي بالاتهام

بالجنون أو فك المتمرد عن مجتمعه بالنفي، والحاكم الذي يمارس البغي بآلة العنف قد يأخذ رضوخاً من الأمة ولكنها تمارس المقاومة بطريقتها الخاصة بالانفجار اللاحق أو إعلان حالة الإضراب العام الخفي والانسحاب من الحياة، كما يمارس العالم العربي اليوم الإضراب الخفي في ثلاثة أشكال: تدني الإنتاجية، وتعطل الخدمات الأساسية، ونظافة البيوت من الداخل وقذارة الشوارع العامة في الخارج، وأخيراً بتخريب المرافق العامة.

القوة مغرية تثير الشهوة لامتلاكها ولكنها مصيدة مشؤومة للحاكم والمحكوم، وهي أداة ممتازة لممارسة الإكراه ولكنها تولد الخوف. والخوف يُعالَج بالكذب أو التملق، والمواطن العربي ولد في مجتمع الخوف، وإذا زرعت بذور الكراهية نمت شجرة العنف بكل قوة لتعطي ثمراتها من الخوف، والشجرة الخبيثة تعطي ثمرات رديئة.

o هرم الحاجيات عند الإنسان يصعد من الحاجيات الفيزيولوجية إلى قمة الهرم بتحقيق الذات من خلال قانون الحب، فبدون الحب تنطفئ بهجة الحياة.

ولا يمكن أن يدور أي حوار وينتهي بنتيجة خصبة مثمرة في جو مشحون بالغِل والكراهية، فالحب والاعتراف بالآخر وعدم تهميشه وإلغاءه قاعدة أساسية لإدارة دفة الحوار، ولعله ينفعنا في يومياتنا أن نتبنى قواعد للحوار صارمة نربي أنفسنا عليها في محاولة استنبات وسط الحب، ومن هذه القواعد: أن لا أنفعل مهما حدث، وأن لا أغلظ في حق الآخر مهما تحدث، وأن لا أرفع صوتي مهما تحدثت، وأن أصغي للآخر قبل أن أجيب، والاستعداد للتراجع إذا تبين الخطأ، وأن لا أخاف أمام التهديد، وأن لا أكره أو أحقد على المختلف معي، والاستعداد للاعتذار حتى لو

خامرني الشعور أنني لم أخطئ، وأن أجعل جو الحديث ودياً بالابتسامة العذبة، وأن أذكِّر نفسي بالقواعد السابقة، كل هذه نقاط مهمة للتفريق بين (قانون الحب وقانون العنف).

مقالات حول اختراعات علمية وطبية

○ (القرآن والتاريخ.. قصة الطوفان ـ أحدث كشف أركيولوجي): هناك ثلاث مفاهيم تأسيسية في جدلية القرآن والتاريخ، اعتبر القرآن أولاً التاريخ ليس مجرد حوادث تائهة طائشة عشوائية بل نظر إلى التاريخ أنه تدفق وصيرورة تمسك حركته مفاصل سننية وتنير طريقه واتجاهه نواظم كونية غائية عظمى، واعتبر القرآن ثانياً التاريخ مصدراً للمعرفة، وثالثاً وقف القرآن أمام أحداث تاريخية بعينها يعتمدها كمقارنة بين ما يولد من بطون الأيام الحبالى وما بين الحق الذي جاء به.

وتحدث في المقال عن قصة الطوفان وورودها في تاريخ الحضارات القديمة، وكيف وردت في حفريات نينوى باللغة الآشورية، كما وردت القصة في العهد القديم، وذكر عرض القرآن لقصة الطوفان، واستشهد بنتائج الحفريات وبقايا الرسوبيات ونحت الطبيعة وتآكل الشواطئ وحديث الأوقيانوس وبقايا الحيوانات المحفوظة في براد الطبيعة، ثم سرد سيناريو الطوفان حسب الكشوفات الجديدة، كل هذا في مقال جميل جدير بالتفحص والتدقيق.

○ خلال عام ١٩٩٨م تمخضت الأحداث عن مجموعة من الهزات العلمية والفنية، فانفجرت قنبلتان نووية وبيولوجية، وأعلن عن مراجعة تاريخية في الفاتيكان، وتم التأكد من جثة (برومان) الرجل الثاني بعد (هتلر)، وأعيد إحياء الرومانسية في فيلم غرق (التيتانيك) بعد عاصفة فيلم المريض الإنكليزي، من خلال مقالة حول (الثورة الكيميائية الحديثة).

○ (أسرار الطاقة النووية والجنسية والتاريخ والكروموسومات) جمعها المؤلف في هذا المقال، ومن هذه الأسرار تطور علم خاص بالمقابر

والجثث وبقاياهم، واكتشاف دواء الفياجرا للإنجاز الجنسي بمحاربة ضعف الانتصاب والعنة لدى الرجال، وتحدث عن هذين الإنجازين العلميين في أثر الاكتشافات العلمية في نفع البشرية.

○ (الإعجاز العلمي في القرآن) قضية يعترض عليها المؤلف، ويرى أنها توريط للآية القرآنية في معنى محدد كشف عنه العلم الحديث، وأن في هذا المنحى خطراً كبيراً وخطأً قاتلاً، وتحجيماً للانهائي في النهائي، ويرى أن هذه بدعة حمقاء، ويرى أنه قد يحدث توافق في بعض الآيات القرآنية عن حقائق علمية تم اكتشافها ولكنها عرضية ولم يوردها القرآن بشكل أساسي، ويرى كذلك أن هذا الاتجاه يحمل كل معاني الهزيمة الروحية، إذن نريد أن ندلل على صحة قضيتنا بما أنتجه مخالفنا في الوقت الذي نريد إبطال دعواه والتظاهر عليه بالتفوق.

هذه المعاني وأشباهها سطرها المؤلف في هذا المقال الذي سيثير حوله العاصفة من الاعتراضات والانتقادات من أهل هذا العلم المشتغلين به.

○ إذا كنت تريد أن تعرف قصة (الكون.. هذا السر العظيم)، فما عليك سوى متابعة مقالِهِ الذي تحدث عن عدد النجوم، وضوئها المنبعث منها، ومتى بدأت الحياة في أرضنا وكيف؟ وكيف ولد هذا الكون؟ وما أقوال العلماء حول نشأته والنظريات التي قيلت فيه والاعتراضات العلمية على نظرية الانفجار العظيم، والمعلومات قد أصبحت كالنهر يزداد عرضه يوماً بعد يوم، ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾.

○ (لماذا نَشِيْخ؟ لماذا نموت؟.. نظريتا الموت بين الاهتراء والبرمجة) مقال علمي طويل نسبياً؛ إذ يصل إلى ست عشرة صفحة، كلها تدور حول محاولات الفلاسفة والعلماء المعاصرين في فهم سر الموت وكيف عجزوا جميعاً عن فهم سر الموت، والأهم وإن استطاعوا التغلب على الألم والمرض والشيخوخة باكتشاف أسرارها وإمكانية علاجها إلا أنهم

وقفوا أمام الموت حائرين، لماذا الموت؟ وماذا يعني الموت؟ ولماذا يراهن الدين على فكرة الخلود كنبع فلسفي للفكر الإنساني يعطي معنى للوجود، وكيف باءت محاولاتهم من خلال البرمجة الجينية في التحكم بالموت، ومع وصولهم لمعرفة (الكروموسومات) التي تُكَوِّن أعضاء الإنسان إلا أنهم عن لجم دقات الساعة البيولوجية عاجزون.

وبعد، أخي القارئ الكريم، لعلك قد تصفحت هذه الوريقات التي حاولت فيها أن آخذك معي في جولة سريعة ورحلة عجلى حول موضوعات هذا الكتاب الشيق، أردت فيها أن أسهل عليك الولوج لداخل صفحاته وطيات أفكاره التي أظن أنك ستعجب مما فيها من ثقافة فكرية معاصرة وآراء متنوعة لا تنقصها الصراحة والجرأة، ومن قدرة المؤلف على تحمل مسؤوليته تجاه أفكاره الشجاعة التي ربما يخالف في بعضها الآراء الفكرية أو الاجتماعية السائدة.

وإني لأؤكد أن هذه الإلماحات ليست سوى تعريفٍ وتصويرٍ، وليس نقداً أو تحليلاً لهذه الأفكار، ولك أخي القارئ أن تقرأ ما في هذا الكتاب بهدوء واتزان لتحكم بنفسك على ما فيه وتحدد دوائر الاتفاق والاختلاف مع الكاتب، وإني لأدعوك إلى قراءة فكرية حرة مستفيدة وناقدة علّك تصيب من خلالها خيراً قد يكون فكرة جديدة، أو معلومة غريبة، أو شبهة مردودة، أو عبارة فريدة، وقد تجد فيه شيئاً لا يتفق مع بعض أفكارك الراسخة في ذهنك؛ فلتكن هذه القراءة فرصة لمراجعة القديم أو لنبذه إن رأيت الصواب في غيره، أو للتأكيد على صحة ما لديك من مُسلّمات قديمة، والله أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى أصحابه وسَلَّم تسليماً كثيراً.



المحتوى

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

مركز الراية
للتنمية الفكرية

مؤسسة ثقافية ناشرة تعنى بالفكر الإنساني وتجلياته الإبداعية، وتسعى لبعث ثقافة منفتحة تعانق الآخر ولا تستبعده أو تقصيه، وتمي أنهار المعرفة بتغذيتها بفكر حر متجدد.

يقوم المركز على ثوابت وقسمات هوية الأمة الرئيسة ليؤصل مفاهيم حضارية مثل:

- ✓ العقلانية والرشد الفكري هما ركيزتا البعث الحضاري المنشود للأمة.
- ✓ استلهام الدروس والعبر من الماضي ليعيش الحاضر بعين مبصرة واستكشاف المستقبل بروح متبصرة.
- ✓ التركيز على عوامل العطل والكلالة والاستنبات التي أدخلت الأمة في نفق الصوت لا الفعل، ومحاولة الكشف عن جذورها ورصد تفرعاتها المتعددة وصولاً إلى حلول لأمراضنا الفكرية والتربوية والنفسية والاجتماعية و... و...
- ✓ إغناء عقل القارئ العربي بما فيه المتعة والفائدة، وجذب القراء بمختلف شرائحهم العمرية بإصدار ما يتفق مع طموحاتهم وينمي وعيهم ويفتح آفاق المعرفة أمامهم.
- ✓ إصدارات أكثر تنوعاً وغنى لوضع أسس جديدة في تفهم الذات والتعامل مع الآخر وذلك من قبل مجموعة من المفكرين المتميزين بفكر حر أصيل.





إن المواطن لا ينقصه الحماس بقدر الوعي.

والبنزين الذين يندلق على الأرض يقود إلى حرائق أو تلوث في البيئة.

وتوليفة من الحماس والجهل جرعة تفجيرية.

وعندما يتحرك البدن بدون دماغ فليس أمامه إلا الارتكاسات الفوضوية من النخاع.

وبالمقابل فليس أفضل من (القوي الأمين) الذي جمع بين (الإرادة والقدرة) أو (الوعي والإخلاص).

وفي العالم العربي الكثير من المشعوذين الذين ينقصهم التأهيل الفني من القمة إلى القاعدة.

والأنظمة في العالم العربي تريد مواطناً جاهلاً ومسكيناً وأسيراً فهذا أفضل لاعتلاء ظهره واغتيال ضميره.

إنه لا شيء أضر على قضية من معالجتها بالحماس مع الجهل، ولا أضر على الدين من فتوى يصدرها مفتي يجلس في جيب الحاكم، ولا أزعج للآذان من سيمفونية يشترك فيها مواطن أعمى وفقيه دجال وسياسي ماكر.

الاصول العشرة للتخلف

١ - الأصل في (الإنسان) الإدانة.

٢ - والأصل في (الوقت) الإضاعة.

٣ - والأصل في (الأشياء) الحرمة.

٤ - والأصل في (الأصوات) القباحة.

٥ - والأصل في (اللباس) القذارة.

٦ - والأصل في (العمل) عدم الإتقان.

٧ - والأصل في (العقل) الجهل.

٨ - والأصل في (المكان) عدم البيان.

٩ - والأصل في (المعاملة) المقاتلة.

١٠ - والأصل في (المرأة) العزل والإهانة.

